لطائف المنن

للإمام الأكبر
الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

الناشرون

دار الكتاب المصرى
القاهرة

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

لطائف المنن

رقم الإيداع

١٩٩٠/٤٨٧١

I. S. B. N. 977 - 238 - 131 - 1

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج م ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ فاكسميلي (٢٠٢) ٣٩٢٤٦٥٧

ص.ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقيا كتامصر

TELEX No: 23081 - 23381 - 22181

ATT: MR HASSAN EL - ZEIN

FAX (202) 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت: ٨٦١٥٦٣ - ٨٦٠٧٩٢ - فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)

ص.ب ١١/٨٣٣٠ أو ١٣٥٣٥٢ - بيروت - لبنان

برقيا: داكلبان

TELEX DKL 23715 LE

ATT MISS MAY HASSAN EL - ZEIN

FAX (9611) 351433

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

First Edition

1991 A.D — H 1411

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴾

(صدق الله العظيم)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين. وبعد:

فإن آثار الهداة المهديين الذين رسموا الطريق عن خبرة، ودعوا إليه على بصيرة، كثيرة. ومن أنفسها كتاب «لطائف المنن». ألفه الإمام الجليل ابن عطاء الله السكندري الذي جمع بين رئاسة علوم الشريعة وعلماء الشريعة ورئاسة علوم الحقيقة وعلماء الحقيقة: فكان متشرعاً متحققاً، بل رأس علماء التشريع وعلماء التحقيق.

ويقول الإمام أحمد زروق رضي الله عنه:

هو الشيخ الإمام العامل العارف بالله المحقق الكامل أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسيني بن عطاء الله، الجذامي نسباً، المالكي مذهباً، الإسكندري داراً، القاهري مزاراً. توفي بالقاهرة سنة سبعمائة وتسع في جمادى الآخرة، وكان أعجوبة زمانه في التصوف وغيره كما قيل:

حلف الزمان ليأتين بمثله　　حنثت يمينك يا زمان فكفر

ويذكر الشيخ زروق من تأليفه:

«التنوير في إسقاط التدبير» و«لطائف المنن» و«تاج العروس» و«مفتاح الفلاح» و«القول المجرد في الاسم المفرد».

أخذ العهد على الإمام الكبير أبي العباس المرسي، الذي قال عنه القطب الشاذلي: «إنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض».

وقال فيه:

هذا أبو العباس منذ أن عرف الله لم يحجب عنه، ولو طلب الحجاب لم يجده!!

ويقص ابن عطاء الله في كتابه اللطيف الشائق: «لطائف المنن»، قصة صلته بأبي العباس فيقول:

«كنت لأمره (أي لآمر الشيخ أبي العباس) من المنكرين وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه ولا لشيء صح نقله عنه، ولكن جرت المخاصمة بيني وبين أصحابه فقلت فيهم قولاً عظيماً، ثم قلت في نفسي: دعني أذهب أنظر هذا الرجل، فصاحب الحق له أمارات. لا يخفى شأنه، فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس، ومسألة درجات السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به، وقربهم منه فقال:

الأول إسلام: وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسم الشريعة.

وثانيها الإيمان: وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية.

وثالثها الإحسان: وهو مقام شهود الحق تعالى في القلب.

وإن شئت قلت الأول عبادة، والثاني عبودية، والثالث عبودة.

وإن شئت قلت الأول شريعة، والثاني حقيقة، والثالث تحقق.

فما زال يقول: وإن شئت قلت وإن شئت قلت إلى أن بهر عقلي وسلب لبي، فعلمت أن الرجل يغترف من فيض بحر إلٓهي ومدد رباني: فأذهب الله ما كان عندي، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد في شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل على عادتي، ووجدت معنى غريباً لا أدري ما هو، فانفردت في مكان أنظر إلى السماء وكواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فلمس قلبي أشياء لم أعرفها من قبل، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى فأتيت إليه، فاستؤذن لي عليه، فلما دخلت إليه قام قائماً وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً، واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك، فكان أول ما قلت له؛ أيا سيدي أنا والله أحبك: فقال: أحبك الله كما أحببتني، ثم شكوت له ما أجده من هموم وأحزان، فقال:

أحوال العبد أربع لا خامسة لها، النعمة، والبلية والطاعة والمعصية، فأن كنت في النعمة فمقتضى الحق منك الشكر، وإن كنت في البلية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار، فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم ثوباً نزعته، ثم سألني بعد ذلك بمدة، كيف حالك؟ فقلت: أفتش عن الهم فما أجده، فقال:

ليلي بوجهك مشرق   وظلامه في الناس ساري
والناس في سدف الظلا   م ونحن في ضوء النهار

الزم، فوالله لئن لزمت لتكونن مفتياً في المذهبين في علوم الظاهر وحقائق الباطن».

وعن هذه الملازمة يروى ابن عطاء الله القصة التالية، قال:

خرجت يوماً من عند الفقيه مكين الدين الأسمر رضي الله عنه، وخرج معي أبو الحسن الجزيري وكان من أصحاب الشيخ أبي الحسن فسلمت عليه، فسلم علي ببشاشة وإقبال، فقلت له: من أين تعرفني؟

فقال: كيف لا أعرفك؟ كنت يوماً جالساً عند الشيخ أبي العباس وكنت أنت عنده، فلما نزلت قلت له: يا سيدي إنه يعجبني هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة وهذا الشاب ملازم قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن، لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله فكان كما قال الشيخ ولله الحمد.

أخذ ابن عطاء الله العهد على أبي العباس، ولازمه، وكانت بينه وبينه أمور توضح شيئاً من صلتهما وتلقى بعض الأضواء على سيرته، منها مثلاً ما يدل على أن جد ابن عطاء الله كان فقيهاً معارضاً للنزعة الصوفية.

جاء في لطائف المنن: وأخبرني بعض أصحابه قال: قال الشيخ (أبو العباس) يوماً: إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية فأعلموني به، فلما أتيت أعلمنا الشيخ بك، فقال: تقدم، فتقدمت بين يديه، ثم قال:

جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذبته قريش، فقال له جبريل (عليه السلام): هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك في قريش، فسلم عليه ملك الجبال، وقال: يا محمد إن شئت أطبق عليهم الأخشبين فعلت، فقال رسول الله ﷺ:

لا. ولكن أرجو أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله ولا يشرك به شيئاً.

فصبر عليهم رسول الله ﷺ رجاء من يخرج من أصلابهم، كذلك

صبرنا على جد هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه» أهـ .

ولكن الأمور، في الاطمئنان إلى المسلك الصوفي، لم تكن تسير، في كل ظروفها رخاء: فإن ابن عطاء الله كان طالباً محباً للعلم مشغوفاً بقراءة الكتب، وبينما هو مندمج في الجو الطلابي إذا بالطلبة يتحدثون عن العلم الظاهر والتصوف ويروي هو القصة كما يلي:

وكنت أنا سمعت الطلبة يقولون: من يصحب المشايخ لا يجيء منه في العلم الظاهر شيء، فشق على أن يفوتني العلم، وشق على أن تفوتني صحبة الشيخ رضي الله عنه، فأتيت إلى الشيخ وجدته يأكل لحماً بخل، فقلت في نفسي: ليت الشيخ يطعمني لقمة من يده، فما استتممت الخاطر إلا وقد دفع في فمي لقمة في يده، ثم قال: نحن إذا صحبنا تاجر ما نقول له اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له: اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له: اترك طلبك وتعال ولكن نقر كل أحد فيما أقامه الله فيه. وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه. وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ، فما قال لتاجر: اترك تجارتك. ولا لذي صنعة اترك صنعتك، بل أقرهم على أسبابهم، وأمرهم بتقوى الله فيها.

ولكن يبدو أن ابن عطاء الله حينما اندمج في جو الأستاذ ولازمه حاول محاولة رده الأستاذ عنها، يقول ابن عطاء الله:

ودخلت أنا عليه يوماً وفي نفسي ترك الأسباب، والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر، قائلاً: إن الوصول إلى الله لا يكون إلا على هذه الحالة، فقال من غير أن أبدي له شيئاً:

صحبني بقوص إنسان يقال له: ابن ناشي، وكان مدرساً بها ونائب الحاكم، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا. فقال: يا سيدي أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما

أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك واصل. ثم قال: وهذا شأن الصديقين لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى إخراجهم فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي وكأنما كانت ثوباً نزعته ورضيت عن الله فيما أقامني فيه.

ولقد قدر الإمام أبو العباس تلميذه النابه، وتبنى قيادته إلى المكانة الجدير بها، ويشير إلى ذلك القصتان التاليتان، يقول ابن عطاء الله:

«وكنت قلت لبعض أصحاب الشيخ؛ أريد لو نظر إلى الشيخ بعناية، وجعلني في خاطره، فقال ذلك للشيخ، فلما دخلت على الشيخ رضي الله عنه قال:

لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا في خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ في خاطركم، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم تكونون عنده.

ثم قال: أي شيء تريد أن تكون؟ والله ليكونن لك شأن، والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك كذا، والله ليكونن لك كذا، لم أثبت منه إلا قوله: ليكونن لك شأن عظيم، فكان من فضل الله سبحانه ما لا نكره».

ويقول: وأخبرني سيدي جمال الدين، ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ: هم يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله في الفقه، فقال الشيخ:

هم يصدرونه في الفقه، وأنا أصدره في التصرف. ودخلت أنا عليه فقال لي:

إذا عوفي الفقيه ناصر الدين يجلسك في موضع جدك، ويجلس الفقيه من ناحية، وأنا من ناحية، وتتكلم إن شاء الله في العلمين، فكان ما أخبر به رضي الله عنه.

وابن عطاء الله هو الذي كان له الفضل الكبير في بيان كثير مما نعرفه الآن من آثار أبي العباس المرسي.

وفي بيان الكثير أيضاً مما نعرفه عن القطب الكبير الحجة أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه.

وابن عطاء الله هو الذي جند قلمه للدعوة إلى طريق الله فكتب هذه الدرر التي تركها مصابيح وأنجماً تهدي السائرين إلى الله تعالى.

* * *

والكتاب الذي نقدمه الآن كتاب مبارك، إذ أنه يتحدث عن شخصيتين هما في القمة من السمو الروحي: إنه يتحدث عن الإمام الكبير أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وعن الإمام الكبير أبي العباس المرسي رضي الله عنه.

وما كان الوصول إلى القمة في السمو الروحي - في يوم من الأيام - سهلاً ميسوراً «كلا» وإنما له ثمنه الباهظ من مجاهدة النفس، ومن قيام الليل، وصيام النهار، والعمل في كل لحظة لمرضاة الله سبحانه.

ولقد كافح كل منهما في سبيل الله طيلة حياته.

أما أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه فقد بدأ حياته بأمرين لا بد منهما لكل من يريد سلوك طريق الله وهما:

١ - العلم.

٢ - والعبادة.

أما العلم فلأنه لا بد من التأسي برسول الله ﷺ وإلا لما أفلح السالك أبداً.

والتأسي برسول الله ﷺ لا بد له من دراسة السنة دراسة متمعنة.

ودراسة السيرة النبوية دراسة متأملة.

ورسول الله ﷺ. كان شعاره، وكان طابعه، وكان أساسه، وكانت وجهته: كتاب الله سبحانه. ومن هنا كان لا بد للقرب من الله تعالى، من اتخاذ القرآن شعاراً وأساساً ووجهة.

وقد درس كل ذلك أبو الحسن الشاذلي أحسن وأجمل ما تكون الدراسة فكان عالماً قمة في العلم.

وكانت له كتب مفضلة يداوم على دراستها لتلاميذه ومريديه ومن هذه الكتب:

١ ـ كتاب «إحياء علوم الدين» وهو كتاب ألفه الإمام الغزالي في فترة خلوته وفي أيام عبادته وقربه من الله تعالى. إنه ثمرة من ثمار القرب وهو من خير ما يتخذ الإنسان من الذخائر. ويقول عنه الإمام النووي:

«كاد الإحياء يكون قرآناً».

وذلك أنه يستمد من القرآن. والإمام النووي حجة في السنة وحجة في الفقه وكلمته لها وزنها الكبير. كان أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقرأ هذا الكتاب ويدرسه لتلاميذه.

٢ ـ كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي وهو كتاب ينص الإمام الغزالي على أنه من الكتب التي قرأها وهو بصدد السلوك الصوفي، ويقول عنه أبو الحسن: القوت: قوت.

ويقول عنه: القوت يفيد النور، كان أبو الحسن يقرؤه ويدرسه.

٣ ـ كتاب «الرسالة القشيرية» وهو الكتاب الذي يعتبر دستور

الصوفية. وقد ألفه الإمام القشيري: لا لهدف المعرفة فحسب، وإنما ليكون ميزاناً للصوفية ومقياساً لأعمالهم ويقول في ذلك:

«[1] ثم اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم، ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم، كما قيل:

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها

حصلت الفترة[2] في هذه الطريقة. لا بل اندرست[3] الطريقة بالحقيقة:

مضى الشيوخ الذين كان بهم الاقتداء وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع وطوى بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه.

وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة. ورفضت التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الغفلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق[4] بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان.

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال. وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال، وتحققوا

---

(١) ص ٢٧ من الرسالة القشيرية.
(٢) الفترة: التراخي والتفريط.
(٣) اندرست: زالت ومحيت.
(٤) الانتفاع.

بحقائق الوصال، وأنهم قائمون بالحق. تجري عليهم أحكامه، وهم محو وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا.

ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان بما لوحت ببعضه من هذه القصة وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار، غيرة على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء، أو يجد مخالف لثلبهم مساغاً: إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة.

ولما كنت أؤمل من مادة هذه الفترة أن تنحسم ولعل الله سبحانه يجود بلطفه في التنبيه لمن حاد عن السنة المثلى في تضييع آداب هذه الطريقة.

ولما أبى الوقت إلا استصعاباً، وأبى أكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تمادياً فيما اعتادوه واغتراراً بما ارتادوه..

أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر ـ على هذه الجملة[1] ـ بنى قواعده وعلى هذا النحو سار سلفه:

فعلقت هذه الرسالة إليكم، أكرمكم الله، وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية ترقيهم من بدايتهم إلى نهايتهم، لتكون لمريدي هذه الطريقة قوة، ومنكم لي بتصحيحها شهادة، ولي في

---

(١) جملة مزاعمهم وادعاءاتهم.

نشر هذه الشكوى سلوة، ومن الله الكريم فضلاً ومثوبة «وأستعين بالله سبحانه فيما أذكره وأستكفيه، وأستعصمه من الخطأ فيه، وأستغفره وأستعفيه[1]، وهو بالفضل جدير وعلى ما يشاء قدير» أهـ.

وهذه الرسالة كتاب موفق كل التوفيق، قسمه مؤلفه إلى أربعة أقسام معرفتها ضرورية لكل سالك.

القسم الأول: قسم العقائد، ذكر فيه المؤلف عقائد الصوفية من أقوالهم وبين بما لا لبس فيه أنها هي نفس عقائد أهل السنة.

والقسم الثاني: ذكر فيه تراجم كبيرة من أعلام التصوف حتى يكونوا مثلاً يحتذيها السائرون إلى الله.

والقسم الثالث: تحدث فيه عن مصطلحات الصوفية، وللتصوف مصطلحاته الخاصة به، كما أن لكل فن مصطلحاته. والواقع أن عدم فهم بعض الناس لمصطلحات الصوفية هو الذي يوقعهم في عدم فهم التصوف، ولو فهمت هذه المصطلحات من أمثال: الزهد والتوكل والفناء والحقيقة والشريعة وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.. الخ أقول لو فهمت هذه المصطلحات ونحوها على حقيقتها لما كان هناك سوء فهم للتصوف وهذا القسم من أهم الأقسام.

أما القسم الرابع فإنه في بيان المقامات التي يتدرج الإنسان فيها من مقام روحي إلى مقام أسمى حتى يصل إلى أسمى المقامات الروحية.

---

(١) أطلب العفو رده عن الخطأ.

ثم يكون الحديث عن الشيخ وسماته عن المريد وآدابه.

كان أبو الحسن يقرأ هذا الكتاب ويدرسه.

وهذا الكتاب هو الذي كان يقرؤه مع كبار العلماء في أثناء الليالي التي دارت فيها معركة المنصورة الشهيرة: وذلك حينما كانوا يفرغون من أمور الجيش والحرب، ويأوون إلى خيمة من خيام الجيش: يصلون ويدعون ويبتهلون إلى الله داعين بالنصر، ثم يتحدثون في العلم ويقرأون الرسالة القشيرية.

٤ ـ وكان أبو الحسن رضي الله عنه يقرأ لتلاميذه كتاب «الشفاء» للقاضي عياض في السيرة النبوية وهو من أحسن ما كتب فيها.

٥ ـ وكان يدرس لمريديه كتاب «ختم الأولياء» وهو من الكتب التي أثارت ثورة في الفكر الإسلامي وفي الجو الروحي وقد طبع في لبنان للمرة الثانية.

٦ ـ أما في التفسير فكان الإمام يدرس لمريديه كتاب «المحرر الوجيز» وهو كتاب أقر بفضله، القدماء والمتأخرون، وقد أعد من عدة جهات ونرجو الله سبحانه أن ييسر طبعه.

٧ ـ وكان الشيخ رضي الله عنه يدرس للمتعمقين المتخصصين كتاب «المواقف» وهو من الكتب التي تحتاج إلى استعداد خاص.

وكان يدرس غير ذلك، وما أردنا الاستقصاء وإنما أردنا أن نبين أن التصوف الصادق يعني بالجانب العلمي عناية كريمة، ويعنى بصفوة من الكتب التي تسير على النسق السلفي الكريم.

ولقد سار أبو العباس على نسق أستاذه وكانت هذه الكتب وغيرها مما يدرس لمريديه.

يقول ابن عطاء الله:

وكان كتابه في أصول الدين: «الإرشاد».

وفي الحديث كتاب «المصابيح».

وفي الفقه كتاب «التهذيب» و«الرسالة».

وفي التفسير كتاب «ابن عطية».

أما فيما يتعلق بالصلة التي بين أبي الحسن وأبي العباس رضي الله عنهما فتصورها خير تصوير الرؤيا الآتية:

يقول ابن عطاء الله: أخبرني بعض أصحابنا قال:

رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء، وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلي ينزل من السماء والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبت رجليه في الأرض وتهيأ لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه ودخل من رأسه حتى غاب فيه.. واستيقظت.

في هذه الرؤيا أمور:

١ ـ أبو الحسن ينزل من السماء.

٢ ـ عليه ثياب بيض.

٣ ـ أبو العباس يتهيأ لاستقباله، ويثبت رجليه في الأرض.

٤ ـ يدخل أبو الحسن من رأسه ويغيب فيه.

ومعنى الرؤيا أن أبا الحسن وأبا العباس امتزجا حتى أصبحا كائناً واحداً أي أن أبا العباس استمرار لأبي الحسن.

وهذه رؤيا معبرة كل التعبير عن الواقع. وكل ما يقال عن أبي الحسن من آراء يمكنك أن تقول في يقين: أن أبا العباس لا يخالفه والعكس صادق.

عن هذين الإمامين كان كتاب لطائف المنن.

* * *

وعهدي بكتاب «لطائف المنن» عهد قديم: فقد قرأته متأنية حينما شرعت في الإعداد للكتابة عن الإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه. ثم قرأته مرة ثانية حينما شرعت في الإعداد للكتابة عن الإمام أبي العباس المرسي، ورجعت إليه أكثر من مرة بعد ذلك لظروف ومناسبات عدة منها مثلاً: حينما كتبت كلمات عن الإمام المؤلف للكتاب: ابن عطاء الله السكندري (رضي الله عنه) عند نشر شرح الحكم للإمام ابن عباد، وعند نشر شرح الحكم للإمام أحمد زروق. وفي كل مرة قرأته أو رجعت إليه كنت أتمنى لو خرج هذا الكتاب إلى الناس في طبعة ميسرة: تحقيقاً وتعليقاً.

والأمور مرهونة بأوقاتها ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وتمضي السنون والكتاب دائماً في متناول يدي أقلب صفحاته الفينة بعد الفينة، ثم أضعه في مكانه حتى شاء الله سبحانه أن يكون ظهور الكتاب عند افتتاح مسجد ابن عطاء الله السكندري.

لقد كان ضريح ابن عطاء الله السكندري على صورة لا تتناسب مع مكانته، وكان الزائر له لا يكاد يهتدي إلى مكانه، واستمر ذلك قروناً إلى أن وجه الله سبحانه الرجل الصالح عبد الحليم مجاهد ـ الذي يحيط به الخير أينما سار، ويفيض عنه سهلاً ميسراً ـ إلى بناء مسجد يتناسب ومكانة ابن عطاء الله السكندري، وبنى المسجد مباركاً مشرقاً، وأثلج

ذلك صدور الصالحين عموماً والشاذلية خصوصاً، فجزى الله الأخ عبد الحليم مجاهد خير الجزاء، وأثابه على ما قدم أجزل الثواب، ووفقه الله دائماً لصالح الأعمال.

* * *

وإننا حين نقدم هذا الكتاب فإنما نقدم كتاباً من النوع النفيس الذي يقرؤه القارىء فينعم بأسلوب جميل، ويستفيد علماً نافعاً، وهكذا كتب ابن عطاء الله السكندري: أنها في أساليبها تتسم بالفصاحة، وفي معانيها تتسم بالنفاسة، وهي بأسلوبها ومعانيها تنبثق عنها روحانية هي سمة مؤلفات أولياء الله وإذا كان أولياء الله هم الذين إذا رأوا ذكر الله: فإن مؤلفاتهم حينما تقرأ فإنها تهدي إلى الله وتقود إليه سبحانه، ولقد قال أبو الحسن الشاذلي رضوان الله عليه: كتاب الإحياء يفيد العلم، وكتاب قوت القلوب يفيد النور، وكلاهما يفيدان العلم والنور، وكذلك الأمر في كتب ابن عطاء الله: إنها تفيد العلم والنور وتفيد لذة تذوق الأسلوب الجميل. وإذا كان أسلوب ابن عطاء الله قد بلغ القمة في كتابه الحكم حتى ليقول الشيخ محمد عبده:

«كان كتاب الحكم يكون قرآناً».

فإن أسلوبه في بقية كتبه هو من الأساليب الممتازة في البلاغة: كلامه جواهر، وجواهره لآلىء، ولآلئه: ماس، وماسه من النوع النادر.

ولقد بلغ ابن عطاء الله القمة: أسلوباً ومعنى في مناجاته التي يقرؤها الصالحون قبيل الفجر فيجدون ثمرتها إشراقاً في صدورهم ونوراً في قلوبهم.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الكتابة عن ابن عطاء الله أن نتوج كلمتنا عنه بهذه المناجاة الرائعة:

مناجاة

إلٓهي أنا الفقير في غناى فكيف لا أكون فقيراً في فقري؟

إلٓهي أنا الجهول في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي؟

إلٓهي إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك: منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك في بلاء.

إلٓهي مني ما يليق بلؤمي ومنك ما يليق بكرمك.

إلٓهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي؟

إلٓهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك ولك المنة على، وإن ظهرت المساوىء مني فبعدلك ولك الحجة على.

إلٓهي كيف تكلني إلى نفسي وقد توكلت بي؟ وكيف أضام وأنت النصير لي؟ أم كيف أخيب وأنت الحفي بي؟ ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ أم كيف أشكو إليك حالي وهي لا تخفي عليك؟ أم كيف أترجم لك بمقالي وهو منك برز إليك؟ أم كيف تخيب آمالي وهي قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك؟

إلٓهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلى وما أرحمك بي مع قبيح فعلي!

إلٓهي ما أقربك مني وما أبعدني عنك.

إلٓهي ما أرأفك بي فما الذي يحجبني عنك!

إلٓهي قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك مني أن

تتعرف إلي في كل شيء حتى لا أجهلك في شيء.

إلَهي كلما أخرسني لؤمي أنطقني كرمك، وكلما أيأستني أوصافي أطعمتني منك.

إلَهي من كانت محاسنه مساوىء فكيف لا تكون مساوئه مساوىء؟ ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى؟

إلَهي حكمك النافذ ومشيئتك القاهرة لم يتركا لذي مقال مقالاً ولا لذي حال حالاً.

إلَهي كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادي عليها عدلك، بل أقالني منها فضلك.

إلَهي إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزماً فقد دامت محبة وعزماً.

إلَهي كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الآمر.

إلَهي ترددي إليك في الآثار يوجب بعد المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك.

إلَهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك.

إلَهي عميت عين لا تراك عليها قريباً رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً؟

إلَهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فأرجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية

الاستبصار: حتى أرجع إليك منها كما دخلت منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها، إنك على كل شيء قدير.

إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدل عليك، فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.

إلهي علمني من علمك المخزون وصني بسر اسمك المصون.

إلهي حققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسالك أهل الجذب.

إلهي اغنني بتدبيرك عن تدبيري وباختيارك لي عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري.

إلهي أخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي، بك استنصر فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، وبجنابك أنتسب فلا تبعدني، وببابك أنت فلا تطردني، وإياك أسأل فلا تخيبني، وفي فضلك أرغب فلا تحرمني.

إلهي تقدس رضاك أن تكون له علة منك فكيف تكون له علة مني؟ أنت الغني بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنياً عني؟

إلهي إن القضاء والقدر غلبني، وإن الهوى بوثائق الشهوة أسرني، فكن أنت النصير لي حتى تنصرني في نفسي وتنصر بي، وأغنني بجودك حتى أستغني بك عن طلبي، أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبابك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك، أنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حتى استبانت لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من

بغى عنك حولاً.

إلهي كيف يرجى سواك وأنت الذي ما قطعت الإحسان؟ وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان؟ يا من أذاق أحبابه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متملقين، ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته فقاموا بعزته مستعزين، أنت الذاكر من قبل ذكر الذاكرين، وأنت البادىء بالإحسان من قبل توجه العابدين، وأنت الجواد بالعطايا من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت لما وهبتنا من المستقرضين.

إلهي اطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمنتك حتى أقبل عليك.

إلهي إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفي لا يزايلني وإن أطعتك.

إلهي قد دفعتني العوالم إليك وقد أوقفني علمي بكرمك عليك.

إلهي كيف أخيب وأنت أملي؟ أم كيف أهان وعليك متكلي؟

إلهي كيف أستعز وفي الذلة أركزتني أم كيف لا أستعز وإليك نسبتني؟

إلهي كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أقمتني أم كيف أفتقر وأنت الذي بجودك أغنيتني؟ أنت الذي لا إله غيرك، تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء، وتعرفت إلي في كل شيء فرأيتك ظاهراً في كل شيء، فأنت الظاهر لكل شيء، يا من استوى برحمانيته على عرشه فصار العرش غيباً في رحمانيته كما صارت العوالم غيباً في عرشه محقت الآثار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار، يا من احتجب في سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار، يا من تحلى بكمال بهائه فتحققت

عظمته الأسرار: كيف تخفى وأنت الظاهر أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟ (اهـ).

وبعد: فلقد لازم ابن عطاء الله أستاذه أبا العباس رضي الله عنهما ثم كان من بعده شيخ الطريقة الشاذلية إلى أن توفى في جمادى الآخرة سنة ٧٠٩هـ.

وأما بعد: فالله أرجو أن يهدى لهذا الكتاب وأن يهدى به إنه سميع قريب مجيب. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

الباب الأول

التعريف بالكتاب والمؤلف

بســـم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الحمد لله الذي فتح لأوليائه[1] باب محبته.

---

(١) إن من الأهمية بمكان ـ في ابتداء هذا الكتاب المبارك ـ أن نتحدث عن الولاية وذلك أن المؤلف رضي الله عنه يتحدث عن الولاية نظرياً بكلام في غاية النفاسة، ويذكر كرامات وقعت بالفعل لكثير من الأولياء.

وليس لأحد أن يبتدع تعريفاً بعد تحديد الله سبحانه وتعالى لها، إنه سبحانه وتعالى يقول عن الأولياء، إنهم:

﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ولقد أبان الله سبحانه وتعالى رعايته لهم، وعنايته بهم، فقال سبحانه:

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وزاد سبحانه وتعالى تفضلاً بالنسبة لهم فقال:

﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾.

ثم أكد سبحانه ذلك بقوله تعالى:

﴿لا تبديل لكلمات الله﴾!

ثم بين نفاسة الثمار التي تجتنى من الولاية فقال:

﴿وذلك هو الفوز العظيم﴾ (يونس: الآيات ٦٢ ـ ٦٤). وإن كل حديث عن الولاية، =

. . . .

= إنما هو تفسير لهذه الآيات الكريمة، ومن ذلك الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ إن الله تعالى قال:

«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، وإن استعاذني لأعيذنه﴾ ومعنى آذنته بالحرب: أعلمته بأني محارب له).

ومن ذلك ما يقوله صاحب كتاب: (أنس الفقير) ـ ننقله هنا، لأنه يعبر تعبيراً كاملاً عن وجهة نظرنا في هذا الموضوع ـ يقول: (فأما صفة الولي، فقد دل ـ رسول الله ﷺ ـ على صفة الأولياء فقال:

(الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل) (سنن ابن ماجة والحلية ٦١).

وفي هذا الحديث الشريف من الدلالة عليهم كفاية تامة، فأولياء الله تعالى: «الذين إذا رآهم المؤمن عظم ربه، وذكر ذنبه» ويقول:

«واعلم أن من امتثل أوامر الله تعالى، واجتنب نواهيه، ورزق الخوف من الله تعالى، لا من خلقه، واجتهد في طاعته ـ جل وعلا ـ وبحث عن أمر كسبه ووقف عند ما حد له، ورجع عن كل ما لا يعلم حكمه: فهو الصالح.

وأعلى درجة من هذا: حصول الورع التام، وترك الطمع، وبغض الدنيا ومن تمسك بها، والفرار من دواعيها، ومن أهلها، والقناعة باليسير منها.

ودرجات الصالحين تختلف بالترقي في ذلك على حسب العناية من الله تعالى..

واعلم أن الكرامة ليست من شرط حصول الولاية، فقد تحصل الكرامة، لكن إن وقعت لولي، فهي دالة على صدق عبادته، وعلو مكانته، بشرط اتباعه لحقيقة ما أمر به النبي عليه السلام، وإلا فهي خذلان من الشيطان، ومن الصالحين من يعلم بولايته، ويعلم غيره بها، ومنهم من لا يعلم بنفسه، ولا يعلم به، ومنهم من يعلم به، ولا يعلم هو بنفسه، والعالمون بها: منهم من يكتمها جهد استطاعته، ومنهم من يظهرها ويصرح بها» اهـ.

«لا يستدل على الولي بالكرامة» لاحتمال أن تكون من الشيطان، وإنما يستدل على صدق الكرامة بصحة الولاية».

وكرامات الصحابة والتابعين لا تكاد تحصى:

ففي البخاري أن رجلين خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة، فإذا النور بين =

وأنشط نفوسهم من عقال القطيعة[1]، فقاموا له بوجوب خدمته، وأمد عقولهم بنوره، فعاينت عجائب قدرته، وحرس قلوبهم من الأغيار[2]، ومحا منها صور الآثار، حتى ظفرت بمعرفته!.

كشف لأرواحهم عن قدس كماله، ونعوت جلاله، فهم سبايا حضرته[3].

متع أسرارهم بقربه، بخطفات جذبه، فتحققوا بشهود أحديته.

أخذهم منهم، وأفناهم عنهم، فغرقوا في بحر هويته.

فرق جيوش التفرقة بكتاب الجمع[4] لأهل خصوصيته، وحمى حمى الأسرار بمدد الأنوار أن يكون مظهراً لغير فرديته!

أطلع كواكب العلوم في سماء الفهوم تهدي السائرين لحضرة

= أيديهما حتى تفرقا، فتفرق النور معهما.!

وفي البخاري ـ أيضاً ـ: أن عمران بن حصين كانت تكلمه الملائكة.

ونادى عمر بن الخطاب: «يا سارية الجبل!» يحضه على الرجوع إلى الجبل حذراً من العدو، وبينهما مسيرة أيام فرآه وسمعه سارية. فرجع إلى الجبل وسلم من العدو».

(١) أي حل نفوسهم وفكها من أسر المعاصي التي تقطع الصلة بينهم وبينه.

(٢) الأغيار: ـ أو ما يعبر عنه ـ بـ(السوى) هو: كل ما سوى الله سبحانه وتعالى.
وأولياء الله سبحانه وتعالى لا يستبعد قلوبهم صنم من الأصنام الكثيرة التي تتمثل في شهور أو جاه أو ثراء، وقلوبهم ملأى بالله سبحانه.

(٣) سبايا: أسرى.

(٤) مما يجري في كلام الصوفية كثيراً: «الجمع والتفرقة»، قال الأستاذ أبو علي الدقاق: الفرق ما نسب إليك، والجمع ما سلب عنك. ومعناه: أن ما يكون كسباً للعبد، من إقامة العبودية، وما يليق بأحوال البشرية، فهو الفرق.
وما يكون من قبل الحق: من إبداء معان. وإسداء لطف وإحسان فهو جمع هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق، لأنه من شهود الأحوال فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله عن طاعاته ومخالفاته، فهو عبد بوصف التفرقة، ومن أشهده الحق ـ سبحانه ـ ميولية من أفعال نفسه سبحانه، فهو عبد يشاهد الجمع.

ربوبيته، وأضاء قمر التوحيد في بيداء التفريد، فانطوت الكائنات في وجود أزليته، وما كانت معه في أزله[1] حتى تكون معه في أبديته، بل هو الأول والآخر لا بالاضافة لبريته، والظاهر والباطن كذلك، وما الكون حتى يقاس بقدوسيته؟!

أحمده، والحمد واجب لصفات جلاله وعظمته.

وأشكره، والشكر مستحق له بإسباغ نعمته.

وأرجوه، وكيف لا أرجوه، وهو الذي وسع كل شيء برحمته[2]، وغمر العباد في الغيب والشهادة بطوائل منته.

واعترف له بالتقصير عن القيام بحقوق أحديته.

وأعلم أنه لا يحاط بذاته وصفته.

ليس للعبد منه إلا ما من عليه، ولا يضاف له من المحاسن إلا ما أضافه إليه[3]، ولا ينتصر في المصادر والموارد إلا بالتوكل عليه.

---

(١) وقد روى البخاري مقدم أهل اليمن لرسول الله ﷺ بعد قبولهم الإسلام، وقولهم له ﷺ: جئنا نسألك عن ـ أول ـ هذا الأمر ما كان. فقال ﷺ: كان الله ولم يكن شيء غيره ـ وفي رواية ولم يكن شيء قبله ـ وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض ـ وذكر في فتح الباري أن بعض الروايات فيها: معه.. ويستفاد من هذه الروايات وغيرها: أن الله سبحانه: كان. ولا عرش ولا كرسي، ولا ماء، ولا كون ـ وكل ما يقال عن قدم العرش أو الكرسي فهو من الأباطيل.

(٢) قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾.

(٣) إن الإنسان في كل ما يتعلق بالله سبحانه: ذاتاً وصفات، يجب عليه أن يلتزم التزاماً كاملاً بما ورد في الآثار الصحيحة، فقد بلغ رسول الله ﷺ كل ما يحتاج الإنسان إليه في أمر العقيدة، ولم يختلف المسلمون إلا عندما تعدوا النصوص، وأخذوا يقولون بآرائهم، أو أخذوا يضيفون إلى النصوص من عند أنفسهم، وكل ما يتصل بالذات أو الصفات يجب الإيمان به، على مراد الله فيه، فمثلاً حينما يقول الله سبحانه: =

العزيز القادر، الحكيم القاهر، الرقيب على فعل كل فاعل، ونظر كل ناظر، لا يخفى عليه ما في الضمائر، ولا يعزب عن علمه مستكنات السرائر!

أظهر في ملكه حكمته، وفي ملكوته قدرته، وتعرف لكل شيء، فلا شيء يجحد ربوبيته، ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾[1].

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وكل شيء يشهد بأحديته في ألوهيته.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المصطفى من خليقته، المشهود له في الغيب والشهادة بكمال خصوصيته، القائم لمولاه بكمال الوفاء في عبوديته، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، صلاة تدوم بدوام أبديته وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإني قصدت في هذا الكتاب أن أذكر جملاً من فضائل سيدنا ومولانا الإمام: قطب العارفين، علم المهتدين، حجة الصوفية، مرشد السالكين منقذ الهالكين، الجامع بين علم الأسماء والحروف والدوائر، المتكلم بنور بصيرته الكاملة على السرائر، كهف الموقنين، ونخبة الواصلين، مظهر

= ﴿يد الله فوق أيديهم﴾.
نقول فيها: إننا نؤمن بها على مراد الله سبحانه ـ وقوله تعالى:
﴿الرحمن على العرش استوى﴾.
نقول فيها: إننا نؤمن بها على مراد الله فيها، وكل ما يتأتى من تأويل أو خروج عن هذا الموقف فإنه ليس سبيل أسلافنا ـ رضوان الله عليهم ـ وكلام المؤلف في ذلك من أحكم ما قيل.

(١) الأعراف: ٥٤.

شموس المعارف بعد غروبها، ومبدي أسرار اللطائف بعد غروبها[1] الواصل إلى الله، والموصل إليه:

«شهاب الدين: أبي العباس بن عمر الأنصاري المرسي».

أسكنه الله حظيرة قدسه، ومتعه ـ على ممر الساعات بموارد أنسه، وأذكر شيخه الذي أخذ عنه، ومنازلاته[2] التي نقلت عنه، أو سمعها منه، وكراماته، وعلومه وأسراره، ومعاملاته مع الله سبحانه وتعالى، وما قاله من تفسير آية من كتاب الله عز وجل، أو إظهار لمعنى خبر نقل عن رسول الله ﷺ، أو كلام على حقيقة ـ نقلت عن أحد من أهل الطريق ـ أشكل معناها، ولم يفهم مغزاها، وما نقله عن شيخه الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وما قاله هو من الشعر، أو قيل بحضرته، أو قيل فيه مما يتضمن ذكر الطريق وأهلها، وأنقل ما يمكن إثباته من أخباره كثيرها وقليلها.

وكان أصحاب الشيخ الإمام القطب أبي الحسن ـ قدس الله روحه ـ قد أثبتوا جملاً من كلامه، وإن كان هو ـ رضي الله عنه ـ لم يضع كتاباً، وقد بلغني عنه أنه قيل له:

يا سيدي لم لا تضع الكتب في الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم؟

فقال رضي الله عنه: كتبي أصحابي!

كذلك شيحنا أبو العباس ـ رضي الله عنه ـ لم يضع في هذا الشأن كتاباً.

والسبب في ذلك: أن علوم هذه الطائفة علوم التحقيق، وهي لا

---

(١) ذهابها.

(٢) جهاده في العبادة.

تتحملها عقول الخلق.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس ـ رضي الله عنه ـ يقول:

جميع ما في كتب القوم عبرات دموع من سواحل من بحر التحقيق!.

ولا أعلم أن أحداً من أصحاب شيخنا أبي العباس رضي الله عنه تصدى إلى جمع كلامه، وذكر مناقبه وأسرار علومه وغرائبه، فحداني ذلك إلى وضع هذا الكتاب بعد أن استخرت الله تعالى وطلبت منه المعونة وهو خير معين، وسألته أن يهديني إلى الصراط المستبين..

وقسمته إلى مقدمة، وعشرة أبواب، وخاتمة:

أما المقدمة فتشتمل على إقامة الدليل على أن نبينا محمداً ﷺ أفضل بني آدم، بل أفضل البشر، بل أفضل البشر، بل أفضل الخلق كافة(1)..

---

(1) يقول الله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.
والتقوى درجات. وأساسها اتقاء الشرك. ثم اتقاء المعاصي، ثم اتقاء الغفلات ثم اتقاء الخطرات..
والدرجة العليا هي «أن يسلم لله قلبك». «وأن يسلم لله قلبك» في كمالها وتمامها لم تكن إلا لرسول الله ﷺ. وصورتها الصافية الصادقة هي ما عبر الله سبحانه وتعالى بقوله لرسوله ﷺ:
﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾.
وهذه الدرجة لم يبلغها نبي مرسل فضلاً عن عامة البشر، إنها خاصة برسول الله ﷺ، ومن هنا كان أفضل الخلق على الإطلاق.
وكان العالم ناقصاً قبل وجوده ﷺ. فلما وجد كمل العالم.. إنه ﷺ (اللبنة) التي كان قصر الملك في حاجة إليها ليكمل، قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الحديث الصحيح: =

وأفردت كل مقام بإقامة الدليل عليه من كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه ﷺ، وبينت أن مدد الأولياء من الحقيقة المحمدية[1]، وأن الأولياء إنما هم أنوار النبوة[2] ومطلع شوارقها. .

وأعلمت أن أنوار الولاية دائمة الثبوت للزوم دوام أنوار النبوة.

وذكرت الفرق بين الرسالة والنبوة والولاية[3]. .

= «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

أخرجه: البخاري ومسلم والإمام أحمد والترمذي ـ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(١) يتحدث كثير من الناس عن (الحقيقة المحمدية)، ويتساءل كثير من الناس عن هذه الحقيقة: ما هي؟ وينكر بعض الناس هذه الكلمة أو على الأقل يجادل فيها ويماري والواقع أن الأمر أيسر من أن يثير نقاشاً، وأوضح من أن يكون مصدر مماراة أو إنكار.

فالحقيقة المحمدية هي: النبوة، ومحمد ﷺ: حقيقته نبوته وهذه النبوة في علم الله منذ الأزل قدرها الله سبحانه وتعالى بحكمته قبل خلق الكون، وقبل وجود العالم.

وعلى هذا الأساس يمكنك أن تقول:

إن الحقيقة المحمدية أزلية أو قديمة، وتقصد أنها كذلك في علم الله، ويمكنك أن تقول:

إن الحقيقة المحمدية حادثة، وذلك يوم بعثته أي سنة ثلاث عشرة قبل الهجرة عندما أشرق فجر الهداية الخاتمة، وبدا النور يشرق مستفتحاً بـ ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ والأمر على هذا الوضع لا يثير مماراة ولا إنكاراً ـ والله أعلم.

(٢) إن تفسيرنا السابق للحقيقة المحمدية يتناسق ـ كما يرى القارىء ـ مع كلام المؤلف عن الأولياء.

(٣) حينما يقطع الإنسان الطريق يصل إلى الولاية.

والولي إما أن يكون ولياً فقط، فتكون معرفته خاصة به، أو يختاره الله لتأدية رسالة إلى الآخرين فيكون نبياً، أو يكون رسولاً.

والرسول نبي، ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية، أما رسالة النبي فإنها محددة الأهداف محدودة المكان. =

وبينت من هو الأولى بالميراث في قوله ﷺ:

«العلماء ورثة الأنبياء»..

وبينت ما هو العلم الذي أثنى الله عليه، ومن هم العلماء الذين هم أولى بالزلفى لديه..

وبينت أن الأولياء الظاهرين في أوقات الظلمة أولى بأن يكثر الله أنوارهم، ويجزل لهم من وجود اليقين ما يوجب انتصارهم، ليدافعوا ظلمة الأوقات، وليهزموا بعساكر أنوارهم جيوش الغفلات.

وذكرت أقسام الولاية، وعزازة قدر الولي، وفخامة رتبته، وشفوف[1] منزلته، مما تضمنه الكتاب العزيز والأحاديث النبوية، ليكون

= إن الرسول مظهر الصفة الإلٓهية «الرحمن» في جميع أنحاء العالمين، إنه: (رحمة للعالمين) فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة.

ولا شك أن النبوة أسمى من الولاية، ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولي (القرب) من الله، بينما النبي متجه بطبيعة رسالته إلى الخلق، ولكن ذلك خطأ محض، فإن النبوة تتضمن الولاية، فهي متضمنة لمقام القرب، ثم إنها أكثر من الولاية، وعلى ذلك فإن حالة الولي (ناقصة) بالنسبة لحالة النبي، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها في العموم، وهذا العموم يصل إلى أعلا درجات ازدهاره في الرسالة: إذ هي عالمية. والرسول ـ لا غيره ـ هو حقيقة (الإنسان العالمي) وللرسول ـ كما للنبي ـ اتجاهان:

أ ـ اتجاه داخلي: إنه الاتجاه نحو الحق.

ب ـ اتجاه خارجي: إنه الاتجاه نحو الخلق.

ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبي المحدودة، ودرجة النبي المحدودة أسمى من درجة الولي الخاصة، ومقام الجميع القرب.

(١) نعاد فنقول: إن الأولياء هم:

«الذين آمنوا وكانوا يتقون».

والذي يعاديهم إنما يعادي الإيمان والتقوى، ولا يكون هذا إلا فيمن تمحض للشر والعياذ بالله، وعلى هذا الأساس يفهم كلام المؤلف رضي الله عنه سواء في ذلك الكلام في هذا الموضع أو الكلام المشابه فيما يأتي في الكتاب.

ذلك توطئة لك بتصديق ما يرد عليك من أخبار أوليائه، وكرامات أصفيائه.

وأما الأبواب:

فالباب الأول: في التعريف بشيخه الذي أخد عنه هذا الشأن، وشهادة من عاصره من العلماء الأعيان: أنه قطب الزمان، والحامل في وقته لواء أهل العيان.

الباب الثاني: في شهادة الشيخ له أنه الوارث المقام، والحائز قصب السبق بالتمام، وإخباره هو عن نفسه بما من عليه من النعم الجسام، وشهادة الأولياء له بأنه: بلغ من الوصول إلى الله لأفضل مرام.

الباب الثالث: في مجرباته ومنازلاته، وما اتفق لأصحابه معه ومكاشفاته.

الباب الرابع: في علمه وزهده، وورعه ورفع همته، وحلمه وصبره وسداد طريقته.

الباب الخامس: في آيات من كتاب الله تعالى تكلم على تبيين معناها، وإظهار فحواها.

الباب السادس: فيما فسره من الأحاديث النبوية، وإبداء أسرار فيها على مذهب أهل الخصوصية.

الباب السابع: تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق، وحمله لذلك على أجمل الطرائق..

الباب الثامن: في كلامه في الحقائق والمقامات، وكشفه فيها عن الأمور المعضلات..

الباب التاسع: فيما قاله من الشعر أو قيل بحضرته أو قيل فيه مما يتضمن ذكر خصوصيته.

الباب العاشر: في ذكره ودعائه عقب كلامه، وحزبه الذي رتبه للآخذين في علومه وأفهامه، ولوازم ذلك من ذكر شيخه أبي الحسن وحزبه، ليتم العقد بنظامه..

وأما الخاتمة: ففي اتصال نسبتنا إليه، ووصاياه نثراً ونظماً تنهض إلى الله وتجمع عليه، وهي آخر الكتاب..

وليس كل شيء سمعته من الشيخ رضي الله عنه استحضرته وقت وضعي لهذا الكتاب، ولا كل شيء استحضرته يمكن إثباته، وقصدت بذلك أن تنتفع به هذه الطائفة(١) خصوصاً وغيرهم عموماً، ليؤمن بأحوال هذه الطائفة من قسم الله له نصيباً من المنة، وجعل في قلبه نوراً من الهداية، وليرجع المكذب إلى الاعتراف: والمكابر إلى وجود الإنصاف. ولنستبين لمن أراد الله به الهدى المحجة، وتقوم على من لم تنصره عناية الله الحجة؛ فيكون للمصدق بتصديقه لهذه الطائفة نصيب من الولاية؛ ودنو من العناية..

وقد قال الجنيد(٢) رضي الله عنه: التصديق بعلمنا هذا ولاية؛ وإذا

---

(١) الصوفية على وجه العموم، وليس مقصوده الشاذلية فحسب.

(٢) سيد هذه الطائفة وإمامهم: أصله من نهاوند، ومنشؤه ومولده بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له «القواريري» وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور، وكان يفتي في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة، مات سنة سبع وتسعين ومائتين (٢٩٧) هـ بغداد.
قال الروذباري: سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيمة؛ والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه =

فاتتك المنة في نفسك فلا تفتك أن تصدق بها في غيرك، ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾(1) وقد قال بعض العارفين:

التصديق بالفتح لا يكون إلا بفتح.

ومصداق ما قال هذا العارف قول الله تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾(2).

وقال سبحانه: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(3).

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾(4).

وقال: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(5).

= رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها. .

وقال الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق: إلا من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقال: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذه مقيد بالكتاب والسنة.

وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ.

وبلغ من تقديره أن كان الكتبة (الأدباء) يحضرون مجلسه لألفاظه.

والفقهاء لتقريره.

والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه.

والمتكلمون لتحقيقه.

والصوفية لإشارته وحقائقه.

(1) البقرة: ٢٦٥.

(2) النور: ٤٠.

(3) الذاريات: ٥٥.

(4) ق: ٣٧.

(5) الزمر: ٩

وإذا أراد الله بعبد خيراً جعله من المصدقين لأوليائه فيما جاءوا به: وإن قصر عقله عن إدراك ذلك، فمن أين يجب أن لا يهب الله لأوليائه إلا ما تسعه عقول العباد؟، وقد قالوا: يخشى على المكذب لهم سوء الخاتمة[1].

وقد قال أبو تراب النخشبي[2]: من لم يصدق بهذه الكرامات فقد كفر[3]، أي قد غطى عليه الأمر، وستر عنه شهود قدرة الله تعالى، جعلنا الله وإياكم من المعترفين بفضله في عباده، ومن المصدقين بآثار عنايته في أهل وداده، إنه ولى ذلك والقادر عليه..

ولم أخل الكتاب من الكلام على الشيء المشكل، وحل الأمر المعضل، والتنبيه على أمور جليلة، وإظهار أسرار أبصار من لم يؤمن بهذه الطائفة عنها كليلة..

فالله سبحانه وتعالى يجعل ذلك لوجهه خالصاً، ومن أوحال القطيعة مخلصاً، وأن يمن علينا بالصدق في الأقوال والأفعال والأحوال، وأن يجعلنا من العارفين به في الحال والمال، وأن يتفضل علينا بالفهم

---

(١) إن المكذب للأولياء مكذب للإيمان والتقوى اللذين هما ماهية الولي، وليرجع القارىء إلى ما كتبناه في مقدمة الكتاب.

(٢) هو أبو تراب عسكر بن حصين التخشبي، من أجل مشايخ خراسان، يتحدث عنه ابن الجلاء عن خبرة ومشاهدة ومعرفة فيقول: «لقيت ستمائة شيخ، ما لقيت فيهم مثل أربعة: أو لهم أبو تراب النخشبي، ويقول صاحب الكواكب الدرية: كان شيخ عصره بالاتفاق، جامعاً بين العلم والدين والزهد والتصوف بلا شقاق، متقشفاً متوكلاً، متخشعاً متبتلاً، قد أضاء في سماء المعاني بدره، واشتهر في سماء المعاني حسنه وذكره.

(٣) من معاني الكفر: الستر والتغطية، وكل شيء مغطي شيئاً فقد «كفره»، ويسمى الزارع كافراً لأنه يغطي البذر بالتراب، ويسمى الزراع كفاراً لذاك ـ وهذا هو المعنى الذي أراده أبو تراب، ومن معاني الكفر بطبيعة الحال: أنه ضد الإيمان، وليس هذا هو المعنى المراد في هذه الكلمة.

عنه، وحسن الاستماع منه، أنه الإله القدير، وبالإجابة جدير. .

وسميته: «لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن». .

وهذا أوان ابتدائي بما قصدت، وإظهار ما أردت، وبالله تعالى أستعين وعليه أتوكل، بجاه محمد سيد المرسلين ﷺ أتوسل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أما المقدمة:

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى لما أراد إتمام نعمته، وإفاضة فيض رحمته، واقتضى فضله العظيم أن يمن على العباد بوجود معرفته وعلم سبحانه عجز عقول عموم العباد التلقي من ربوبيته، جعل الأنبياء والرسل لهم الاستعداد التام لقبول ما يراد من ألوهيته، يتلقون منه بما أودع فيهم من سر خصوصيته، ويلقون عنه: جمعاً للعباد على أحديته، فهم برازخ الأنوار، ومعادن الأسرار، رحمة مهداة، ومنة مصفاة، حرس أسرارهم في أزله من رق الأغيار(1)، وصانهم بوجود عنايته من الركون إلى الآثار، لا يحبون إلا إياه، ولا يعبدون سواه، يلقى الروح من أمره عليهم، ويواصل الإمداد بالتأييد إليهم، وما زال فلك النبوة والرسالة دائراً إلى أن عاد الآمر من حيث ابتدى، وختم بمن له كمال الاصطفاء، وهو نبينا محمد ﷺ، السيد الكامل، الفاتح الخاتم، نور الأنوار، وسر الأسرار، والمبجل في هذه الدار وفي تلك الدار، أعلى المخلوقات مناراً، وأتمهم فخاراً، دل على ذلك الكتاب المبين، قال الله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾(2).

---

(1) أي ما سوى الله.

(2) الأنبياء: ١٠٧.

ومن رحم به غيره فهو أفضل من غيره، والعالم كل موجود سوى الله تعالى.

وأما تفضيله ﷺ على بني آدم خصوصاً فمن قوله ﷺ:

«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»(١).

وأما تفضيله على آدم ﷺ فمن قوله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»(٢).

ومن قوله:

«آدم فمن دونه من الأنبياء يوم القيامة تحت لوائي، وأنا أول شافع، وأنا أول مشفع، وأنا أول من تنشق عنه الأرض»(٣)..

وحديث الشفاعة المشهور الذي أخبرنا به الشيخ الإمام الحافظ فقيه المحدثين، شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن الدمياطي بقراءتي عليه أو قراءة عليه وأنا اسمع، قال: أخبرنا الشيخان الإمام فخر القضاة أبو الفضل أحمد بن عبد العزيز بن الحباب التميمي وأبو التقى صالح بن شجاع بـن سيدهم المدلجي الكناني،

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، ورواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة من حديث بغير زيادة: «ولا فخر»..

(٢) قال العلمي في شرح الجامع الصغير حديث صحيح، وأخرج الآمدي والبخاري في تاريخه والبغوي وابن السكن وأبو نعيم في الحلية وصححه الحاكم بلفظ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» وفي الترمذي وغيره عن أبي هريرة أنه قال للنبي ﷺ: متى كنت أو كتبت نبياً؟ قال: كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد، قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم أيضاً..

(٣) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة ولفظه: (انا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر»..

قالا: اخبرنا الشريف أبو المفاخر سعيد بن الحسين بن محمد بن سعيد العباسي المأموني قال: أخبرنا أبو عبد الله الغزاري قال أخبرنا عبد الغافر الفارسي قال: أخبرنا أبو أحمد بن عيسى ابن عمرويه الجلودي قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ابن سفيان الفقيه قال: حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري قال: حدثنا أبو الربيع العتكي قال: حدثنا حماد بن زيد قال؛ حدثنا معبد بن هلال العنزي.

وحدثنا سعيد بن منصور واللفظ له قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا معبد ابن طلال العنزي قال:

انطلقنا إلى أنس بن مالك وتشفعنا بثابت، فانتهينا إليه وهو يصلي الضحى، فاستأذن لنا ثابت، فدخلنا عليه، وأجلس ثابتاً معه على سريره، فقال له؛ يا أبا حمزة، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة، قال: حدثنا محمد ﷺ قال:

إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم عليه السلام فيقولن له أشفع لذريتك، فيقول:

لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله.

فيأتون موسى عليه السلام، فيقول:

لست لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام، فإنه روح الله وكلمته.

فيأتون عيسى عليه السلام، فيقول:

لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ..

فأوتى فأقول: أنا لها، فأنطلق فاستأذن على ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه، فأحمده بمحامد لا أقدر عليه إلا أن يلهمنيه الله عز وجل، ثم أخر له ساجداً، فيقال لي؛ يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: رب، أمتي أمتي، فيقول: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعط واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها ـ فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك وسل تعط، واشفع تشفع ـ فأقول: يا رب ـ أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى ربي فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط ـ واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل..

هذا حديث أنس الذي أخبرنا به، فخرجنا من عنده، فلما كنا بظهر الجبان قلنا: لو ملنا إلى الحسن فسلمنا عليه وهو مستخف في دار أبي خليفة، قال: فدخلنا عليه فقلنا: يا أبا سعيد، خرجنا من عند أخيك أبي حمزة فلم نسمع بمثل حديث حدثناه في الشفاعة، فقال: هيه، فحدثناه الحديث، فقال: هيه، فقلنا: ما زادنا، قال: قد حدثنا به منذ عشرين

سنة، وهو يومئذ جميع[1]، ولقد ترك شيئاً ما أدري أنسي الشيخ أو كره أن يحدثكم فتتكلوا، فقلنا له؛ حدثنا، فضحك وقال:

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾[2].

ما ذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكم:

ثم أرجع إلى ربي في الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول يا رب ائذن لي فيمن قال؛ لا إله إلا الله، قال:

ليس ذلك لك، أو قال: ليس ذلك إليك، ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن من النار من قال: «لا إله إلا الله»[3].. قال:

---

(١) أي في أكمل قوته وتمام ذاكرته ونضرة رجولته.

(٢) الأنبياء: ٣٧.

(٣) أي ليخرجه سبحانه مآلا بعد أن يكون قد استوفى جزاءه عما قدم من معاصي. اللهم إلا أن يتفضل سبحانه على البعض لحكمة، وقد روى البخاري ومسلم رضي الله عنهما في هذا قوله ﷺ في حديث جامع:

«أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون مم ذاك؟!

يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فينظرهم الناظر، ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس: ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم!!

فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا.

فقال: إن ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي. نفسي. اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون:

يا نوح: أنت أول الرسل إلى الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما بلغنا؟! ألا تشفع لنا إلى ربك؟

فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله وإنه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي: نفسي. نفسي. نفسي!!!

=

فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك أراه قبل عشرين سنة، وهو يومئذ جميع[1]. .

فانظر رحمك الله ما تضمنه هذا الحديث من فخامة قدره ﷺ،

= اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبيُّ الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟!

فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني كذبت ثلاث كذبات: نفسي. نفسي. نفسي!

اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى!

فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها: نفسي. نفسي. نفسي.

اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله. وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ـ ولم يذكر ذنباً ـ نفسي. نفسي. نفسي!

اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

ـ وفي رواية: فيأتوني، فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فأنطلق فآتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله على من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب!

فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة: كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصري».

(١) والحديث في صحيح مسلم (شرح النووي جـ ٣ ص ٢٦٣ ومعنى جميع مجتمع القوة والحفظ).

وجلالة أمره، وأن أكابر الرسل والأنبياء لم ينازعوه في هذه الرتبة التي هي مختصة به وهي الشفاعة العامة في كل من ضمه المحشر..

فإن قلت: فما بال آدم أحال على نوح في حديث، وعلى إبراهيم في هذا، ودل نوح على إبراهيم، وإبراهيم على موسى، وموسى على عيسى، وعيسى على محمد ﷺ، ولم لم تكن الدلالة على محمد ﷺ من الأول؟.

فاعلم أنه لو وقعت الدلالة على محمد ﷺ من الأول لم يتبين من نفس هذا الحديث أن غيره لا تكون له هذه الرتبة، فأراد الحق سبحانه أن يدل كل واحد على من بعده، وكل واحد يقول لست لها، مسلماً للرتبة، غير مدع لها، حتى أتوا عيسى فدل على رسول الله ﷺ، فقال: أنا لها..

وفي هذا الحديث من الفوائد: أن الإيمان يزيد(١) وينقص.

وفيه: أن المعارف لا تتناهى، من قوله: لا أقدر عليه الآن يلهمنيه الله عز وجل ويشهد لذلك قوله ﷺ:

«لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(٢).

---

(١) يقول الإمام البخاري عن الإيمان:
هو قول وفعل، ويزيد وينقص.. ثم أخذ يبرهن على رأيه بالآيات القرآنية، نذكر منها: قال الله تعالى:
﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾.
﴿وزدناهم هدى﴾.
﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾.
﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾.
﴿أيكم زادته هذه إيماناً، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً﴾.
﴿فاخشوهم فزادهم إيماناً﴾.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد في مسنده.

ويشهد له قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾(١).

إلى غير ذلك من الفوائد التي لو تكلمنا عليها لخرجنا عن غرض الكتاب ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول:

جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾(٢).

ﷺ، وشرف وكرم، ومجد وعظم، فدعا إلى الله بالبصيرة الواضحة(٣)، والبينة الفائقة، وقرب المدارك، وبين المسالك، وحث على سلوك سبيل الهدى، واجتناب سبيل الردى، فما ترك شيئاً يقرب إلى الله إلا ودعا إليه، ولا أدباً يصلح أن يكون العبد به مع الله إلّا وحث عليه، ولا شيئاً يشغل العباد عن الله إلا وحذر منه، ولا عملاً يقطعهم عن الله إلا وأخرجهم عنه، لا يألو نصحاً(٤) في تخليص العباد من أوحال القطيعة، ومواطن الهلكة، إلى أن ترحل ليل الشرك، وانقضت آثاره،

---

(١) طه: ١١٠.

(٢) الأنبياء: ١٠٧ - ويقول الرسول ﷺ: إنما أنا رحمة مهداة. أي مهداة من الله سبحانه وتعالى إلى الإنسانية.

(٣) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ وإن من أول شروط الدعاة أن يكونوا على بصيرة من أمر دعوتهم، ومن أهم ما تتضمنه البصيرة: العلم، العلم بكتاب الله وسنة ورسوله، وسيرته الشريفة.

(٤) يقول الله تعالى في بيان حرص رسول الله ﷺ على هداية الناس: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾، ويقول سبحانه.
﴿لقد جاءكم رسول من، أنفسكم، عزيز عليه ما عنم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

وأضاء نهار الإيمان وأشرقت أنواره، فرفع ﷺ من الدين لواءه، وتمم نظامه، وقرر فرائضه وأحكامه، وبين حلاله وحرامه، وكما بين للعباد الأحكام، كذلك فتح لهم باب الإفهام، حتى قال الراوي: لقد تركنا رسول الله ﷺ وإن الطير ليتحرك في السماء فنستفيد منه علماً، فقد قال سبحانه:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ ﴾(١).

وقال سبحانه:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾(٢).

وقال ﷺ:

«تركتها بيضاء نقية»(٣).

فجزاه الله خير ما جزى نبياً عن أمته..

ولما أكمل ﷺ البيان لسبيل الرشاد، وأظهر المسالك الموصلة إلى الله للعباد، توفاه الله للعباد، توفاه الله إلى الدار التي هي خير له وأولى، بعد أن خير فاختار الرفيق الأعلى.

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) رواه أحمد وابن ماجه بنحوه ونص الحديث عن العرباض بن سارية:
وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟. قال. «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. عضوا عليها بالنواجذ؛ وعليكم بالطاعة وإن كان عبداً حبشياً، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد.

ثم جعل الحق سبحانه الدعاء إلى الله في أمته أبداً، ودائماً سرمداً، بما ورثوا منه، وأخذوا عنه، وقد شهد لهم الحق بذلك، وجعلهم أهلاً لما هنالك، قال الله سبحانه:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ (١).

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: أي على معاينة، يعاين سبيل كل واحد من الأتباع، فيحمله عليها.

ودليل ما قال الشيخ رضي الله عنه اختلاف وصاياه ﷺ لأصحابه على حسب اختلاف سبلهم، فقال لبلال رضي الله عنه:

«أنفق بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالا»(٢).

وقال لآخر أراد أن ينخلع عن ماله كله:

«أمسك عليك مالك، فإنك إن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»(٣).

وقال له ﷺ رجل: أوصني، فقال ﷺ:

«استح من الله كما تستحي من رجل صالح من قومك»(٤).

وقال له آخر: أوصني.. فقال: لا تغضب.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: فتح الحق سبحانه بقوله:

---

(١) يوسف: ١٠٨.
(٢) البزار عن بلال والطبراني عن ابن مسعود.
(٣) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث كعب بن مالك.
(٤) رواه ابن عدي بنحوه بسند ضعيف.

«أنا ومن اتبعني».

باب البصائر للأتباع: يريد الشيخ أن قول الله سبحانه:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ ﴾[1].

أي ومن اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة، على ما يقتضيه اللسان، لأنك إذا قلت: زيد يدعو إلى السلطان على نصيحة هو وأتباعه، أي وأتباعه يدعون إليه على نصيحة..

إذا ثبت هذا، فالرسول ﷺ يدعو الله على بصيرة الرسالة الكاملة، والأولياء يدعون على حسب بصائرهم: قطبانية وصديقية وولاية، وقد قال ﷺ:

«العلماء ورثة الأنبياء»[2].

وقال ﷺ:

«إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم»[3]..

وقال ﷺ:

«علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل».

وههنا نكتة: وهو أنه ﷺ لم يقل: علماء أمتي كرسل بني إسرائيل، فمن الناس من ظن أن النبي هو الذي نبىء[4] في نفسه،

---

(١) يوسف: ١٠٨.

(٢،٣) رواه أبو داود والترمذي.

(٤) كون النبي ما نبىء في نفسه أو بتعبير المتكلمين: «ما أوحي إليه ما يعمل به ولم يؤمر بتبليغه» والرسول هو ما أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه» والرسول هو ما أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه. هذا ما جرى عليه الغالبية من علماء علم الكلام، وما ذكره المؤلف هنا أدق وأوضح.

والرسول هو الذي أرسل إلى غيره، وليس الأمر كما ظن هذا القائل، ولو كان كذلك فلماذا خص الأنبياء دون الرسل بالذكر في قوله: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، ومما يدلك على بطلان هذا المذهب قول الله سبحانه:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [1] الآية.

فدل على أن حكم الارسال يعمهما، وإنما الفرق ما قال بعض أهل العلم: إن النبي لا يأتي بشريعة جديدة، إنما يجيء مقرراً لشريعة من كان قبله كيوشع ابن نون، فإنه إنما جاء مقرراً لشريعة موسى، وآمراً بالعمل بما في التوراة، ولم يأت بشرع جديد، والرسول كموسى عليه السلام إذ أتى بشرع جديد وهو ما تضمنته التوراة، فقال ﷺ: علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل، أي يأتون مقررين ومؤكدين وآمرين بما جئت به لا أنهم يأتون بشرع جديد.

إعلام وبيان:

اعلم أن قول رسول الله ﷺ:

«العلماء ورثة الأنبياء».

و«علماء أمتي كأنبياء إسرائيل».

و«أن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم».

و«ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم»[2].

و«وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»[3].

---

(١) الحج: ٥٢ وتمام الآية: ﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

(٣) رواه أبو داود والترمذي.

وقوله سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾(١).

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾(٢).

و ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾(٣).

وحيثما وقع العلم في كتاب الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فإنما المراد به: العلم النافع المخمد للهوى، القامع، الذي تكتنفه الخشية وتكون معه الإنابة، قال الله سبحانه:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾(٤).

فلم يجعل علم من لم يخشه من العلماء علماً، وقد قال داود عليه السلام: يا رب، ما علم من لم يخشك، وما خشية من لم يطع أمرك؟

فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله الخشية، وشاهد الخشية موافقة الأمر، أما علم تكون معه الرغبة في الدنيا، والتملق لأربابها، وصرف الهمة إلى اكتسابها، والجمع والادخار، والمباهاة والاستكثار، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، فما أبعد من هذا العلم علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث عنه؟

ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كمثل الشمعة تضيء على غيرها وهي تحرق نفسها(٥)، جعل الله العلم الذي علمه من هذا

(١) آل عمران: ١٨ ـ والقسط: هو العدل.

(٢) المجادلة: ١١.

(٣) العنكبوت: ٤٩.

(٤) فاطر: ٢٨.

(٥) ولأجل هذا كان الرسول ﷺ يقول في دعائه ـ كما رواه الإمام أحمد.. اللهم إني أعوذ =

وصفه حجة عليه، وسبباً في تكثير العقوبة لديه. ولا يغرنك أن يكون به انتفاع البادي والحاضر، فقد قال ﷺ:

«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»(١).

ومثل من يتعلم العلم لاكتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من يرفع العذرة بملعقة من ياقوت، فما أشرف الوسيلة، وما أخس المتوسل إليه.

ومثل من قطع الأوقات في طلب العلم فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل من قعد هذه المدة يتطهر ويجدد الطهارة ولم يصل صلاة واحدة، إذ مقصود العلم العمل، كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة، ولقد سأل رجل الحسن البصري رضي الله عنه عن مسألة فأفتاه فيها، فقال الرجل للحسن: قد خالفك الفقهاء: فزجره الحسن وقال؛ ويحك، وهل رأيت فقيهاً؟ إنما الفقيه الذي فقه عن الله أمره ونهيه..

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول:

وإذ قد عرفت أن الدعاء إلى الله لا يزال أبداً، فاعلم أن الأنوار الظاهرة في أولياء الله إنما هي من إشراق أنوار النبوة عليهم، فمثل الحقيقة المحمدية كالشمس، وقلوب الأولياء كالأقمار، وإنما أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ومقابلته إياها، فإذا الشمس منيرة نهاراً، ومضيئة أيضاً ليلاً، لظهور نورها في القمر الممدود منها، فإذا هي لا غروب لها،

= بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

(١) رواه الطبراني وصححه السيوطي وفي معناه قوله ﷺ: إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم» رواه أحمد والنسائي وابن حبان والطبراني.

فقد فهمت من هذا أنه يجب دوام أنوار الأولياء لدوام ظهور نور رسول الله ﷺ فيهم، فالأولياء آيات الله يتلوها على عباده بإظهاره إياهم وواحداً بعد واحد:

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[1].

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول في قوله عز وجل:

أي ما نذهب من ولي لله إلا ونأت بخير منها أو مثلها..

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾[2]..

وقد سئل بعض العارفين عن أولياء المدد، أينقصون في زمن واحد.. فقال: لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها، ولا أبرزت الأرض نباتها، وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم، ولا بنقص أمدادهم، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله سبحانه وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم، فإذا كان أهل الزمن معرضين عن الله، مؤثرين لما سوى الله، لا تنجع فيهم الموعظة، ولا تميلهم إلى الله التذكرة، لم يكونوا أهلاً لظهور أولياء الله فيهم، ولذلك قالوا: أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون، وقد قال ﷺ:

«لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم»[3].

---

(١) الجاثية: ٦.

(٢) البقرة: ١٠٦.

(٣) إن حديث الصوفية عن بعض آيات القرآن، إنما هو إشارات تمر بوجدانهم لا تنفي من قرب، ولا من بعد المعنى الذي يستمد من الآية بحسب اللغة وأسباب النزول، وموازين المفسرين، ولكن القرآن الكريم نبع فياض، يلهم ويشير ويوجه وكل إنسان يأخذ منه بحسب صفاء نفسه، ولا عليه في ذلك ما دام مؤمناً بالمعنى الذي تقرره =

فإذا كان الله سبحانه وصانا على لسان رسوله ﷺ أن: لاتؤتوا الحكمة غير أهلها، فمن أولى بهذا الخلق الجميل منا، وقد قال ﷺ:

«إذا رأيت هوى مطاعاً، وشحاً متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك»(١).

فسمعوا وصية رسول الله ﷺ، فآثروا الخفاء، بل آثر الله لهم ذلك مع أنه لا بد أن يكون منهم في الوقت أئمة ظاهرون قائمون بالحجة، سالكون الحجة، لقول رسول الله ﷺ.

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من ناوأهم إلى قيام الساعة»(٢).

وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مخاطباته لكميل بن زياد: «اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجتك، أولئك الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في عباده وبلاده، آه واشوقاه إلى رؤيتهم، وروى الإمام الرباني محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه في كتاب «الختم»(٣) له،

= الأوضاع الإسلامية الصادقة عاملاً به.
في إشعاعات الآيات الكريمة.
وهذا المعنى هو الذي يؤخذ من قوله تعالى: «يؤتى الحكمة من يشاء» وهي كلمة قرآنية لا منع فيها ولا تعميم».

(١) أبو داود في الملاحم، والترمذي في التفسير، وابن ماجه في الفتن.

(٢) متفق عليه.

(٣) هو كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذي، وهو من الكتب التي كانت محل عناية كبرى من الشيخ أبي الحسن الشاذلي، ومن الشيخ أبي العباس المرسي وقد نال هذا الكتاب عناية الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، ووصلت عنايته به إلى درجة تحدث عنه غير مرة، وأجاب عن الاسئلة التي وجهها الحكيم الترمذي في كتابه.. وهذا الكتاب طبع في لبنان..

يرفعه إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«أمتي كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره»(١).

وروى أيضاً يرفعه إلى أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي أولها وآخرها، وفي وسطها الكدر».

وروى أيضاً يرفعه إلى عبد الرحمن بن سمرة قال:

جئت مبشراً من غزوة مؤتة، فلما ذكرت قتل جعفر وزيد وابن رواحة بكى أصحاب رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: ما يبكيكم؟ فقالوا: وما لنا لا نبكي وقد قتل خيارنا وأشرفنا وأهل الفضل منا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تبكوا، إنما مثل أمتي مثل حديقة قام عليها صاحبها، فاجتلب رواكبها، وهيأ مسالكها، وحلق سعفها، فأطعمت عاماً فوجاً ثم عاماً فوجاً، فلعل آخرها طعماً يكون أجودها قنواناً، وأطولها شمراخاً، والذي بعثني بالحق ليجدن ابن مريم من أمتي خلفاً من حواريه(٢).

وروى أيضاً يرفعه إلى سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه أحمد والترمذي والطبراني وأبو يعلى..

(٢) القنوان: جمع قنـو وهو العذق أي النخلة بحملها، والشمراخ مثله..

ومن خبر غزوة مؤته ما ذكره ابن حزم في «جوامع السيرة» من أن المسلمين عندما دخلوا قرية مؤته جعل المسلمون على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذرى، وعلى الميسرة عباية بن مالك الأنصاري، وقيل: عبادة، واقتتلوا فقتل الأمير الأول: زيد بن حارثة ملاقياً بصدره الرماح، والراية في يده، فأخذها جعفر بن أبي طالب ونزل عن فرس شقراء... فقاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بيسراه، فقطعت فاحتضنها، فقتل كذلك، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأخذ عبد الله بن رواحة الراية؛ وتردد عن النزول بعض التردد ثم صمم، فقاتل حتى قتل، فأخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان وقال: يا معشر المسلمين: اصطلحوا على رجل منكم: فقالوا: أنت، قال لا، فأخذها خالد بن الوليد، وانحاز بالمسلمين، فأنذر النبي ﷺ بقتل الأمراء المذكورين قبل ورود الخبر في يوم قتلهم بعينه. اهـ.

«إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء يدخلون الجنة بغير حساب»[1].

ثم تلا:

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[2].

وروى أيضاً يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال:

«في كل قرن من أمتي سابقون»[3].

واعلم، جعلك الله تعالى من خاصة عباده، وعرفك لطائف وداده، أنه سواء منهم الظاهر والخفي، والصديق والولي، فساد الوقت لا يكدر أنوارهم، ولا يحط مقدارهم: لأنهم مع المؤقت لا مع الأوقات، ومن كان مع المؤقت لا يتغير بتغيير الوقت شيئاً، ومن كان مع الوقت تغير بتغيره وتكدر بتكدره.

وقال الإمام أبو عبد الله الترمذي رضي الله عنه: الناس صنفان منهم عمال الله يعبدونه على البر والتقوى فهم يحتاجون إلى خير الزمان وإقباله ودولة الحق: لأن تأييدهم من ذلك، وصنف منهم أهل اليقين فيعبدون الحق على وفاء التوحيد عن كشف الغطاء وقطع الأسباب، فهم غير ملتفتين إلى إقبال الزمان وإدباره ولا يضرهم إدباره وهو قول النبي ﷺ:

إن لله عباداً يغذوهم برحمته، يحييهم في عافية، تمر بهم الفتن

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في التفسير.

(٢) الجمعة: ٣، ٤.

(٣) الأحاديث السابقة خرجها الترمذي في كتابه «ختم الأولياء».

كقطع الليل المظلم لا تضرهم.

وقوله ﷺ:

تكون في أمتي فتن لا ينجو منها إلا من أحياه الله بالعلم.

قال الترمذي يعني: بالعلم بالله فيما نرى.

لقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: رجال الليل هم الرجال، وأن الأولياء هذا الوقت ليؤيدون بشيئين: بالغنى واليقين، فالغنى لكثرة ما عند الناس من الإفلاس، واليقين لكثرة ما عند الناس من الشكوك.

وقال بعض العارفين: إن لله عباداً كلما اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم، فهم كالكواكب، كلما قويت ظلمة الليل قوي إشراقها، وأين نور الكواكب من أنوار قلوب أوليائه، أنوار الكواكب تتكدر وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار الكواكب تهدي في الدنيا إلى الدنيا وأنوار قلوب أوليائه تهدي إلى الله تعالى، ولنا في هذا المعنى:

أمرتقب النجوم من السماء	نجوم الأرض أبهر في الضياء
فتلك تنير وقتاً ثم تخفي	وهذي لا تكدر بالخفاء
هداية تلك في ظلم الليالي	هداية هذه كشف الغطاء

وقال صوفي يوماً بحضرة فقيه: إن لله عباداً هم في أوقات المحن والمحن لا تضرهم، فقال ذلك الفقيه: هذا ما لا أفهمه، أنا أريك مثال ذلك، الملائكة الموكلون بالنار هم في النار والنار لا تضرهم[1].

---

(١) وإن القارىء للقرآن ليعلم ما ذكره القرآن الكريم في قصة إبراهيم عليه السلام حينما قال قومه:

﴿حرقوه وانصروا آلهتكم﴾.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول؛ الدنيا كالنار وهي قائلة للمؤمن: جز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبي.

واعلم أن شأن الولاية والولي عظيم والخطب فيها جسيم، ويكفيك في ذلك ما حدثنا به الشيخ المسند الجليل شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن إسحاق بن محمد ابن المؤيد الأبرقوهي رحمه الله، قال أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن سابور القلانسي الشيرازي بها سنة تسع عشرة وستمائة، قال أخبرنا الإمام أبو المبارك عبد العزيز بن محمد بن منصور الشيرازي الأدمي قراءة عليه وأنا أسمع في سنة ثلاث وخمسمائة، قال حدثنا الشيخ الإمام أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد التميمي الحنبلي إملاء علي في يوم السبت السادس عشر من صفر سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة بأصبهان، قال أخبرنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن مهدي الفارسي حدثنا أبو عبد الله محمد بن مخلد بن حفص العطار الخطيب الدوري حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة حدثنا خالد بن مخلد عن سليمان بن بلال عن شريك بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ:

«إن الله عز وجل قال: من عادى لي ولياً فقد أذنني[1] بالحرب،

ثم ألقوه في النار، فكان الأمر الإلٓهي:

﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾.

إن الله سبحانه وتعالى قد حفظه لأنه كان موالياً لله سبحانه وتعالى في أفعاله، ومن كان موالياً لله سبحانه وتعالى، كان متخذاً لله ولياً، ومن اتخذ الله ولياً وسار في حياته على ما أحبه الله سبحانه وتعالى، فإن الله يحفظه فتمر به الفتن لا تضره.

﴿أليس الله بكاف عبده﴾؟!

(١) ورواية البخاري «فقد آذنته الحرب» وكلا الروايتين صحيح في المعنى إن من عادى ولي الله آذن الله بالحرب، فآذنه الله بالحرب ـ أعاذنا الله من ذلك، وعافانا.

وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه».

وهذا الحديث أخرجه البخاري رضي الله عنه في صحيحه.

وقد روى هذا الحديث من طريق أخرى: فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً وعقلاً ويداً ومؤيداً.

فاصغ رحمك الله إلى ما تضمنه هذا الحديث من غزارة قدر الولي وفخامة رتبته، حتى ينزله الحق هذه المنزلة، ويحله هذه المرتبة، كقوله ﷺ حاكياً عن الله:

«من عادى لي ولياً فقد آذنني بالحرب».

لأن الولي قد خرج عن تدبيره إلى تدبير الله، وعن انتصاره لنفسه لانتصار الله، وعن حوله وقوته بصدق التوكل على الله، وقد قال الله سبحانه:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(١).

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

وكان ذلك لهم لأنهم جعلوا الله تعالى مكان همومهم، فدفع عنهم الأغيار(٣)، وقام لهم بوجود الانتصار.

---

(١) الطلاق: ٣.

(٢) الروم: ٤٧.

(٣) جمع «غير» بمعنى: سوى أي كل ما سوى الله.

أخبرني الشيخ شهاب الدين الأبرقوهي، قال: دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه فسمعته يقول: يقول الله عز وجل: ﴿عبدي اجعلني مكان همك أكفك كل همك، عبدي ما كنت لك فأنت في محل البعد، وما كنت بي فأنت في محل القرب واختر لنفسك﴾.

وقد جاء في الحديث:

«من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[1].

فإذا كان الحق سبحانه قد رضي لهم أن يشغلهم ذكره عن مسألته، فكيف لا يرضى لهم أن يشغلهم ذكره والثناء عليه عن الانتصار لنفوسهم؟

ومن عرف الله سد عليه باب الانتصار لنفسه[2] إلا العارف قد اقتضت له معرفته إلا يشهد فعلاً لغير معروفه، فكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعالاً فيهم؟ وكيف يدع أولياءه من نصرته وهم قد ألقوا نفوسهم بين يديه مسلمين ومستسلمين لما يريد منهم حكماً؟ فهل في معاقل عزه تحت سرادقات مجده، يصونهم من كل شيء إلا من ذكره، ويقطعهم عن كل شيء إلا عن حبه، ويحتازهم من كل شيء إلا من

---

(١) البخاري في التاريخ والبزار في المسند، والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب.

(٢) قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ وقال: ﴿والكاظمين الغيظ. والعافين عن الناس ـ والله يحب المحسنين﴾.
وما كان الرسول ﷺ يغضب إلا لله.
ومما يذكر أن الولي يقتدي برسول الله ﷺ في الانتصار لله سبحانه وتعالى، وما جوهر حياة الولي إلا الانتصار لله تعالى:
ينتصر لله من نفسه، وينتصر لله في أسرته، وينتصر لله في مجتمعه، إنه يقوم بالمبدأ الإسلامي الواجب وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وجود قربه، ألسنتهم بذكره لهجة، وقلوبهم بأنواره بهجة، وطن لهم وطناً بين يديه، فقلوبهم جاثمة في حضرته، وأسرارهم محققة بشهود أحديته.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول:

ولى الله مع الله كولد اللبوءة في حجرها، أتراها تاركة ولدها لمن أراد اغتياله؟

وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ﷺ كان في بعض غزواته وامرأة تطوف على ولدها رضيع، فلما وجدته أحنت عليه وألقمته الثدي، فنظر الصحابة إليها متعجبين، فقال ﷺ:

«لله أرحم بعبده المؤمن من هذه[1] بولدها».

ومن هذه الرحمة برز انتصار الحق لهم ومحاربة من عاداهم: إذ هم حمال أسراره ومعادن أنواره، وقد قال الله سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[2].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾[3].

غير أن مقابلة الحق سبحانه لمن أذى أولياءه ليس يلزم أن تكون معجلة؛ لقصر مدة الدنيا عند الله، ولأن الله لم يرض الدنيا أهلاً لعقوبة أعدائه كما لم يرضها أهلاً لإثابة أحبائه، وإن كانت معجلة فقد تكون قساوة في القلب، أو جموداً في العين، أو تعويقاً عن طاعة الله، أو وقوعاً في ذنب، أو فترة في الهمة، أو سلب لذاذة خدمته.

---

(١) رواه البخاري في الأدب، ومسلم في التوبة، وأبو داود في الجنائز، وابن ماجة في الزهد.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

(٣) الحج: ٣٨.

وقد كان رجل في بني إسرائيل أقبل على الله ثم أعرض عنه فقال: يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان أن قل لفلان: كم عاقبتك ولا تشعر؟ ألم أسلبك حلاوة ذكرى ولذاذة مناجاتي؟

وفائدة هذا البيان إلا يحكم لإنسان آذى ولياً من أولياء الله بالسلامة، إذا لم تر عليه محنة في نفسه وماله وولده، فقد تكون محنته أكبر من أن يطلع العباد عليها.

وقوله ﷺ حاكياً عن الله عز وجل:

«وما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم».

فاعلم أن الفرائض التي اقتضاها الحق من عباده على قسمين: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة؛ الصلوات الخمس، والزكاة، وصوم رمضان، والحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، إلى غير ذلك.

والباطنة: العلم بالله، والحل له، والتوكل عليه، والثقة بوعده، والخوف منه، والرجاء فيه، إلى غير ذلك، وهي أيضاً تنقسم قسمين؛ أفعال وتروك، شيء اقتضى الحق منك أن تفعله، وشيء اقتضى الحق منك ألا تفعله، وقد جمع ذلك في آية واحدة، قال الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾(١).

فهدا أمر طلب الله منك أن تفعله، ثم قال:

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾(٢).

---

(١) النحل: ٩٠.   (٢) النحل: ٩٠.

فهذا أمر اقتضى منك أن تتركه.

ثم اعلم رحمك الله أن الله لم يأمر العباد بشيء وجوباً أو يقتضيه منهم ندباً إلا والمصلحة لهم في فعل ذلك الأمر، ولم يقتض منهم ترك شيء تحريماً أو كراهة إلا والمصلحة لهم في أمرهم بتركه وجوباً أو ندباً، ولسنا نقول كما قال من عدل به عن طريق الهدى أنه يجب[١] على الله رعاية مصالح عباده بل إنما نقول: ذلك عادة الحق وشرعته المستمرة، فعلها مع عباده على سبيل التفضيل، فليت شعري إذا قالوا يجب على الله رعاية مصالح عباده فمن هو الموجب عليه؟

ثم إنا نظرنا فوجدنا كل مأمور به أو مندوب إليه يستلزم الجمع[٢] على الله، وكل منهي عنه أو مكروه يتضمن التفرقة[٣] عنه، فإذا مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه. لكن الطاعات هي أسباب الجمع

---

(١) يشير بذلك إلى رأي المعتزلة.

(٢) الجمع ما كان من قبل الحق من إبداء معاف، وإسداء لطف وإحسان (انظر الرسالة القشيرية).

والجمع في كل معانيه يقصد به القرب من الله سبحانه وتعالى، وآثار القرب، والقرب من الله سبحانه وتعالى لا حدود له، ذلك أن كمال الله سبحانه وتعالى لا يتناهى ويكون معنى القرب من الله سبحانه وتعالى: زيادة كمال، وزيادة الكمال من آثار زيادة الإيمان، وكلما زادت استقامة الإنسان زاد إيمانه، فزاد بذلك كماله، وزاد قربه من الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أكثر من مرة في كتابه الكريم زيادة الإيمان، وتحدث سبحانه عن أهل اليمين، وعن الأبرار، وعن المقربين والمقربون هم قمة أهل الإيمان، ودونهم الأبرار في المنزلة، وأهل ناجون، وكلهم فضلاء يتفاوتون في الفضل بحسب هممهم في طاعة الله والخضوع له.

والتفرقة: هي البعد عن الله سبحانه وتعالى بالمعاصي، وهي بعد عن الكمال ونقص في الإيمان.

(٣) أي رؤية الكسب من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية.

ووسائله فلذلك أمر بها، والمعصية هي أسباب التفرقة ووسائلها فلذلك نهى عنها.

وأما الفرائض الظاهرة فلا تنفك عن فروض باطنة، ولفرائض الباطنة شروطها وممدة[1]، لها، وبين الفرائض الظاهرة والباطنة ما بين الظاهر والباطن.

وافهم ههنا قوله ﷺ:

«نية المؤمن خير من عمله»[2].

---

(١) أي معينة عليها.

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب، وابن عساكر في آماليه وقال غريب، والطبراني في المعجم الكبير، قال الهيثمي: رجاله موثقون إلا حاتم بن دينار لم أر من ذكر له ترجمة، قال المناوي: له عدة طرق تجيز ضعفه، وإنما كانت نية المؤمن خيراً من عمله.

لأن تخليد الله العبد في الجنة ليس بعمله، وإنما هو لنيته، لأنه لو كان بعمله كان خلوده فيها بقدر مدة عمله، أو أضعافه، لكنه جازاه بنيته، لأنه كان ناوياً أن يطيع الله أبداً، فلما اخترمتـه منيته جوزى بنيته، وكذا الكافر لأنه لو جوزى بعمله لم يستحق التخليد في النار إلا بقدر مدة كفره، ولأنه نوى الإقامة على كفره أبداً لو بقي فجوزى بنيته. ذكره بعضهم.

وقال الكرماني: المراد أن النية خير من العمل بلا نية، إذ لو كان المراد خير من عمل مع نية لزم كون الشيء خير من نفسه مع غيره، أو المراد أن الجزء الذي هو النية خير من الجزء الذي هو العمل، لاستحالة دخول الرياء فيها، أو أن النية خير من جملة الخيرات الواقعة بعمله، أو أن النية فعل القلب، وفعل الأشرف أشرف أو لأن القصد من الطاعة تنوير القلب، وتنويره بها أكثر، لأنها صفته.

وقال البعض: إنما قال النبي ﷺ ذلك، لأن النية عبودية القلب والعمل عبـودية الجوارح، وعمل القلب أبلغ وأنفع، وهو أمير، والجوارح رعية وعمل الملك أعظم وأبلغ، ولأن العمل يدخل تحت الحصر، والنية لا، إذ المتحقق في إيمانه عقد نيته على أن يطيع الله ما أحياه، ولو أماته ثم أحيـاه، وثم ثم، وهذا اعتقاده منبرم مستدام، فيترتب له من الجزاء على نيته مالا يترتب له على عمله. =

. . . .

= وقال بعضهم: معناه: إن المؤمن كلما عمل خيراً نوى أن يعمل ما هو خير منه، فليس لنيته في الخير منتهى، والفاجر كلما عمل شراً نوى أن يعمل ما هو شر منه، فليس لنيته في الشر منتهى.

وقال بعضهم في حديث آخر: من نوى حسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات، فالعمل في هذا الحديث خير من النية، وليس ذلك مراداً للحديث الأول، وإنما تكون النية خيراً من العمل في حال دون حال.

وقال بعض شراح مسلم: أفاد هذا الخبر أن الثواب المترتب على الصلاة أكثر للنية وباقية لغيرها من قيام وغيره.

وفي رواية: «نية المؤمن أبلغ من عمله» لما تقرر، ولأن المؤمن في عمل ونيته عند فراغه لعمل ثان، ولأن النية بانفرادها توصل إلى مالا يوصله العمل بانفراده ولأنها هي التي تقلب العمل الصالح فاسداً، والفاسد صالحاً، مثاباً عليه، ويثاب عليها أضعاف ما يثاب على العمل، ويعاقب عليها أضعاف ما يعاقب عليه، فكانت أبلغ وأنفع.

وقيل: إذا فسدت النية وقعت البلية.

ومن الناس من تكون نيته وهمته أجل من الدنيا وما عليها، وآخر نيته وهمته من أخس نية وهمة، فالنية تبلغ بصاحبها في الخير والشر ما لا يبلغه عمله، فأين نية من طلب العلم وعلمه ليصلى الله عليه وملائكته وتستغفر له دواب البر وحيتان البحر إلى نية من طلبه لمأكل أو وظيفة كتدريس؟

وسبحان الله كم بين من يريد بعلمه وجه الله والنظر إليه وسماع كلامه وتسليمه عليه في جنة عدن، وبين من يطلب حظاً خسيساً كتدريس أو غيره من العرض الفاني.

قال الحكيم: والنية نهوض القلب إلى الله، وبدوها خاطر ثم المشيئة، ثم الإرادة ثم النهوض؛ ثم اللحوق إلى الله تعالى مرتحلاً بعقله وعمله وذهنه وهمته وعزمه فمن هنا تتم النية؛ ومنه يخرج إلى الأركان فيظهر على الجوارح فعله، وإذا صح العزم خرج الرياء والفخر والخيلاء من جميع أعماله وبلغ مقام الأقوياء؛ وأما غير الكامل فصدره مرج (بستان) من المروج ملتف فيه من النبات ماذا تخطى فيه لا يكاد يستبين موضع قدمه أين يضعها من كثرة النفاق؛ فهذا صدر فيه أشغال النفس وفنونها ووساوس شهواتها فمن أين يأتي النور؟

وإنما يستنير قلب أجرد أزهر في صدره فسح قد شرحه الله للإسلام فهو على نور من ربه؛ رطب بذكر الله ورحمته؛ وصلب بآلاء الله.

والناس في هذه النية على طبقات: أما نية العامة فارتحالهم إلى الله بهذا العلم والعقل والذهن والهمة والعزم؛ فمبلغ ارتحالهم المحو، ثم ليس لقلوبهم من القوة ما يرتحلون

وكذلك الذنوب الباطنة صغائرها وكبائرها أشد من الذنوب الظاهرة صغيرها من صغيرها وكبيرها من كبيرها، ولما كانت الفرائض اقتضاها الحق من عبده اقتضاء إلزام حتمه عليه لم يدخل العبد فيها إلا باختيار الله له، فاندفع هوى العبد فيها: لأن الله سبحانه وقت أعدادها وآمادها وأسبابها، فلما كان كذلك كان قيام العبد فيها مقتطعاً عن اختياره لنفسه، راجعاً إلى اختيار الله له، فأوجبت من القرب إلى الله ما لم يوجبه غيرها، فلذلك قال:

«ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم».

ثم قال: «وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه».

فاعلم أن النوافل هي الزيادة، ولذلك سمي النفل نفلاً، وهو ما ينفله الإمام لمن يراه: زائداً على نصيبه من الغنيمة، وقال الله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾(1).

أي زيادة لك من فضلنا على ما اقتضته الفرائض لك.

واعلم أن الحق سبحانه لم يوجب شيئاً من الواجبات غالباً إلا وجعل من جنسه نافلة حتى إذا قام العبد بذلك الواجب وفيه خلل ما جبر بالنافلة التي هي من جنسه: ولذلك جاء في الحديث:

أنه ينظر في صلاة العبد فإن قام بها كما أمره الله جوزي عليها

= به فيطيرون لأنه لا ريش لقلوبهم والمحو مسدود لأن القلوب لما مالت إلى النفوس وإطاعتها أفسد طريقها إلى ربها.

وأما العارفون فنياتهم صارت كلها نية واحدة لأن القلب ارتحل إلى الله ووجد الطريق إليه فمر والقلب أمير والنفس أسير» اهـ فيض القدير جـ٦ ص ٢٩٢.

(1) الإسراء: ٧٩.

وأثبتت له وإن كان فيها خلل أكملت من نافلته»[1] حتى قال أهل العلم: إنما تثبت لك نافلة إذا سلمت لك الفريضة.

ولما علم الله سبحانه أن في عباده المؤمنين أقوياء وضعفاء كما جاء في الحديث:

«المؤمن القوي أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف» أو قال: «خير من المؤمن الضعيف» وفي كل خير[2].

ففسح الله على الضعفاء بالاكتفاء بالواجبات، وفتح للأقوياء باب نوافل الخيرات، فعباد أنهضهم إلى القيام بالواجبات خوف عقوبته، فقاموا بها تخليصاً لأنفسهم من وجود الهلكة وملاقاة العقوبة، فما قاموا لله شوقاً له ولا طلباً بربوبيته، فلو قوبلوا بالمحاققة لم يقبل منهم قيامهم هذا، فإنهم لم ينهضوا إلا لأجل نفوسهم ولم يطلبوا إلا حظوظهم، فقاموا بواجبات الله مجرورين بسلاسل الإيجاب: لذلك جاء في الحديث.

«عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل»[3].

وأما العباد الآخرون فعندهم من غليان الشغف ووجود الحب ما ليس تكفيهم الواجبات، بل قلوبهم ملتفتة إلى الله من عوائق هذه الدار، فلو لم يحجز عليهم التنقل بالصلاة في أوقات النهي لسرمدوا الأوقات

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم عن تميم الداري بنحوه وصححه السيوطي.

(٢) رواه مسلم ونصه: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا، كان كذا، وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان.

(٣) رواه أحمد والبخاري وأبو داود.

بها، ولحملوا أنفسهم فوق ما يطيقون.

ومما يدلك على أن الناس انقسموا على هذين القسمين أن رسول الله ﷺ قال في حديث:

«بادروا بالأعمال سبعاً، هل ينتظر أحدكم إلا غنى مطغياً، أو فقراً منسياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة أدهى وأمر»(١).

فهذا الحديث يقتضي إنهاض الهمم إلى معاملة الله سبحانه وتعالى، والحث على المبادرة إلى طاعته، ومسابقة العوارض والقواطع قبل ورودها، فهذا خطاب الفريق الأول فطالبهم الرسول ﷺ بالمبادرة بالأعمال، وجاءت أحاديث أخر للعباد بالاقتصاد في الطاعة لئلا يطيعوا باعث الشغف فيحملون أنفسهم فوق ما يطيقون فيؤدي ذلك إلى عجزهم عن طاعة الله أو قيامهم فيها بوجود التكلف، فقال ﷺ:

«اكلفوا من العمل ما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا»(٢).

وقال: القصد القصد تبلغوا(٣).

وقوله: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق»(٤).

وقوله ﷺ: (ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله).

ومثل القائم بالواجبات المكتفي بها والقائم بها وبالنوافل معها كمثل عبدين خارجهما(٥) الملك على أربعة دراهم كل يوم فأما أحدهما

---

(١) رواه الترمذي والحاكم وصححه.
(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائي ورواه الشيخان بنحوه.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه أحمد عن أنس وصححه.
(٥) أطلقهما ليعملا حرين على أن يؤديا إليه أربعة دراهم كل يوم.

فقام بها ولم يزد، وأما الآخر فقام بها وعمد إلى طرف الفواكه وغرائب التحف فاشتراها وأهداها إلى السيد، فهو لا شك أولى بود السيد من العبد الآخر.

وقوله: فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، الحديث إلى آخره.

المعني به: وجود البقاء بعد الفناء فتمحى أوصافك وتطوي بظهور أوصاف المولى فيك.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول:

إن لله عباداً محوا أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذواتهم بذواته وحملهم من أسرارهم ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه، وهم الذين غرقوا في بحر الذات وتيار الصفات، فهي إذن فناءات ثلاثة أن يفنيك عن أفعالك بأفعاله، وعن أوصافك بأوصافه، وعن ذاتك بذاته، ولذا قال قائلهم:

وقوم تاهوا في أرض بقفر ... وقوم تاهوا في ميدان حبه
فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا ... وأبقوا بالبقاء من قرب قربه

فإذا أفناك عنك أبقاك به، فالفناء دهليز البقاء، ومنه يدخل إليه، فمن صدق فناؤه صدق بقاؤه، ومن كان عما سوى الله فناؤه كان بالله بقاؤه، ولذلك قالوا: من كان في الله تلفه كان على الله خلفه، فالفناء يوجب عذرهم، والبقاء يوجب نصرهم، الفناء يوجب غيبتهم عن كل شيء والبقاء يحضرهم مع الله في كل شيء فلا ينقطعون عنه بشيء، الفناء يميتهم، والبقاء يحييهم، ومن دكت جبال وجوده استمع داعي شهودة، قال الله سبحانه:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾(١).

وصاحب البقاء يقوم عن الله، وصاحب الفناء يقوم الله عنه.

وقوله: وما ترددت في شيء أنا فاعله أكثر من ترددي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه.

أعلم أن التردد يجب تأويله ولا يحمل على ظاهره، وإنما التردد في المخلوقين: إما لتقابل الجواذب، وإما لانبهام العواقب وذلك محال في حق الله سبحانه، وإنما المراد بالتردد ههنا: أن سابق علم الله يقتضي وفاة العبد في الوقت الذي سبق العلم بتعيينه، وصفة الرأفة دفع ذلك لولا ما سبق العلم، وقد أشار الحق سبحانه إلى صفة الرأفة بقوله: يكره الموت وأكره مساءته، وأشار إلى صفة العلم بقوله: ولا بد له منه.

انعطاف:

واعلم رحمك الله بإقباله عليك وجعل أنواره واصلة إليك، أنهما ولايتان: ولي يتولى الله، وولي يتولاه الله، وقد قال عز وجل في الولاية الأولى:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾(٢).

---

(١) طه: (١٠٥ ـ ١٠٨) ومما يذكر هنا أنه قد أشار القوم بالفناء: إلى سقوط الأوصاف المذمومة. وأشاروا بالبقاء: إلى قيام الأوصاف المحمودة به.
وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين «فمن المعلوم: أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسم الآخر لا محالة، فمن فني عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة.

(٢) المائدة: ٥٦.

وقال في الولاية الثانية:

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: من أجل مواهب الله الرضا بمواقع القضاء، والصبر عند نزول البلاء، والتوكل على الله عند الشدائد، والرجوع إليه عند النوائب.

فمن خرجت له هذه الأربع من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة، ومتابعة السنة، والاقتداء بالأئمة: فقد صحت ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

ومن خرجت له من خزائن المنن على بساط المحبة، فقد تمت ولاية الله له بقوله:

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ففرق بين الولايتين: فعبد يتولى الله، وعبد يتولاه الله فهما ولايتان: صغرى وكبرى، فولايتك لله خرجت من المجاهدة، وولايتك لرسوله خرجت من متابعتك لسنته، وولايتك للمؤمنين خرجت من الاقتداء بالأئمة، فافهم ذلك من قوله:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . .﴾ الآية.

واعلم رحمك الله بورود عواطفه[2]، وفهمك لطائف عوارفه: أن

---

(١) الأعراف: ١٩٦.

(٢) أي: بمنحه وعطاياه.

الصلاح الذي في قوله عز وجل:

﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

ليس مراداً به الصلاح الذي يقصده أهل الطريق عند تفصيل المراتب، فيقولون فلان صالح وشهيد وولي، بل الصلاح هنا المراد به: الذين صلحوا لحضرته بتحقيق الفناء عن خليفته، ألم تسمع قول الله سبحانه حاكياً عن يوسف عليه السلام:

﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

أراد بالصالحين هنا المرسلين من آبائه، لأن الله أهلهم لنبوته ورسالته، فكانوا لها أهلاً.

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الإيمان، وولاية الإيقان، فولاية الإيمان قول الله سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾(١).

وفي هذه الآية فوائد:

الفائدة الأولى: اختصاص اسم الله بالذكر في هذا الموطن دون ما سواه من الأسماء، فقال الله سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

ولم يقل: الرحمن، ولا القهار، ولا غير ذلك من الأسماء التي تتضمن الأوصاف: لأنه أراد أن يعرفك شمول ولايته لعباده المؤمنين من الاسم الجامع لجميع الأسماء، فلو ذكر اسماً من أسماء الأوصاف لكانت الولاية من حيثية ذلك الاسم.

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

الفائدة الثانية: ربط الولاية بالإيمان: ليعرفك عزازة قدر الإيمان وعلو منصبه، حتى كان سبباً لثبوت ولاية الله للعبد، ولا يفهم من هذه الآية اختصاص الولاية بمن وقع منه الإيمان قبل نزول هذا الخطاب لإتيانه بصيغة الماضي، بل المراد أن من قام به الإيمان وجبت ولاية الله له أي وقت كان ذلك الإيمان، وقد تساق الأفعال على صيغة خاصة وليس المراد خصوص تلك الصيغة، كما تقول قد أفلح من آمن وخاب من كفر، ألا ترى أن المراد بالأول: قد أفلح من كان منه إيمان، وقد خاب من كان منه كفر من غير تعرض لزمن معين.

الفائدة الثالثة: دل سبحانه بقوله يخرجهم من الظلمات إلى النور على وسع رحمته وسبوغ نعمته: إذ لما قال:

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

على أنهم قد يدخلون في الظلمات، ولكن الله لولايته إياهم يتولى إخراجهم، كما قال في الآية الأخرى:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

فساق ذلك مساق المدح للمؤمنين، كما ساق قوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور، مساق البشارة لهم، ولم يقل: والذين لا يفعلون الفاحشة: إذ لو قال ذلك لم يدخل فيه إلا أهل الاعتناء الأكبر.

وكذلك قوله:

﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[1].

---

(١) الشورى: ٣٧.

وكذلك قوله: ﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ ﴾[1].

فمدحهم بالمغفرة بعد الغضب، ولم يقل والذين لا يغضبون، فيصفهم بفقدان الغضب أصلاً، إذ البشرية التي هم متصفون بها لا تقتضي ذلك.

الفائدة الرابعة: إعلام الحق سبحانه في هذه الآية المؤمنين ببشارة عظمى تتضمنها ولايته: لانها تضمنت كل خير من خيور[2] الدنيا والآخرة، من: نور وعلم، وفتح وشهود، ومغفرة ويقين، وتأييد ووجود مزيد، وحور وقصور، وانهار وثمار، ورؤية لله، ورضا عن الله، ومن الله، وما بين ذلك من الحشر مع المتقين، وأخذ الكتاب باليمين، وثقل ميزان الحسنات، والتثبيت على الصراط، وما سوى ذلك من المنح والمواهب التي تضمنها ولاية الله لعباده المؤمنين، فهي البشارة التي تضمنت كل بشارة.

واعلم أن ولاية الله تتضمن النفع والدفع.

أما النفع فمن قوله:

﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ﴾[3].

ومن قوله: ﴿ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا ﴾[4].

وفي هذه وصف الكافرين، فمفهومه أن الايمان ينفع المؤمنين ولو عند رؤية البأس، وكذلك قوله:

---

(١) آل عمران: ١٣٤.
(٢) جمع خير.
(٣) يونس: ٩٨.
(٤) غافر: ٨٥.

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾[1].

فمفهومه إذا كانت مؤمنة من قبل نفعها[2] بإيمانها.

وأما الدفع فمن قوله:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾[3].

وتتضمن النصر لقوله: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4].

وتتضمن النجاة لقوله:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5].

الفائدة الخامسة قوله:

﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ومن ظلمات البدعة إلى نور السنة.

ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة.

ومن ظلمات الحظوظ إلى نور الحقوق.

ومن ظلمات الدنيا إلى نور طلب الآخرة.

---

(١) الأنعام: ١٥٨.
(٢) أي انتفاعها بإيمانها.
(٣) الحج: ٣٨.
(٤) الروم: ٤٧.
(٥) الأنبياء: ٨٨.

ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة.

ومن ظلمات الكثائف إلى نور اللطائف.

ومن ظلمات الهوى إلى نور التقوى.

ومن ظلمات الدعوى إلى إشراق نور التبري من الحول والقوى.

ومن ظلمات الكون إلى شهود المكون.

ومن ظلمات التدبير إلى إشراق نور التفويض.

إلى غير ذلك مما لا يحصره العد مما يخرجهم منه ويخرجهم إليه.

الولاية الثانية: ولاية الإيقان، وهي تتضمن الإيمان والتوكل، وقد قال الله سبحانه.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(١).

ولا يكون التوكل إلا مع اليقين، ولا يكون يقين وتوكل إلا مع إيمان: لأن اليقين عبارة عن استقرار العلم بالله في القلب، مأخوذ من يقن الماء في الجبل إذا سكن فيه، فكل يقين إيمان، وليس كل إيمان يقيناً.

والفرق بينهما أن الإيمان قد تكون معه الغفلة واليقين لا تجامعه الغفلة.

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الصادقين، وولاية الصديقين:

---

(١) الطلاق: ٣.

فولاية الصادقين بإخلاص العمل لله، والقيام بالوفاء لله، طلباً للجزاء من الله.

وولاية الصديقين بالفناء عما سوى الله، والبقاء في كل شيء بالله. وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: في بعض كتب الله المنزلة على أنبيائه، قال الله: «من أطاعني في كل شيء أطعته في كل شيء»!

فقال الشيخ أبو الحسن: من أطاعني في كل شيء بهجرانه لكل شيء أطعته في كل شيء بأن أتجلى له في كل شيء حتى يراني أقرب إليه من كل شيء، هذه طريق أولى، وهي طريق السالكين، وطريق كبرى: من أطاعني في كل شيء بإقباله على كل شيء لحسن إرادة مولاه في كل شيء، أطعته في كل شيء، بأن أنجلي له في كل شيء، حتى يراني كأني عين كل شيء.

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أنهما وليان: ولي يفنى عن كل شيء فلا يشهد مع الله شيئاً، وولي يبقى في كل شيء فيشهد الله في كل شيء، وهذا أتم: لأن الله سبحانه لم يظهر المملكة إلا كي يشهد فيها، فالكائنات مرايا الصفات، فمن غاب عن الكون غاب عن شهود الحق فيه، فما نصبت الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاها، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها: تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها. ولنا في هذا المعنى:

ما أبينت لك العوالم إلا لتراها بعين من لا يراها
فارق عنها رقى من ليس يرضى حالة دون أن يرى مولاها

فالناظر للكائنات غير شاهد للحق فيها غافل، والفاني عنها عبد بسطوات الشهود ذاهل، والشاهد للحق فيها عبد مخصص كامل. وإنما ترفع الهمة عن الكون من حيث كونيته لا من حيث ظهور الحق فيه،

وذلك: لعدم نفوذهم إليه في كل شيء لا لعدم ظهوره في كل شيء فإنه ظاهر في كل شيء إنه ظاهر فيما به احتجب فلا حجاب. ولنا في هذا المعنى:

أرى الكل محتاجاً وأنت لك الغنى ... ومثلي من يحظى ومثلك من يعفو
وأنت الذي تبدي الوداد تكرماً ... ومثلك من يرعى ومثلي من يجفو
وما طاب عيش لم تكن فيه واصلاً ... ولم يصف ـ لا والله ـ أنى له يصفو
عزمت على أن أترك الكون كله ... وأقفو سبيل الحب والمجتبى يقفو
شهودك يجلو والحجاب لأنه ... إذا حقق التحقيق صار هو الكشف
وما أحسن الأحباب في كل حالة ... فلله ما يبدوا ولله ما يخفوا
وإن الأولى لم يشهدوك بمشهد ... قلوبهم عن نيل سر الهوى غلف[1]
وأنت الذي أظهرت ثم ظهرت في ... جميع المبادي مثل ما شهد العرف
ظهرت لكل الكون فالكون مظهر ... وفيه له أيضاً كما جاءت الصحف
فأي فؤاد عن ودادك ينثني ... وأية عين بعد قربك لي تغفو
وأية نفس لم يملها هواكم ... على حبكم طرا نفوس الورى وقف

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية دليل وبرهان، وولاية شهود وعيان. ولاية الدليل والبرهان لأهل الاعتبار، وولاية الشهود والعيان لأهل الاستبصار. فلأهل الولاية الأولى قوله سبحانه:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[2].

ولأهل الولاية الثانية:

---

(١) أي مغطاة عن الحق.
(٢) فصلت: ٥٣.

﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾(١).

وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان: لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق في ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه، وكيف يحتاج إلى الدليل من نصب الدليل؟ وكيف يكون معروفاً به وهو المعرف له؟

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟ أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجود كل شيء؟

وقال مريد لشيخه: يا أستاذ: أين الله؟ فقال: أسحقك الله، أتطلب مع العين «أين». وأنشد بعض العارفين:

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد   إلا على أكمه لا يبصر القمرا
ثم استترت عن الأبصار يا صمد   فكيف يعرف من بالعزة استترا

فما احتجب الحق عن العباد إلا بعظيم ظهوره، ولا منع الأبصار أن تشهده إلا قهارية نوره، فعظيم القرب هو الذي غيب عنك شهود القرب.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

حقيقة القرب أن تغيب في القرب عن القرب لعظيم القرب، كمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو منها، وكلما دنا منها تزايد ريحها، فلما دخل البيت الذي هو فيه انقطعت رائحته عنه.

وأنشد بعض العارفين:

كم ذا نموه بالشعين والعلم   والأمر أوضح من نار على علم

---

(١) الأنعام: ٩١.

أراك تسأل عن نجد وأنت بها   وعن تهامة هذا فعل متهم

ووجدت بخط شيخنا أبي العباس رضي الله عنه:

أعندك من ليلى حديث محرر   بإيراده يحي الرميم وينشر
فعهدي بها العهد القديم وأنني   على كل حال في هواها مقصر
وقد كان منها الطيف قدماً يزورني   ولما بزر ما باله يتعذر
فهل بخلت حتى بطيف خيالها   أم اعتل حتى لا يصح التصور
ومن وجه ليلى طلعة الشمس تستضي   وفي الشمس أبصار الورى تتحير
وما احتجبت إلا برفع حجابها   ومن عجبي أن الظهور تستر

واعلم أن الأدلة إنما نصبت لمن يطلب الحق لا لمن يشهده: فإن الشاهد غني بوضوح الشهود عن أن يحتاج إلى دليل، فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبية ثم تعود في نهايتها ضرورية.

وإذا كان من الكائنات ما هو غني بوضوحه عن إقامة دليل، فالمكون يولى بغناه عن الدليل منها.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

إنا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان والإيقان، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان وإنا لا نرى أحداً من الخلق، هل في الوجود أحد سوى الملك الحق؟ وإن كان ولا بد فكالهباء في الهواء إن فتشته لم تجده شيئاً.

ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعري هل لها وجود معه حتى توصل إليه، أو هل لها من الوضوح ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له.

وإن كانت الكائنات موصلة إليه، فليس ذلك لها من حيث ذاتها، ولكن هو الذي ولاها رتبة التوصيل فوصلت، فما وصل إليه غير إلاهيته،

ولكن الحكيم هو واضع الاسباب وهي لمن وقف عندها ولم ينفذ إلى قدرته عين الحجاب، وقد قال الراوي: أصبح رسول الله ﷺ في أثر سحابة كانت من الليل، فقال:

أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: قال ربكم: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب.

رواه مالك في[1] موطئه، فلا بد من الأسباب وجوداً ولا بد من الغيبة عنها شهوداً.

وكيف تكون الكائنات مظهرة له وهو الذي أظهرها أو معرفة له وهو الذي عرفها.

فإن قلت: فقد جاء في الحديث: من عرف نفسه عرف ربه فهذا يدل على أن معرفة النفس موصلة إلى معرفة الله وهي كون من الأكوان ففيه إثبات توصيل الكائنات إليه.

فاعلم أني سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول، في هذا الحديث تأويلان:

أحدهما: أي من عرف نفسه بذلها وعجزها وفقرها عرف الله بعزه وقدرته وغناه فتكون معرفة النفس أولاً ثم معرفة الله من بعد.

والتأويل الثاني: من عرف نفسه عرف ربه، أي من عرف نفسه فقد دل ذلك منه على أنه عرف الله من قبل، فالأول حال السالكين والثاني حال المجذوبين.

---

(١) ورواه البخاري ومسلم.

واعلم بسط الله لك بساط منته وجعلك من أهل حضرته أن الله سبحانه إذا تولى ولياً صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار، حتى قال بعض العارفين: إذا كان الحق سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشهب كيلاً يسترق السمع منها، فقلب المؤمن أولى بذلك، لقول الله سبحانه فيما يحكيه عنه رسول الله ﷺ: «لم تسعني أرضي ولا سمائي ويسعني قلب عبدي المؤمن»(١).

فانظر رحمك الله هذا الأمر الاكبر الذي أعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلاً.

ولقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لو كشفت عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض فما ظنك بنور المؤمن المطيع.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: لو كشفت عن حقيقة الولي لعبد لأن أوصافه من أوصافه ونعوته من نعوته، ولقد أخبرني بعض المريدين قال: صليت خلف شيخي صلاة فشهدت ما بهر عقلي، وذلك أني شهدت بدن الشيخ والأنوار قد ملأته، وانبثت الأنوار من وجوده حتى أنني لم أستطع النظر إليه، فلو كشف الحق عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانطوى نور الشمس والقمر في مشرقات أنوار قلوبهم، وأين نور الشمس والقمر من أنوارها؟ الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب، وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف لها ولا غروب، ولذلك قال قائلهم:

إن شمس النهار تغرب بالليـ ـل وشمس القلوب ليست تغيب

---

(١) لعل أصل هذا الحديث ما رواه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني من قول النبي ﷺ: إن لله آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين.

ونور الشمس يشهد به الآثار، ونور اليقين يشهد به المؤثر.

ولنا في هذا المعنى:

هذه الشمس قابلتنا بنور ولشمس اليقين أبهر نوراً
فرأينا بهذه النور لكنا بهاتيك قد رأينا المنيرا

لكن الحق سبحانه يوفي أعيان الكائنات حقها، ويعطيها قسطها، فيقدر لكل كون رتبته، ويوفيه دولته، فلذلك ستر سر الخصوصية في وجود البشرية، ولا بد للشمس من سحاب وللحسناء من نقاب، وهل يكون الكنز إلا مدفوناً والسر إلا مصوناً؟ وضع ذلك سبحانه ليكون سر الولاية غيباً، فيكون المؤمن به مؤمناً بالغيب، وأيضاً أجل ولايته أن يظهره في دار لابقاء لها فأرخى عليه ذيل الستر حتى إذا كانت الدار الآخرة التي رضيها أهلاً لظهوره واقترابه ووجوده كشف حجابه، كذلك يكشف الحجاب هنالك عن سر الولاية ويجل مقداره ويرفع مناره[1].

---

(١) حين بدأ الرسول ﷺ الجهر بدعوته، بعد نحو ثلاث سنوات من الإسرار بها: فإنه صلوات الله وسلامه عليه لم يبدأ بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالبرهنة على صدقه هو، وتحدى العرب بصدقه!

ومن قبل ذلك حين فاجأه الملك في الغار، ونزل الوحي لم يبدأ الملك أو لم يبدأ الوحي بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالأمر بأن يقرأ الرسول صلوات الله وسلامه عليه باسم ربه:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾.

ومضى القرن الأول كله، ولم يحاول إنسان قط أن يتحدث حديثاً عابراً أو مستفيضاً عن إثبات وجود الله ـ تعالى ـ، ومضى أكثر القرن الثاني والمسألة ـ فيما يتعلق بوجود الله ـ لا توضع موضع البحث:

ذلك أن وجود الله: إنما هو أمر بدهي لا ينبغي أن يتحدث فيه المؤمنون نفياً أو إثباتاً، ولا سلباً أو إيجاباً!

إن وجود الله من القضايا المسلمة التي لا توضع في الأوساط الدينية موضع البحث لأنها فطرية:

=

= وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إنما هو شخص في إيمانه دخل. وفي دينه انحراف، فما خفي الله قط حتى يحتاج إلى أن يثبته البشر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومن المعروف أن الدين الإسلامي لم يجيء لإثبات وجود الله، وإنما جاء لتوحيد الله.

وإذا تصفحت القرآن أو التوراة ـ حتى على وضعها الحالي ـ أو الإنجيل ـ حتى في وضعه الراهن ـ: فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت في أي سفر منها مكانة تجعلها هدفاً من الأهداف الدينية، أو احتلت مكاناً يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية.

والقرآن الكريم: يتحدث عن بداهة وجود الله حتى عند ذوي العقائد المنحرفة يقول سبحانه:

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله﴾.

إنهم يقولون: إن الخالق هو الله، مع أنهم مشركون أو منحرفون بوجه من الوجوه في إيمانهم بالله تعالى، وما نزلت الأديان قط لإثبات وجود الله، وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد في الله، أو لتصحيح طريق التوحيد.

أما الآيات الكثيرة التي يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود: فليست من ذلك في قليل ولا في كثير، أنها تبين عظمة الله وجلاله وكبرياءه وهيمنته الكاملة على العالم، ما عظم من أمره ودق منه، لا تفوت هيمنته صغيرة ولا كبيرة، ولا يخرج عن سلطانه ما دق وما جل.

وقد أتت على هذا الوضع لتقود الإنسان إلى إسلام وجهه لله إسلاماً كاملاً بحيث لا يصدر ولا يرد إلا باسمه سبحانه، يأتي ما يأتي أو يدع ما يدع إلا في سبيله تعالى.

ومضى القرن الأول على ذلك، ومضى القرن الثاني ـ أو أكثره ـ على الفطرة ثم كانت الفلسفة اليونانية.

والفلسفة اليونانية فلسفة وثنية: لأنها تصدر عن العقل لا عن الوحي، وكل فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحي في عالم ما وراء الطبيعة، أي في عالم العقيدة إنما هي فكرة وثنية، أي أنها فكرة لا حق لها في الوجود، لأن عالم العقيدة إنما هو من اختصاص الله، بينه على لسان رسله، وكل تدخل من الإنسان في هذا العالم: إنما هو تدخل فيما ليس للإنسان التدخل فيه، لأنه اقتحام لساحة محرمة مقدسة، لا ينبغي أن يدخلها الإنسان إلا دخول الساجد الخاشع الخاضع المسلم لما جاء به الوحي الإلٓهي..!

إن الفلسفة اليونانية في عالم العقيدة: فلسفة وثنية: إنها وثنية حتى حين تثبت وجود الله، ولا يخرجها إثباتها وجود الله عن أن تكون وثنية، إنها وثنية بالمبدأ الذي قامت =

= عليه، وهو مبدأ تأليه العقل البشري. ويستوي بعد ذلك أن تكون قد أثبتت وجود الله أو نكرته.

وهي حينما تثبت وجود الله عقلياً ليس في ذلك كبير فائدة، لا يبرر ذلك وجودها، ولا قيمة لما تثبته، وإثباتها والعدم سواء: ذلك أن العقل الذي أثبت هو العقل الذي يمكنه أن ينكر، وهو العقل الذي ينكر بالفعل.

ولا لزوم إذن للطنطنة والتصفيق الذي يحيى به كل عبقرية في الشرق أو في الغرب تحاول فكرياً أن تثبت وجود الله. إننا لا نقيم عقيدتنا على فكر بشري مهما كان هذا الفكر عبقرياً.

ويجب على المؤمن ألا يقيم وزناً ـ أي وزن ـ لأي نتاج فكري في عالم ما وراء الطبيعة سواء خالف معتقده أو وافقه، إنه في معتقده يدين لله وحده، وكفى بالله مصدراً، وكفى بالله هادياً، وكفى بالله مرشداً ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم، ومن يعتصم بالله فهو حسبه.

إن كل ما عدا الهدى الإلّهي في عالم الدين إنما هو وثنية وضلال.

كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية، وقد أرادت أن تجد لجاماً يعصمها من الخطأ فاخترعت فناً وثنياً آخر، وهو فن المنطق، فما أجدى ولا أغنى، ولا تقدم بالفكر الوثني في عالم الصواب شروى نقير!

وبقيت هذه الفلسفة الوثنية ـ عبر القرون ـ على ما هي عليه، فيها كل سمات الوثنية من ضلال وخرافات.

ولقد كانت الأمة اليونانية معذورة بعض العذر، فما كان في ربوعها، دين منزل من السماء تلجأ إليه مهتدية مسترشدة، وما كان مثلها في ذلك إلا كمثل العصر الجاهلي في الجزيرة العربية: فلجأت إلى العقل وألهته، وأخذت تثبت بـه وتنكر فضلت وأضلت.

وجاءت الديانة النصرانية مصححة للوضع، فعزلت فكرة الألوهية من تدنيس الوثنية، وسمت بالله جل جلاله عن أن تضع وجوده موضع البحث ثم تسللت إليها ـ كمكروب خبيث ـ وثنية اليونان، فجعلت من وجود الله ـ مجرد وجود الله ـ باباً ضخماً من أبواب البحث أو من أبواب اللاهوت الكنسي. ونزلت بذلك الفكرة الدينية المقدسة عن الله إلى مستوى الجو الوثني البشري!

وجاء الإسلام تطهيراً كاملاً للعقيدة، وتزكية تامة للإيمان، وأعلن بمجرد التسمية: «الإسلام» الحرب على التدخل البشري في دين الله ورسالته، فما جاء الإسلام إلا للاستسلام المطلق لله سبحانه وتعالى، إنه الاسترسال مع الله على ما يرضيه، وهل =

. . . .

= للإنسان غير هذا بالنسبة لله؟ وهل للمؤمن أن يتصرف تصرفاً آخر؟ وهل إذا تصرف تصرفاً آخر سمي مؤمناً؟

إن الاسترسال مع الله على ما يحب هو الإسلام، وهو الدين لا دين غيره، يقول الله تعالى:

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾،

ويقول سبحانه:

﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾.

وإن كل من لا يستسلم لله في وحيه استسلاماً مطلقاً، فإنه يبتغي ـ في قليل أو في كثير حسب انحرافه ـ غير الإسلام ديناً.

ولقد كان الإسلام توجيهاً، وكان مبادىء!

ومن توجيه الإسلام: أن وجود الله لا ينبغي أن يوضع موضع البحث وكل من وضعه موضع البحث: فإنه بذلك يعدل عن توجيه الله تعالى إلى توجيه بشرى.. إنه يبتغي غير الإسلام موجهاً!

ولقد ابتغى المسلمون الأول الإسلام توجيهاً كما ابتغوه مبادىء، وسار الأمر على ذلك إلى أن تسللت الفلسفة اليونانية كمكروب خبيث ـ إلى الجو الإسلامي، تسللت في عهد المأمون، وتولى كبر عذا التسلل المأمون، وشجع على ذلك معتزلة عصره، وقابل المؤمنون ذلك بكثير من النفور، وحق لهم ذلك، فما كان منطق الدين ولا منطق الفطرة السليمة يقضي بأن تكون راية العصمة، راية الدين الإلّهي مرفوعة ترفرف على ربوع الأمة الإسلامية في محيط العقيدة: فنميل بهذه الراية قليلاً أو كثيراً لنرفع بجوارها راية أرسطو أو راية أبيقور.

ورفع المأمون راية الانحراف الوثنية بجوار راية الهداية المعصومة وعارض المؤمنون واحتجوا وبينوا أن الوثنية ولو وافقت الدين فهي وثنية.

ولكن النهج الوثني أخذ يقوى شيئاً فشيئاً، ثم طلب التصريح بالإقامة واستوطن! ومعاذ الله أن تكون عقائد الإسلام الكبرى ـ الإيمان بالله وبالرسالة وبالبعث ـ قد تلوثت بالوثنية!

كلا، وإنما الذي تلوث بالوثنية ـ وإلى حد كبير ـ إنما هو النهج والنزعة والاتجاه في البحث ومنهج البحث وليس ذلك بالأمر الهين أو الذي لا يؤبه له، كلا! ـ فذلك له خطورته في جانب قوة الإيمان وضعفه.

وفرق بين أن تأخذ قضايا الوحي مأخذ المستسلم المسترسل معها على ما تريد، وأن =

= تأخذها محكماً فيها عقلك مؤولاً لها أو عادلاً بها إلى اتحاد خاص، أو شارحاً لها على نزعة معينة.

وبتعبير آخر: فرق بين أن تصدر عن الوحي متفهماً له بعقلك، وبين أن تصدر عن عقلك متفهماً للوحي:

ولعل بعض الناس لا يرى فرقاً في التعبيرين، ولكن الفرق كبير إذا نظرنا إلى الوضع الإنساني: فهو إما أن ينطلق عن الوحي عائداً بالعقل إلى الخضوع له، وإما أن ينطلق عن العقل محاولاً تأويل الوحي مما يوافق النتائج التي وصل إليها العقل. والأول طريق المؤمنين المسلمين، والثاني طريق الفلاسفة أو نهج الوثنيين، والنهج الوثني - نهج إثبات وجود الله عقلياً - هو الذي أتاح الانحراف الكامل، أي إنكار وجود الله، فما دام النهج الوثني قد أعطى حق الوجود، فإن الوثنية كمنهج - تأتي بالوثنية كنتائج!

إن وضع مسألة وجود الله موضع البحث، وهو الذي هيأ لذوي الفطر المنحرفة أن يلحدوا في دين الله، وأن يكفروا به سبحانه...! هذه نتيجة!

أما النتيجة الثانية فإنها ضعف الإيمان، وإذا كنت تضع الوجود الإلٓهي - مجرد الوجود - موضع بحث، فمعنى ذلك أنك وضعته موضع شك وريبة، ولو لم يكن كذلك لما وضع موضع البحث.

وإذا كان الوجود الإلٓهي - مجرد الوجود - موضع شك وريبة فماذا بقي من أمور الدين لا يوضع موضع شك وريبة؟!

إن الإيمان في هذه الأوضاع الوثنية لا يتأتى له إلا أن يخبو شيئاً فشيئاً حتى يصبح كلا إيمان!

وهذا هو ما حدث لبعض الأفراد في الأمة الإسلامية!

لقد وصل إيمانهم إلى درجة يشبه أن يكون معدوماً، وما ذلك إلا لتغلغل النهج الوثني في بحث قضايا الدين ومبادئه.

لقد أصبحت قضايا الدين - كل قضاياه - موضع بحث، وهل يتأتى أن تبقى قضية من قضايا الدين في مجال اليقين بعد أن وضع وجود الله - مجرد وجوده سبحانه - موضع البحث؟ فنستغفرك اللهم ونتوب إليك! ونعود فنقول: إن الدين في نفسه محفوظ بحفظ الله لكتابه العزيز.

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

ولكن الذي نشكو منه إنما هو: النهج، أو المنهج أو النزعة، أو الاتجاه في البحث.

إن الذي نشكو منه إنما هو:

منهج البحث الوثني: وإن شئت قلت: إنما هو منهج البحث اليوناني. سئل أحد =

فاعلم رحمك الله أن من أراد الله به أن يكون داعياً إليه من أوليائه، فلا بد من إظهاره للعباد إذ لا يكون الدعاء إلى الله إلا كذلك، ثم لا بد أن يكسوه الحق سبحانه كسوتين: الجلالة والبهاء.

أما الجلالة فليعظمه العباد فيقفوا على حدود الأدب معه، ويضع له في قلوب العباد هيبة يبصره بها، ليكون إذا أمر ونهى مسموعاً أمره ونهيه، وجعل هذه الهيبة في قلوب العباد من تمكين الحق له ليعينه على القيام له بالنصرة، قال الله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (١).

= العارفين عن الدليل على الله فقال: الله! فقيل له: فما العقل؟ فقال: العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله!

أما الإمام الكبير العارف بالله ابن عطاء الله السكندري الذي جمع بين رئاسة الشريعة ورئاسة الحقيقة فإنه يقول:

إلهي: كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟

أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى يحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟

«كيف يتصور أن تحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء»؟!

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء»؟!

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟!

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء»؟!

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء»؟!

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء»؟!

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء»؟

«كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود شيء»؟

«شتان بين من يستدل به أو يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه، ومتى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه»؟!

(١) الحج: ٤١.

وهي من إظهار إعزاز الحق لعباده المؤمنين، قال الله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

وهذه الهيبة التي جعلها الحق في قلوب العباد لأوليائه سرت إليهم لانبساط جاه المتبوع عليهم، ألم تسمع قوله ﷺ: نصرت بالرعب مسيرة شهر[2]؟ ألبسهم الحق ملابس هيبته، وأظهر عليهم إجلال عظمته، كلما نزلوا إلى أرض العبودية رفعهم إلى سماء الخصوصية، فهم الملوك وإن لم تخفق عليهم البنود[3] والأعزاء وإن لم تسر أمامهم الجنود.

ولله در القائل في مالك بن أنس رضي الله عنه:

يأبي الجواب فما يراجع هيبة والسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار وعز سلطان التقى فهو المطاع وليس ذا سلطان

ومن ملكه الله أمر نفسه وهواه فقد أتاه الله الملك، قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾[4].

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول:

قال ملك من الملوك لبعض العارفين تمن علي.

فقال له ذلك العارف: ألي تقول ولي عبدان قد ملكتهما وملكاك

---

(١) المنافقون: ٨.
(٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي.
(٣) أي ترفرف الرايات.
(٤) آل عمران: ٢٦ ـ وما ذكره المؤلف رضي الله عنه هو بعض ما تشير إليه الآية الكريمة وهي عامة، فهي تشمل: الملك في الآفاق ـ كل الآفاق ـ وفي الأنفس، إنه سبحانه المالك للسماوات والأرض وما بين السماوات والأرض، وهو سبحانه المملك ما يشاء لمن يشاء. ومع تمليكه ما يشاء لمن يشاء فهو المالك الدائم لكل ما خلق ويخلق.

وقهرتهما وقهراك وهما الشهوة والحرص، فأنت عبد عبدي، فكيف أتمنى على عبد عبدي؟

الكسوة الثانية التي يكسوها الحق سبحانه لأوليائه إذا أظهرهم: كسوة البهاء، وذلك ليحليهم في قلوب عباده فينظرون إليهم بعين الألفة والمحبة، فيكون ذلك باعثاً لهم على الانقياد إليهم، أفلا ترى كيف قال الله سبحانه شأن موسى عليه السلام:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[2].

فحلاهم بحلية الهيبة ليحبهم العباد فيجرهم حبهم إلى حب الله، والحب في الله يوجب المحبة من الله، لقوله ﷺ حاكياً عن الله «وجبت محبتي للمتحابين في»[3].

وهي مراتب أربع: الحب لله، والحب في الله، والحب بالله، والحب من الله. الحب لله إبتداء، والحب من الله إنتهاء، والحب في الله وبالله واسطة بينهما.

الحب لله هو أن تؤثره ولا تؤثر عليه سواه[4]، والحب في الله أن

---

(١) طه: ٣٩.
(٢) مريم: ٩٦.
(٣) قال النووي: حديث صحيح رواه مالك في الموطأ.
(٤) يقول الله سبحانه:
﴿قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره...!

تحب فيه من والاه، والحب بالله أن يحب العبد من يحبه وما أحبه منقطعاً عن نفسه وهواه، والحب من الله هو أن يأخذك من كل شيء فلا تحب إلا إياه.

وعلامة الحب لله دوام ذكره مع الحضور، وعلامة الحب في الله أن تحب من لم يحسن إليك بدنيا من أهل الطاعة والخير، وعلامة الحب بالله أن يكون باعث الحظ بنور الله مقهوراً، وعلامة الحب من الله أن يجذبك إليه فيجعل ما سواه عنك مستوراً.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

من أحب الله وأحب لله فقد تمت ولايته بالحب.

والمحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته: فإذا من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت، ويعلم ذلك من قوله تعالى:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾(١).

فإذا الولي على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه.

وقد أحب الله من لا محبوب له سواه، وأحب له من لا يحب شيئاً لهواه وأحب لقاءه من ذاق أنس مولاه.

ويتحمض لك الحب له في عشرة فاعتبرها فيما وراءها.

في الرسول ﷺ(٢)، والصديق، والفاروق، والصحابة، والتابعين،

---

(١) الجمعة: ٦.

(٢) يقول رسول الله ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» رواه مسلم. =

والأوليـاء والعلماء الهـداة إلى الله تعالى، والشهـداء، والصـالحين، والمؤمنين.

فإذا افترق الأمر بعد الايمان إلى عشرة أشياء: إلى السنة والبدعة، والهـداية والضـلالة، والـطاعة والمعصيـة، والعدل والجـور، والحق والباطل، وميزت وأحببت وأبغضت فأحب له، وأبغض له، ولست تبالي بأيهما كنت، وقد يجتمع لك الوصفان في شخص واحد، ويجب عليك القيام بحقهما جميعاً، فإذا قد بان لك الحب لله في العشرة الأول، فانظر هل ترى للهوى هناك أثراً، فكذلك فاعتبر حب من حضر من إخوانك الصادقين، والمشايخ الصالحين، والعلماء المهتدين، وسائر من حضر ومن لم يحضر ممن غاب عنك أو مات فإن وجدت قلبك لا متعلق له بمن حضر كما لا متعلق له بمن غاب عنك أو مات فقد خلص الحب من الهوى وثبت الحب لله، وإن وجدت شيئاً يتعلق به فيمن تحب أو فيما تحت فارجع إلى العلم واتقن النظر في الأقسام الخمسة من الواجب والمندوب إليه والمكروه والمحظور والمباح.

واعلم أن قول الشيخ: «من ثبتت ولايته لا يكره الموت» هذا ميزان أعطاه للمريدين ليزنوا به نفوسهم إذا ادعى فيهم أو ادعوا ولاية الله فإن من شأن النفوس وجود الدعاوى والتوثب إلى المراتب العاليـة من غير أن يسلك السبيل الموصلة إليها، ولهذا قال سبحانه: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

= ولقد قال سيدنا عمر مرة لرسول الله ﷺ:
والله لأنت يا رسول الله أحب إلي من كل شيء إلا نفسي، فقال: لا، والذي نفسي بيده: حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلى من نفسي، فقال: الآن يا عمر!

(١) النمل: ٦٤.

وقال هنا: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

وقال الرسول ﷺ لحارثة: «لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك»؟ لما قال لحارثة «كيف أصبحت»؟ فقال: أصبحت مؤمناً حقاً، ولا يحب الموت من فيه البقايا، ولا من هو مصر على شيء من الخطايا.

وجعل الله تمني الموت شاهداً للولي بولايته، وعدم تمنيه شاهداً للغوى بغوايته.

وقال سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾[2].

والموت ميزان على الأفعال والأحوال، كما هو ميزان في دائرة الرتب.

أما الرتب فكما تقدم، وأما الأفعال والأحوال فإذا التبس عليك أمر أنت فيه لا تدري: هل رضا الله في تركه أو فعله أو حالة أنت بها لا تدري: هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى، فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال، فكل حالة وعمل يثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهي حق، وكل حالة وعمل هزمها الموت فهي باطل إذ الموت حق والحق يهزم الباطل ويدمغه لقول الله عز وجل:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[3].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[4].

---

(١) الجمعة: ٦.
(٢) الرحمن: ٩.
(٣) الأنبياء: ١٨.
(٤) سبأ: ٤٨.

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1].

وما كنت فيه قائماً بحق لـم يهزمه الموت إذ هو حق، والموت حق والحق لا يهزم الحق.

وقد تجاريت الكلام أنا وبعض من يشتغل بالعلم في أنه ينبغي إخلاص النية فيه، وأنه لا يشتغل بـه إلا لله، فقلت له: الذي يقرأ العلم لله هو الذي إذا قلـت له غداً تموت لم يضع الكتاب من يده.

وربما غر الغافل من طلبة العلم من قال: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله» وليس في قول هذا القائل ما يستروح به من طلب العلم للرئاسة والمنافسة، وإنما أخبر هذا القائل عن أمر من به عليه، وفتنه سلمه الله منها، لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره، وذلك بمثابة من به مرض مزمن في المعى أعياه علاجه وضاق منه خلقه فأخذ خنجراً وضرب به مراق بطنه ليقتل نفسه فصادف ذلك المعى فقطعه فخرج الداء منه، فهذا لا يستصوب العقلاء فعله وإن نجحت عاقبته، وليست سلامة العواقب رافعة للعتب عن الملقين أنفسهم للتهلكة.

(ليس المغر بمحمود وإن سلما).

وقول الشيخ رضي الله عنه: «وقد أحب الله من لا محبوب له سواه» فهو كلام يستدعي معرفة المحبة وما هي؟

اعلم أن المحبة هي من أجل مقامات اليقين، حتى اختلف أهل الله أيهما أتم: مقام المحبة أو مقام الرضا؟

وإن كان الذي نقول به أن مقام الرضا أتم، لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب، وقوي عليه وجود الشغف، فأداه ذلك إلى طلب

---

(١) الإسراء: ٨١.

شهود ما لا يليق بمقامه، ألا ترى أن المحب يريد دوام شهود الحبيب، والراضي عن الله راض عنه أشهده أم حجبه؟ والمحب يحب دوام الوصلة، والراضي عن الله راض عنه وصله أو قطعه إذ ليس هو ما يريد لنفسه، بل إنما هو مع ما يريد الله له، المحب طالب لدوام مراسلة الحبيب والراضي لا طلب له.

ولنا في هذا المعنى:

وكنت قديماً اطلب الوصل منهم فلما أتاني العلم وارتفع الجهل
تيقنت أن العبد لا طلباً له فإن قربوا فضل وإن بعدوا عدل
وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

المحبة آخذة من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه، فترى النفس مائلة لطاعته، والعقل متحصناً بمعرفته، والروح مأخوذة في حضرته، والسر مغموراً في مشاهدته، والعبد يستزيد فيزاد، ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته، فيكسى حلل التقريب على بساط القربة، ويمس أبكار الحقائق وثيبات العلوم، فمن أجل ذلك قالوا:

أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون.

قال له القائل: قد علمت الحب.

فما شراب الحب؟

وما كأس الحب؟

ومن الساقي؟

وما الذوق؟

وما الشراب؟

وما الري؟

وما السكر؟

وما الصحو؟

قال الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب.

والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى القلوب.

والساقي هو المتولي الأكبر للمخصوصين من أوليائه والصالحين من عباده وهو الله العالم بالمقادير ومصالح أحبائه، فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظي منه بشيء نفساً أو نفسين، ثم أرخى عليه الحجاب فهو الذائق المشتاق.

ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقاً.

ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة فذلك هو الري.

وربما غاب عن المحسوس والمعقول، فلا يدري ما يقال، ولا ما يقول: فذاك هو السكر.

وقد تدور عليهم الكؤوس وتختلف لديهم الحالات، فيردون إلى الذكر والطاعات، ولا يحجبون عن الصفات، مع تزاحم المقدورات فذلك وقت صحوهم، واتساع نظرهم، ومزيد علمهم.

فهم بنجوم العلم وقمر التوحيد يهتدون في ليلهم.

وبشموس المعارف يستضيئون في نهارهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١).

---

(١) المجادلة: ٢٢.

قال الشيخ القطب عبد السلام ابن مشيش شيخ الشيخ أبي الحسن رضي الله عنهما:

الزم الطهارة من الشرك، كلما أحدثت تطهرت من دنس حب الدنيا، كلما ملت إلى شهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى أو كدت.

وعليك بمحبة الله على التوفير والنزاهة، وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو، كلما أفقت أو تيقظت شربت، حتى يكون سكرك وصحوك به، وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشراب والكأس بما يبدو لك من نور جماله وقدس كمال جلاله.

ولعلي أحدث من لا يعرف المحبة ولا الشراب ولا الشرب ولا الكأس ولا السكر ولا الصحو.

قال له القائل، أجل، وكم من غريق في شيء لا يعرف بغرقه، فعرفني ونبهني عما أجهل أو لما من به علي وأنا عنه غافل.

قلت لك: نعم المحبة آخذة من الله تعالى قلب من أحب بما يكشف له من نور جماله وقدس كمال جلاله.

وشراب المحبة مزج بالأوصاف والأخلاق بالأخلاق والأنوار بالأنوار والاسماء بالأسماء والنعوت بالنعوت والأفعال بالأفعال ويتسع فيه النظر لمن شاء الله عز وجل.

والشرب سقى القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب حتى يسكر، ويكون الشرب بالتدريب بعد التذويب فيسقى كل على قدره.

فمنهم من يسقى بغير واسطة، والله سبحانه يتولى ذلك منه له.

ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين.

فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئاً، فما ظنك بعد بالذوق، وبعد بالشرب، وبعد بالري، وبعد بالسكر بالمشروب.

ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى كما أن السكر أيضاً كذلك.

والكأس مغرفة الحق يغرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافي لمن شاء من عباده المخصوصين من خلقه، فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة، وتراة يشهدها معنوية، وتارة يشهدها علمية، فالصورة حظ الأبدان والأنفس، والمعنوية حظ القلوب والعقول، والعلمية حظ الأرواح والأسرار.

فيا له من شراب ما أعذبه، فطوبى لمن شرب منه، وداوم عليه، ولم يقطع عنه.

نسأل الله من فضله: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾(١).

وقد يجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة، وقد يسقون من كؤوس كثيرة، وقد يسقى الواحد بكأس وكؤوس، وقد تختلف الأشربة بحسب عدد الكؤوس، وقد يختلف الشرب من كأس واحدة وإن شرب منه الجم الغفير من الأحبة(٢).

---

(١) الجمعة: ٤.

(٢) لقد حلق بنا المؤلف في موضوع المحبة في صورة أسمى ما تكون العواطف والواقع أن المحبة «صراط الأولياء» على حد تعبير الشبلي.
إنها صراطهم الدائم، حين يصلون إليها تلهج بها ألسنتهم، وتمتلىء بها قلوبهم إلى آخر نفس من حياتهم.
=

. . . .

= والناس في العواطف درجات: فمنهم سلطان المحبين، ومنهم سلطان العاشقين.
ومهما جمح بالإنسان أمر الحب، ومهما كان سلطانه فإنه في الأوضاع الشرعية التي التزمها الصوفية له شروط، وله علامات لن يتأتى أن يكون الحب بدونها. يقول الله تعالى في حديث قدسي:
(من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضه عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه).
وفي هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه في قوة إلى صفاء القلب وطهارة النية بالنسبة لأولياءه... وأولياؤهم: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.
ومن عاداهم فإنما يعادي: المؤمن التقي.
ونتيجة هذه العداوة ما يقوله الله تعالى:
﴿آذنته بالحرب﴾.
ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه، وأول خطوة في هذا الطريق:
«أداه ما افترضته عليه».
ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأول: شرط القرب منه سبحانه وهو أداء الفرائض.
والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب، بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله.
لقد ترك قوم العمل وقالوا: نحن نحسن الظن بالله ـ وكذبوا كما يقول رسول الله ﷺ:
«لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»!
لا بد من أداء الفرائض، وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل ومع أداء الفرائض ـ في وجوب القرب الإكثار من النوافل. فإذا أكثر من النوافل أحبه الله:
«وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»!
ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي.
ويربط أسلافنا ـ رضوان الله عليهم ـ ربطاً محكماً بين محبة الله واتباع رسول الله ﷺ. متناسقين في ذلك مع توجيه الله سبحانه:
﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾.
وهذا الربط معناه: الربط بين محبة الله تعالى والعمل.
ومقدمات محبة الله تعالى ـ في توفيقه ـ هي العمل، ومن نتائج محبة الله سبحانه: =

= العمل:
يقول الإمام أبو سعيد الخراز:
وبلغنا عن الحسن البصري رضي الله عنه أن ناساً قالوا ـ على عهد رسول الله ﷺ: «يا رسول الله، إنا نحب ربنا حباً شديداً، فجعل الله تعالى لمحبته علماً وأنزل عز وجل:
﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾.
فمن صدق المحبة اتباع رسول الله ﷺ في هديه وزهده وأخلاقه والتأسي به في الأمور كلها، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها، فإن الله عز وجل جعل محمداً عليه الصلاة والسلام علماً ودليلاً وحجة على أمته، ومن صدق المحبة لله تعالى إيثار محبة الله عز وجل في جميع الأمور على نفسك وهواك، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك.
ويقول:
فعلامة المحب الموافقة للمحبوب، والتجاري مع طرقاته في كل الأمور والتقرب إليه بكل حيلة، والهرب من كل ما لا يعينه على مذهبه.
أما عن صلة المحبة بالإيمان فإن الإمام الغزالي يقول:
وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو زين العقيلي: يا رسول الله، ما الإيمان؟
قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».
وفي حديث آخر:
«لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين».
وفي رواية: «ومن نفسه».
كيف وقد قال الله تعالى:
﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها. ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله. وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، والله لا يهدي القوم الفاسقين).
وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار... ا هـ.
ومن أجمل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله يحيى بن معاذ: إلٰهي إني مقيم بفنائك، مشغول بثنائك، صغيراً أخذتني إليك، وسربلتني بمعرفتك، وأمكنتني من لطفك، ونقلتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال: ستراً وتوبة، وزهداً وشوقاً، ورضاً وحباً، تسقيني من حياضك، وتمهلني في رياضك، ملازماً لأمرك، ومشغوفاً =

= بقولك... ولما طار شاربي، ولاح طائري، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً، وقد اعتدت هذا منك صغيراً، فلي ما بقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة، لأني محب، وكل محب بحبيبه شغوف، وعن غير حبيبه مصروف.

وبعد:

فإن ثمرة محبة الله تعالى هي ما قاله سبحانه عن أوليائه:

﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾.

وهي أيضاً أن يجد حلاوة الإيمان، يقول رسول الله ﷺ:

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان:

١ ـ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٢ ـ وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

٣ ـ وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يلقى في النار.

ولقد سمع النـاس كثيراً عن عاطفة الحب الإلٓهي عند السيدة رابعة العدوية رضي الله عنها، وسمعوا عن حب الإمام ابن الفارض، والإمام البرعي. ونحب أن نضع بجوار هؤلاء شخصية نعتبرها نموذجاً للصوفية في صلتهم بالله سبحانه: إنها شخصية الإمام الشبلي!

وإذا كان الجم الغفير من الشعب الإسلامي قد أخذ فكرة عن الحب عند بعض الصوفية، فإنه لم تتح له الفرصة لأخذ فكرة مستفيضة عن الحب عند الشبلي ولكن المؤرخين لحياة أبي بكر الشبلي يتحدثون عن حبه العميق وهيامه المستمر. ومنهم مثلاً صاحب الحلية الذي يقول عنه:

ومنهم المجتذب الولهان، والمستلب السكران، الوارد العطشان: اجتذب عن الكدور والأغيار، واستلب إلى الحضور والأنوار، وسقي بالدنان، وارتهن ممتلىء ريان: أبو بكر الشهير بالشبلي.

وسيرى القارىء أن أسباب المحبة عنده، وأن ثمارها، وأن تصريفها وكل ما يحيط بها منغمس في جو من الاتباع لرسول الله ﷺ، وشعار من التزام الشريعة الغراء. وهكذا يتخذ الصوفية الشريعة والاقتداء برسول الله ﷺ أساساً لكل تصرفاتهم.

أما عن أسباب المحبة: فإنها فيما يرى الشبلي نتيجة «الهمة»!

والهمة عند الصوفية هي التشمير والجد في العبادة.

ويقول الشبلي:

= «ان من ملت همته ضعفت محبته».

انعطاف:

ثم اعلم فتح الله بصيرتك لشهود أنواره، ووالى عليك ورود معارفه وأسراره، إن من أجل مواهب الله لأوليائه وجود العبارة.

= فمع الهمة إذن صعوداً وهبوطاً تكون المحبة صعوداً وهبوطاً.

ولقد جلس عنده جمع من المريدين فوجدهم غفلة لا يذكرون، فقال في حزن.

كفى حزناً بالواله الصب أن يرى ... منازل من يهوى معطلة فقرا

وسئل مرة عن أعجب شيء فقال:

«من عرف الله ثم عصاه!»

ولا يسر المحب شيء أكثر من موافقة من يحب.

قال أبو القاسم عبد الله بن علي البصري: قال رجل للشبلي:

إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟ قال:

«إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته» وأنشد:

أسر بمهلكي فيه لأني ... أسر بما يسر الإلف جداً
ولو سئلت عظامي عن بلاها ... لأنكرت البلى وسمعت جحدا
ولو أخرجت من سقمي لنادي ... لهيب الشوق بي يسأله رداً

ولا بد للمحب من الأدب الكامل في القول فضلاً عن السلوك ويقول الشبلي:

«الانبساط مع الحق بالقول ترك أدب».

والمحبة رق للمحبوب، وإذا سألت عن الفرق بين رق العبودية ورق المحبة فإن أحمد بن محمد بن عمران قال:

سمعت الشبلي - وسئل - فقيل: ما الفرق بين رق العبودية وزق المحبة؟ فقال: كم بين عبد إذا أعتق صار حراً، وعبد كلما أعتق ازداد رقاً.

ثم أنشأ يقول:

لتحشرن عظامى بغد إذ بليت ... يؤم الحساب وفيها حبكم غلق

وقد يسأل إنسان عن تعريف المحبة عند الشبلي: ما هي؟

والجواب: إنه يقول:

«المحبة اتباع أوامر المحبوب، وتجنب نواهيه، ومع ذلك فيجب الصدق والإخلاص، وكتمان الحال مع بذل الجهد في المجاهدة، ثم بعد ذلك لا توصل للمحبوب إلا بفضله (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا).

سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: يكون الولي مشحوناً بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهودة حتى إذا أعطى العبارة كان كالإذن له من الله في الكلام، ويجب أن تفهم أن من أذن له في التعبير بهيت[1] في مسامع الخلق عبارته، وحليت لديهم إشارته.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذي لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار، حتى أن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر.

ثم اعلم أن مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاعتناء بشهوده، قال الله سبحانه:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[5]؟ فمبنى أمرهم في بداياتهم على الفرار من الخلق والانفرادا بالملك الحق وإخفاء الأعمال وكتم الأحوال، تحقيقاً لفنائهم، وتثبيتاً لزهدهم، وعملاً على سلامة قلوبهم، وحباً في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكن

---

(١) بهيت: أي حسنت وراقت.
(٢) الطلاق: ٣.
(٣) الزمر: ٣٦.
(٤) العلق: ١٤.
(٥) فصلت: ٥٣.

اليقين، وأيدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفناء، وردوا إلى وجود البقاء، فهنالك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم، وإن شاء أظهرهم هدين لعباده إليه وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شيء إليه، وظهور الولي ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة الله له، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء لا الجلاء كما قدمناه، فلما لم يكن الظهور مطلبهم، وأراد الله سبحانه إظهارهم فأظهرهم، تولاهم في ذلك بتأييده وواردات مزيدة لقوله ﷺ: يا عبد الرحمن بن سمرة لا تطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها من مسألة وكلت(١) إليها.

ومن تحقق منهم بالعبودية لله لم يطلب ظهوراً ولا خفاء، بل إرادته وقف على اختيار سيده له.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبداً لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه.

ولنختم هذه المقدمة بذكر كرامات أولياء الله جوازاً ووقوعاً وأقسام ذلك على سبيل الاختصار، وكون هذا قد سبق إلى الكلام عليه بالإيعاب غيرنا قد أقام لنا الاعتذار، لكنا ننبه على نكت(٢) مفيدة لأولى الألباب، ويكشف عن وجه حسنها ما أسدل عليه من نقاب، ليكون ذلك مهيئاً لك لقبول ما نورده عن هذه الطائفة من الكرامات، وما نسنده إليهم من بواهر الآيات إن شاء الله تعالى.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) أي مسائل.

فصل في الكلام على الكرامات

اعلم أن الكلام في الكرامات ينحصر في طرفين:

الطرف الأول: الجواز.

الثاني: الوقوع.

أما الجواز فلا خفاء أن ظهور الكرامة من الأولياء من الممكنات، لأنه لو لم يكن من الممكنات، فأما أن يكون من الواجبات، وأما أن يكون من المستحيلات، وباطل أن يكون من المستحيلات فإن المستحيل هو الذي لو قدر وجوده لزم منه محال عقلي، ولا يلزم من تقدير وجود الكرامات محال عقلي، وباطل أن يكون جريان الكرامات على الأولياء وجوباً إذ الطائفة مجمعة على أنه قد يكون الولي ولياً وإن لم تخرق العادة له.

فتعين أن يكون من الجائزات، وكل شيء كان من الجائزات لا يحيله العقل، وكل ما لا يحيله العقل ولم يرد بعدم وقوعه نقل فجائز أن يكرم الله به أولياءه.

ثم إن هذه الكرامات قد تكون طياً للأرض، ومشياً على الماء، وطيراناً في الهواء، واطلاعاً على كوائن كانت وكوائن بعد لم تكن من غير طريق العادة وتكثيراً لطعام أو شراب، أو إتياناً بثمرة في غير إبانها، أو انباع ماء من غير حفر، أو تسخير حيوانات عادية، أو إجابة دعوة بإتيان مطر في غير وقته، أو صبراً عن الغذاء مدة تخرج عن طور العادة أو إثماراً لشجرة يابسة ما ليس عادتها أن تكون مثمرة له، وهذه كلها كرامات ظاهرة حسية.

وكرامات هي عند أهل الله أفضل منها وأجل وهي الكرامة

المعنوية: كالمعرفة بالله، والخشية له، ودوام المراقبة له، والمسارعة لامتثال أمره ونهيه، والرسوخ في اليقين والقوة والتمكين، ودوام المتابعة والاستماع من الله، والفهم عنه، ودوام الثقة به، وصدق التوكل عليه، إلى غير ذلك.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول:

الطي على قسمين: طي أصغر وطي أكبر.

فالطي الأصغر لعامة هذه الطائفة أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها في نفس واحد.

والطي الأكبر طي أوصاف النفوس.

وصدق رضي الله عنه فإن طي الأرض لو أعجزك الله عنه وأفقدك إياه ما نقص ذلك من رتبتك عنده إذا قمت له بالوفاء في العبودية، وطي أوصاف النفوس لو لم تقدم عليه به لكنت من المعتوبين وحشرت في زمرة الغافلين.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفتر كذاب وذو خطأ في العلم والعمل بالصواب، كمن يكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا، وكل كرامة لا يصحبها الرضا من الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مثبور.

واعلم أن اطلاع أولياء الله على بعض الغيوب لا يحيله العقل وقد ورد به النقل.

قال أبو بكر لعائشة رضي الله عنهما في مرض موته وزوجته حامل: إنما هما أخواك وأختاك وبطن خارجة أراها جارية فأخبر بأن في بطن امراته جارية وكان كما قال رضي الله عنه.

وقول عمر رضي الله عنه: يا سارية الجبل، وساريـة بأقصى العراق، فسمع سارية صوته وكان قد أطلعه الله على سارية وقد أحاط به العدو فأمره بالانحياز إلى الجبل فانحاز هو والجيش الذي كان معه فانتصروا وظفروا وكان قد قال ذلك وهو في أثناء خطبته على المنبر فترك الخطبة، وقال يا سارية الجبل، وعاد إلى خطبته، فجاء بعض الصحابة إلى علي رضي الله عنه فقالوا له: بينما عمر اليوم يخطب إذ ترك خطبته وقال: يا سارية الجبل، ثم عاد إلى خطبته، فقال علي: ويحكم دعوا عمر فإنه ما دخل في شيء إلا كان له المخرج منه، فبعد ذلك قدم سارية وأخبر عن ذلك اليوم أنه سمع نداء عمر في الوقت الذي نادى فيه عمر(1).

---

(1) يقول ابن خلدون في هذا المقام:
وأما المتصوفة فرياضهم دينية وعربة عن المقاصد المذمومة، وإنما يقصدون جمع الهمة، والإقبال على الله بالكلية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد، ويزيدون في رياضتهم إلى الجمع، والجوع: التغذية بالذكر، منها تتم وجهتهم في هذه الرياضة، لأنه إذا نشأت النفس على الذكريات كانت أقرب إلى العرفان بالله، وإذا عربت عن الذكر كانت شيطانية، وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة إنما هو بالعرض، ولا يكون مقصوداً من أول الأمر، لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله، وإنما هي لقصد التصرف والاطلاع على الغيب، وأخسر بها صفقة، فإنها في الحقيقة شرك، قال بعضهم:
«من آثر العرفان فقد قال بالثاني» (أي فقد قال بأن الله له ثان ـ أي أشرك بالله) فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا شيء سواه، وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم.
وكثير منهم يفر منه إذا عرض له ولا يحفل به، وإنما يريد الله لذاته لا لغيره، وحصول ذلك لهم معروف، ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة ـ

وقول عثمان رضي الله عنه لداخل دخل عليه وكان قد نظر إلى محاسن امرأة في الطريق: يدخل أحدكم وآثار الزنا بادية في وجهه.

وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذا الباب العجب العجاب حتى أنه ذكر الإخباريون عنه أنه أرجف بالكوفة أن معاوية قد مات فقال رضي الله عنه إذ بلغه ذلك: والله ما مات ولن يموت حتى يملك ما تحت قدمي هاتين، وإنما أراد ابن هند أن يشيع ذلك حتى

= وكشفاً. وما يقع لهم من التصرف كرامة، وليس شيء من ذلك بنكير في حقهم، وقد ذهب إلى إنكاره الأستاذ أبو إسحق الأسفراييني. وأبو محمد بن أبي زيد المالكي ـ فراراً من التباس المعجزة بغيرها، والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدي فهو كاف.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال:

«إن فيكم محدثين، وإن منهم عمر» (أي فيكم من يخبر بالأمر كأنه حدث به).

وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضي الله عنه: يا سارية الجبل ـ وهو سارية بن زنيم، كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات، وتورط مع المشركين في معترك، وهم بالانهزام، وكان بقربه جبل يتجهز إليه، فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه:

«يا سارية الجبل» وسمعه سارية وهو بمكانه، ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة.

ووقع مثله أيضاً لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنهما في شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديقته، ثم نبهها على جذاذة لتحوزه عن الورثة، فقال في سياق كلامه... «وإنما هما أخواك وأختاك» فقالت: (إنما هي أسماء، فمن الأخرى)؟ فقال: (إن ذا بطن بنت خارجة أراها جارية) فكانت جارية، وقع في الموطأ في باب: «ما لا يجوز من النحل».

ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم، ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء إلا أن أهل التصوف يقولون: إنه يقل في زمن النبوة، إذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي حتى أنهم يقولون:

إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله مادام فيها حتى يفارقها.

والله يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق.. اهـ مقدمة ابن خلدون ١ ـ ٥٣٢ ـ ٥٣٥ مع تصرف يسير.

يستثير علمي فيه، فمن يومئذ كاتب اهل الكوفة معاوية، واعلموا أن الأمر صائر إليه.

وحكايات الأولياء في كل عصر ومصر تتضمن ثبوت ذلك بما بلغ حد التواتر فلا يمكن جحده.

ثم أنا أدلك ـ رحمك الله ـ على أمر يسهل عليك التصديق بذلك، وهو أن اطلاع العبد المخصوص على غيب من غيوب الله ليس بجثمانيته ولا وجود صورته، وإنما هو بنور الحق فيه، دليل ذلك قوله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»(١).

فكيف يستغرب أن يطلع مؤمن على غيب من غيوب الله بعد أن شهد له الرسول ﷺ أنه إنما ينظر بنور ربه لا بوجود نفسه؟

وكذلك قوله في الحديث الذي تقدم.

فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ـ الحديث إلى آخره.

ومن كان الحق بصره فليس الاطلاع على الغيب بمستغرب فيه.

وفي بعض طرق هذا الحديث فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً وقلباً وعقلاً ويداً ومؤيدَاً.

فإن قلت: كيف تصنع بهذه الآية، وهو قوله سبحانه: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(٢).

---

(١) رواه البخاري في التاريخ والترمذي عن أبي سعيد، والحكيم الترمذي، والطبراني وابن عدي عن أبي أمامة، وابن جرير عن ابن عمر. والفراسة بكسر الفاء دقة النظر،ووقور العلم بنور البصيرة.

(٢) الجن: ٢٦، ٢٧.

فلم يستثنى أحداً إلا الرسول؟

فاعلم أني سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: وفي معناه أو صديق أو ولي (١).

فإن قلت هذه زيادة على ما تضمنه الكتاب العزيز.

فاعلم أنه إذا قيل أن السلطان لم يأذن اليوم إلا للوزير وحده ربما دخل مماليك الوزير معه، وكان الإذن لمتبوعهم إذناً لهم، كذلك الولي إذا أطلعه الله على غيب من غيوبه فإنما ذلك لانطوائه في جاه النبوة، وقيامه بصدق المتابعة، فما رأي ذلك بنفسه وإنما رآه بنور متبوعه.

وأيضاً أن الآية تشير إلى نفي اطلاع العباد على غيب الله إلا من أطلعه الله.

وبين سبحانه سبب إطلاعه من أطلعه على غيب من غيوبه وأن ذلك إنما كان لأنه مرتضى عنده بقوله إلا من ارتضى.

وقوله من رسول خص الرسول بالذكر ولم يذكر النبي ولا الصديق ولا الولي وإن كان كل منهم ممن ارتضى، لأن الرسول أولى بذلك ممن سواه.

أمور تسهل عليك الإيمان بكرامات أولياء الله وأن لا تستكثرها عليهم:

---

(١) في تفسير الألوسي لهذه الآيات. . (ظاهر الآية أنه تعالى عالم كل غيب وحده لا يظهر على غيبه المختص به، وهو ما يتعلق بذاته تعالى وصفاته عز وجل بدلالة الإضافة: إلا رسولاً، وهو كذلك، فإن غيبه تعالى لا يطلع عليه إلا بالإعلام من رسول ملكي أو بشرى، ولا كل غيبة تعالى الخاص مطلع عليه، بل بعضه وأقل القليل منه، فدل المفهوم على أن غير هذا النوع الخاص من الغيب لا منع من اطلاع الله تعالى غير الرسول عليه، فهذا ظاهر الآية دون تعسف. . الخ.

الأول: أن تعلم أن قدرة الله التي لا يكبـر عليها شيء هي التي أظهرت الكرامة في هذا الولي فلا تنظر إلى ضعف العبد ولكن انظر إلى قدرة السيد، فجحد الكرامة للولي جحد القدير، وعمى منعك من شهود عظمة وصفه سبحانه وتعالى.

الثاني: أنه ربما كان سبب إنكار الكرامة استكثارها على ذلك العبد الذي أضيفت إليه، وذلك العبد إنما أظهرت الكرامة عليه شهادة بصدق طريق متبوعة: فهى بالنسبة إلى من ظهرت عليه وهو ذلك الولي كرامة، وهي بالنسبة إلى من ظهرت ببركات متابعته معجزة، فلذلك قالوا:

كل كرامة لولي فهي معجزة لذلك النبي الذي هذا الولي متبع له، فلا تنظر إلى التابع ولكن انظر إلى عظيم قدر المتبوع.

الثالث: أن تعلم أن الذي أعطاه الله سبحانه لأوليائه من الإيمان واليقين مما أنت مصدق به ومثبت له أعظم مما استغربته وأنكرته، من اطلاع على غيب أو طيران في الهواء، أو مشى على الماء، فمثلك إذا استغربت ذلك على المؤمن كمثل من يستغرب على عبد من خواص الملك أعطاه الملك سفطاً[1] مملوءاً ياقوتاً ثميناً علمت أنت به، كل ياقوتة تضمنها ذلك السفط تساوي عشرة آلاف دينار، ثم قال ذلك العبد الذي هو من خواص الملك أو قيل عنه: إن الملك قد أعطاه مائة دينار، فاستغربت أنت ذلك فهل يستصوب استغرابك هذا ذو فهم ولب؟ وما أكرم الله تعالى العباد في الدنيا والآخرة كرامة بمثل كرامة الإيمان به والمعرفة بربوبيته، لأن كل خير من خيور الدنيا والآخرة إنما هو فرع الإيمان بالله من أحوال ومقامات، وأوراد وواردات، وكل نور وعلم وفتح،

(١) سفطا: وعاء يعبى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء مفتوح الأول والوسط..

ونفوذ إلى غيب، وسماع مخاطبة، وجريان كرامة، وما تضمنته الجنة من حور وقصور وأنهار وثمار، وكان به أهلها فيها من رضى عن الله، ورضى من الله، ورؤية لله، فكل ذلك إنما هو من نتائج الإيمان ووجود آثاره وأمداد أنواره.

جعلنا الله وإياك من المؤمنين بربوبيته الإيمان الذي رضيه لخاصة عباده، وبسطنا وإياك بالتسليم له في مراده.

واعلم أن من الناس من واجهه الخذلان من الله فأنكر كرامات أولياء الله أصلاً، فنعوذ بالله من هذا المذهب، وهو حقيق بأن لا يذكر، لكن سبب ذكره أن تعلم أن الله إذا أراد أن يضل عبداً لم ينصره عقل ولم ينفعه[1] علم.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾[4].

لذلك كانت الأحوال والأقوال، والأفعال ومراتب الإنزال موقوفة على توفيقه، لا توجب أنواراً، ولا تستحق قبولاً، ولا يستوجب صاحبها إقبالاً حتى ينصره التوفيق، ولعزازة قدره عند الله لم يذكره في كتابه

---

(١) وفي ذلك يقول الشاعر:
إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجنى عليه اجتهاده
(٢) المائدة: ٤١.
(٣) البقرة: ٢٠٩.
(٤) المؤمنون: ٨٨.

العزيز إلا في موضع واحد، فقال سبحانه: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[1]، والجالب للتوفيق وعلامته صدق الرجعى إلى الله في أول كل فعل وترك بتحقيق الفقر والفاقة إليه، والانغماس في بحر الذلة والمسكنة بين يديه. واستصحاب ذلك إلى الفراغ ومن بعد ذلك أبداً، وقد قال سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[2].

وقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾[3].

فلا تدخل جنة علمك وعملك وما أعطيت من نور وفتح، فتقول كما قال من خذل فأخبر الله عنه:

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾[4] الآية. ولكن ادخلها كما بين لك وقل كما رضي لك.

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾[5].

وافهم ههنا قوله عليه السلام: «لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة» وفي رواية كنز من كنوز تحت[6] العرش.

فالترجمة[7] ظاهر الكنز والمكنوز فيها هو صدق التبري من الحلول

---

(١) هود: ٨٨.
(٢) آل عمران: ١٢٣.
(٣) التوبة: ٦٠.
(٤) الكهف: ٣٥.
(٥) الكهف: ٣٩.
(٦) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، ولفظه فيما روى الشيخان عن أبي موسى قال قال لي رسول الله ﷺ: ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ فقلت بلى يا رسول الله، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.
(٧) أي اللفظ والكلام المنطوق به.

والقوة، والرجوع إلى حول الله وقوته.

ومن أنكر كرامات أولياء الله فالدلائل النقلية والعقلية ترد عليه ويخشى على من هذا مذهبه سوء الخاتمة.

ومن الناس فرقة أخرى صدقوا بكرامات الأولياء الذين ليسوا في زمنهم كمعروف وسرى والجنيد وأشباههم وكذبوا بكرامات أولياء زمانهم فهم كما قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه ما هي إلا إسرائيلية صدقوا بموسى وعيسى عليهما السلام وكذبوا بمحمد ﷺ لأنهم أدركوا زمانه.

وفرقة أخرى يصدقون بأن في مملكة الله أولياءهم كرات من غير أن يسلموا ذلك لأحد من أهل زمانهم معيناً، فكل من ذكر لهم أنه ولي أو نسبت إليه كرامة دافعوا إثبات ذلك بمقاييس اقتضتها عقولهم المعقولة بعقال الغفلة المخدوعة بمتابعة الهوى فلن يجري عليهم هذا التصديق وجود الاقتداء ولا إشراق نور الاهتداء، إذ الاقتداء لا يكون بولي مجهول العين في كون الله، بل الاقتداء إنما يكون بولي دلك الله عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته في وجود خصوصيته، وألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونات نفسك وكمائنها ودفائنها، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار عما سوى الله، ويساير في طريقك حتى تصل إلى الله، ويوفقك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك، فيفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب منها وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه، والقيام بالشكر إليه والدوام على ممر الساعات بين يديه[1].

---

(١) يجب على المريد أن يتأدب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً، يقول أبو يزيد البسطامي: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان.

وقال أبو علي الدقاق: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق لكن لا

فإن قلت: فأين من هذا وصفه؟ لقد دللتني على أغرب من عنقاء مغرب.

فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالين، وإنما قد يعوزك وجود الصدق في طلبهم، جد صدقاً تجد مرشداً، وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله: قال الله سبحانه:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ؟ ﴾(١)

وقال سبحانه: ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾(٢).

فلو اضطررت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمآن للماء، والخائف للأمن، لوجدت ذلك أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطررت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريباً ولك مجيباً، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك، ولتوجه الحق بتبيين ذلك إليك، فهذا الكلام في طريق الجواز والوقوع جميعاً.

وذكر أعيان الكرامات التى اتفقت للسلف رضي الله عنهم لا

تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقه نفساً فنفساً، فهو عابد هواه لا يجد نفاذاً.

ويشترط الرازي في الشيخ أن يكون مخلصاً صادقاً قد انتهج الصراط المستقيم وأن يكون سالكاً: أما السالك فلأن الوصول تارة بالجذبة: وقال تعالى: «الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب»، وأخرى بالسلوك.

والأول لا يصح أن يقتدى به لأنه مثل من وجد كنزاً فصار غنياً، فإنه وإن كان ذا مال لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال. فلا ينفع به التلميذ الطالب لتعلم كيفية الاكتساب، وأما الثاني فهو الذي يصلح لتربية المريد لأن من سلك الطريق، وعرف مراحلها ومنازلها، واطلع على متالفها ومعاطبها مكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل، والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل.

(١) النمل: ٦٢.

(٢) محمد: ٢١.

يستطاع حصرها، وقد أشبع القول فيها الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته وأفرد له باباً.

واعلم أن الكرامة تارة تظهر للولي في نفسه.

وتارة تظهر فيه لغيره.

فإن ظهرت للولي في نفسه فالمراد تعريفه بقدرة الله وفرديته وأحديته، وأن قدرته لا تتوقف على الأسباب، وأن العوائد هو حاكم عليها ليست هي حاكمة عليه.

وإنما جعل العوائد والوسائط والأسباب حجب قدرته، وسحب شمس أحديته: فواقف عندها مخذول، ونافذ منها إليه هو بالعناية موصول.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية، بجمع لا يفترق، وأمر لا يتعدد كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد.

أيستوي من تعرف الله إليه بنوره بمن تعرف إلى الله بعقله.

ولأجل أنها تثبيت لمن أظهرت له ربما وجدها أهل البدايات في بداياتهم وفقدها أرباب النهايات في نهاياتهم، إذ ما عليه أهل النهاية من الرسوخ في اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى مثبت، وهكذا كان السلف رضي الله عنهم لم يحوجهم الحق سبحانه إلى وجود الكرامات الحسية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإشهادية، ولا يحتاج جبل إلى مرساة، فالكرامة دافعة لزلزلة الشك في المنة،

ومعرفة بفضل الله فيمن أظهرت عليه، وشاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه.

والناس في الكرامات على ثلاثة أقسام:

قوم يجعلونها غاية الأمر فإن وجدوها عظموا من أظهرت عليه، وإن فقدوها لم يتوجهوا بالتعظيم إليه.

وقسم قالوا: وما هي الكرامات؟ إنما هي خدع يخدع بها أهل الإرادة ليقفوا حدودهم، وحتى يلجوا مقاماً ليس هو لهم، حتى قال أبو تراب النخشبي لأبي عباس الرقي: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يكرم الله بها عباده؟ فقال: ما رأيت أحداً إلا وهو يؤمن بها فقد كفر، إنما سألتك من طريق الأحوال.

فقلت ما أعرف لهم قولاً.

فقال بلى قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع في حالة السكون إليها. فأما من لم يقترح ذلك ولم يساكنها فتلك مرتبة الربانيين.

وكان هذا من أبى تراب بعد أن عطش أصحابه فضرب بيده الأرض فنبع الماء.

فقال فتى هنالك: أريد أن أشربه في قدح.

فضرب بيده الأرض فناوله قدحاً من زجاج أبيض فشرب وسقانا.

قال أبو العباس الرقي: وما زال القدح معنا إلى مكة.

والقول الفصل في ذلك أنه لا ينبغي أن تطلب أدباً مع الله، ومن أظهرت عليه عظم لأنها شاهدة له بالاستقامة مع الله.

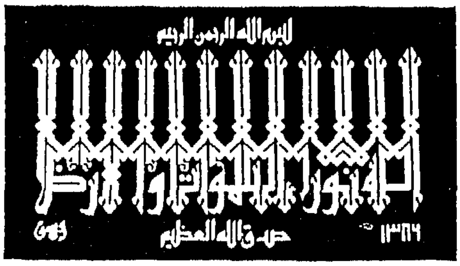
القسم الثاني: وهو أن تظهر الكرامة في الولي لغيره، فالمراد بذلك تعريف ذلك العبد الذي شهدها بصحة طريق هذا الولي الذي أظهرت عليه الكرامة: إما أن يكون جاحداً فيرجع إلى الاعتراف، أو كافراً فيعود إلى الإيمان، أو شاكاً في خصوصية ذلك العبد فأظهرت عليه ليعرفك الله بما فيه من ودائع الإحسان.

وقد انبسط الكلام في هذه المقدمة، وما كان لنا باختيار، ولكن قد تضمنت علوماً وأسراراً، وأطلعت على من له نصيب من المنة مشرقات أنوار.

وهذا أوان ابتدائنا بما قصدنا، وإظهارنا ما إليه صمدنا[1]، والله هو القائم بالبيان، وهو ولي الفضل والإحسان، له الحمد كما يجب لجلاله، والشكر لتوالي نعمه وأفضاله، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وأما الكتاب فهو ينقسم كما تقدم إلى عشرة أبواب:

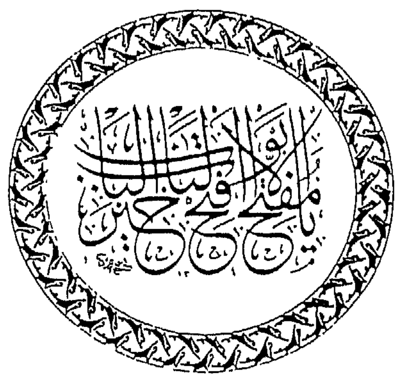
(١) صمدنا: قصدنا.


بسم الله الرحمن الرحيم
الله نور السموات والأرض
صدق الله العظيم
١٣٦٦ هـ

الباب الثاني

قطب الزمان الشاذلي

في التعريف بشيخه الذي أخذ عنه هذا الشأن،
وشهادة من عاصره من أهل زمنه
من العلماء الأعيان،
أنه قطب الزمان والحامل
في وقته لواء
أهل العيان


يا مفتح الأبواب افتح لنا خير الباب

وهو الشيخ الإمام حجة الصوفية علم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، والمنفرد في زمانه بالمعارف السنية والمفاخر، العالم بالله، والدال على الله، زمزم الأسرار، ومعدن الأنوار، والقطب الغوث الجامع: تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

عرف بالشاذلي.

منشأه بالمغرب الأقصى.

ومبدأ ظهوره بشاذلة: بلدة على القرب من تونس، وإليها نسب.

له السياحات الكثيرة، والمنازلات الجليلة، والعلوم الغزيرة، لم يدخل في طريق الله حتى كان يعد للمناظرة في العلوم الظاهرة، ذا علوم جمة.

ذكره الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور رضي الله عنه في كتابه،

وأثنى عليه الثناء الكبير.

وذكره الشيخ قطب الدين القسطلاني رضي الله عنه في جملة من لقيه من المشايخ، وأثنى عليه.

وذكره الشيخ أبو عبد الله بن النعمان رضي الله عنه، وشهد له بالقطبانية.

وذكره الشيخ عبد الغفار بن نوح رضي الله عنه في كتابه الوصيد، وأثنى عليه.

لم يختلف في قطبانيته ذو قلب مستنير، ولا عارف بصير، جاء في هذه الطريق بالعجب العجاب، وشرع من علم الحقيقة الأطناب[1]، ووسع للسالكين الرحاب، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتي الإسلام تقي الدين محمد بن علي القشيري رحمه الله يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه.

وأخبرني الشيخ العارف مكين الدين الأسمر رضي الله عنه قال:

حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشيخ الإمام مفتي الأنام عز الدين بن عبد السلام، والشيخ مجد الدين بن تقي الدين علي بن وهب القشيري المدرس، والشيخ محيي الدين بن سراقة، والشيخ مجد الدين الأخميمي، والشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنهم: ورسالة القشيري تقرأ عليهم، وهم يتكلمون، والشيخ أبو الحسن صامت، إلى أن فرغ كلامهم، فقالوا:

يا سيدي نريد أن نسمع منك.

---

(١) الأطناب: جمع طنب وطنب هو حبل الخباء والسرادق ونحوهما، وما يشد به البيت من الحبال بين الأرض والطرائق.

فقال: أنتم سادات الوقت وكبراؤه، وقد تكلمتم.

فقالوا لا بد أن نسمع منك.

قال فسكت الشيخ ساعة، ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة.

فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال: اسمعوا هذا الكلام الغريب العهد من الله(١).

وأخبرني الشيخ أبو عبد الله بن الحاج قال أخبرني الشيخ أبو زكريا يحيى البلنسي قال: صحبت الشيخ أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه ثم سافرت إلى الأندلس، فقال لي الشيخ أبو الحسن عند وداعي إياه: إذا وصلت إلى الأندلس فاجتمع بالشيخ أبي العباس بن مكنون فإن أبا العباس بن مكنون اطلع على الوجود، وعرف حيث هو، ولم يطلع الناس على أبي العباس فيعلمون حيث هو، قال: فلما جئت إلى الأندلس جئت إلى الشيخ أبي العباس بن مكنون فحين وقع بصره علي قال لي ولم يعرفني قبل: جئت يا يحيى، الحمد لله على اجتماعك بقطب الزمان يا يحيى الذي أخبرك به الشيخ أبو الحسن لا تخبر به أحداً.

أخبرني رشيد الدين بن الرايس قال تخاصمت أنا وبعض أصحاب المشايخ فأتيت إلى الشيخ أبي الحسن فذكرت مقاولتنا له فقال الشيخ: كنت تقول له: أنا رباني القطب ومن رباه القطب ربته أربعون بدلا(٢).

---

(١) أي أنه ليس علم كتب ولا دراسة، وإنما هو إلهامات وتجليات من الحق سبحانه في جانب المعرفة، والله سبحانه وتعالى قول عن عبد من عباده: ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾.

(٢) ورد في السنة المطهرة أحاديث صحيحة وحسنة عن الابدال نذكر منها قوله ﷺ.
«الأبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلًا، قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن كلما =

وأخبرني والدي رحمه الله قال دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه فسمعته يقول: والله لقد تسألوني عن المسألة لا يكون عندي لها جواب فأرى الجواب مسطراً في الدواة والحصير والحائط.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي يوماً:

والله إنه لينزل علي المدد فأرى سريانه في الحوت في الماء، والطائر في الهواء، وكان الشيخ أمين الدين جبريل حاضراً فقال للشيخ أبي الحسن: فأنت إذا القطب، فأنت إذا القطب، فقال الشيخ أبو الحسن: أنا عبد الله، أنا عبد الله.

وأخبرني بعض أصحابنا قال قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: والله ما ولي الله ولياً إلا وضع حبه في قلبي قبل أن يوليه، ولا رفض عبداً إلا وألقى بغضه في قلبي قبل أن يرفضه.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: لما رجع الشيخ أبو الحسن من الحج أتى إلى الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام قبل أن يأتي منزله فقال له: الرسول ﷺ يسلم عليك، قال: فاستصغر الشيخ عز الدين نفسه أن يكون أهلاً لذلك، قال: فدعا الشيخ عز الدين إلى خانقات الصوفية بالقاهرة وحضر معه محي الدين ابن سراقة وأبو العلم ياسين أحد أصحاب الشيخ العارف بالله محيي الدين ابن عربي، فقال محيي الدين

= مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً» رواه الإمام أحمد «الأبدال في أمتي ثلاثون، بهم تقوم الأرض، وبهم تمطرون، وبهم تنصرون» رواه الإمام أحمد.

«الأبدال في أهل الشام، وبهم ينصرون، وبهم يرزقون» رواه الطبراني عن عوف بن مالك. ورمز له السيوطي بالحسن.

ابن سراقة للشيخ عز الدين: ليهنكم ما سمعنا يا سيدي، والله إن هذا الشيء يفرح به أن يكون في هذا الزمان من يسلم عليه رسول الله ﷺ، فقال الشيخ عز الدين؛ الله يسترنا، فقال الشيخ أبو العلم ياسين: اللهم افضحنا حتى يتبين المحق من المبطل ثم أشاروا للقوال أن يقول وهو من البعد بحيث لا يسمع ما دار بينهم فكان أول ما قال:

صدق المحدث والحديث كما جرى وحديث أهل الحق ما لا يفترى

فقام الشيخ عز الدين وطاب وقته وقام الجميع لقيامه.

وأخبرني الفقيه مكين الدين الأسمر رضي الله عنه قال: سمعت مخاطبة الحق فقلت له: يا سيدي كيف كان ذلك؟ فقال: كان في الإسكندرية بعض الصالحين صحب الشيخ أبا الحسن ثم كثر عليه ما سمعه من العلوم الجليلة والمخرقات فلم يسع ذلك عقله، فانقطع عن الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه، فإذا ليلة من الليالي وأنا أسمع أن فلاناً دعانا في هذا الوقت بست دعوات فإن أراد أن يستجاب له فليقل الشيخ أبا الحسن الشاذلي دعانا بكذا حتى عينت لي الست دعوات، قال: ثم انفصل الخطاب عني فنظرت إلى المتوسط في ذلك الوقت فعرفت الوقت الذي كان ذلك الرجل دعا فيه، ثم أصبحت فذهبت إلى ذلك الرجل فقلت له دعـوت الله البارحة بست دعوات: دعوته بكذا، دعوته بكذا، إلى أن عددت له الست دعوات فقال نعم، فقلت له: أتريد أن يستجاب لك؟ قال؛ ومن لي بذلك؟ فقلت له: قيل لي: إن أراد أن يستجاب له فليوال الشيخ أبا الحسن الشاذلي.

وسمعت شيخنا أبا العباس يقول. كان الشيخ قد قال لي:

إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تسأل من أحد شيئاً، فمكثت

على ذلك سنة ثم قال لي:

إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تقبل من أحد شيئاً، فكان إذا اشتد الوقت علي أخرج إلى ساحل بحر الإسكندرية ألتقط ما يرميه البحر بالساحل من القمح حتى يرفع من المراكب فأنا يوماً على ذلك وإذا عبد القادر النقاد ـ وكان من أولياء الله ـ يفعل كفعلي، فقال لي:

اطلعت البارحة على مقام الشيخ أبي الحسن.

فقلت له، وأين مقام الشيخ؟

فقال عند العرش.

فقلت له: ذاك مقام تنزل لك الشيخ فيه حتى رأيته.

ثم دخلت أنا وهو على الشيخ، فلما استقر بنا المجلس قال الشيخ رضي الله عنه.

رأيت البارحة عبد القادر في المنام فقال لي:

أعرشي أنت أم كرسي؟

فقلت له:

دع عنك ذا.

الطينة أرضية.

والنفس سماوية.

والقلب عرشي.

والروح كرسي.

والسر مع الله بلا أين.

والأمر يتنزل فيما بين ذلك ويتلوه الشاهد منه.

وقدم بعض الدالين على الله إلى الإسكندرية فقال الشيخ مكين الدين الأسمر: هذا الرجل يدعو الناس إلى باب الله وكان الشيخ أبو الحسن يدخلهم على الله. وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه كنت مع الشيخ أبي الحسن بالقيروان. وكان شهر رمضان.

وكانت ليلة جمعة.

وكانت ليلة سبع وعشرين.

فذهب الشيخ إلى الجامع وذهبت معه.

فلما دخل الجامع، وأحرم، رأيت الأولياء يتساقطون عليه كما يتساقط الذباب على العسل، فلما أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ:

ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة، وكانت ليلة القدر، ورأيت الرسول ﷺ وهو يقول:

يا علي طهر ثيابك من الدنس، تحظ بمدد الله في كل نفس.

قلت: يا رسول الله: وما ثيابي؟

قال أعلم أن الله قد خلع عليك خمس خلع:
خلعة المحبة.
وخلعة المعرفة.
وخلعة التوحيد.
وخلعة الإيمان.
وخلعة الإسلام.
فمن أحب الله هان عليه كل شيء.

ومن عرف الله صغر لديه كل شيء.
ومن وحد الله لم يشرك به شيئاً.
ومن آمن بالله أمن من كل شيء.

ومن أسلم لله قل ما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره.

ففهمت حينئذ معنى قوله عز وجل: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه:

جلت في ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقاً بساق العرش وهو رجل أشقر أزرق العينين، فقلت له: ما علومك وما مقامك؟ فقال أما علومي فأحد وسبعون علماً، وأما مقامي فرابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال، قلت له فما تقول في شيخي أبي الحسن الشاذلي؟ قال زائد علي بأربعين علماً، هو البحر الذي لا يحاط به.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: قيل للشيخ أبي الحسن من هو شيخك يا سيدي؟ فقال:

كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسب لأحد، بل أعوم في عشرة أبحر: خمسة من الآدميين النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وخمسة من الروحانيين جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح الأكبر.

وأخبرني ولده سيدنا ومولانا الإمام العارف شهاب الدين أحمد قال: قال الشيخ عند موته: والله لقد جئت في هذا الطريق بما لم يأت به أحد.

ومن الأمر المشهور أنه لما دفن بحميثرا وغسل من مائها كثر الماء

بعد ذلك وعذب حتى صار يكفي الركب إذا نزل عليه ولم يكن قبل ذلك كذلك.

وكتب إلى الشيخ أبو عبد الله بن النعمان رضي الله عنه أبياتاً يوصيني فيها بالشيخ أبي العباس رضي الله عنه:

عطاء إلّه العرش في الثغر أحمد   سررت به في الصحب فالله أحمد

ثم يقول في الشيخ أبي العباس رضي الله عنه:

ووارث علم الشاذلي حقيقة   وذلك قطب فاعلموه وأوحد
رأيت له بعد الممات عجائباً   تدل على من كان للفتح يجحد

فالذي عنى الشيخ أبو عبد الله بقوله «رأيت له بعد المات عجائباً» أن الماء حلا فوق ما كان وكثر لما غسل منه.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: قال الشيخ: قيل لي:

ما على وجه الارض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

ولا على وجه الأرض مجلس في علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكي الدين عبد العظيم.

ولا على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلسك.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: لما نزلت بتونس حين أتيت من «مرسية» وأنا إذ ذاك شاب فسمعت بذكر الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه:

فقال لي رجل: تمضي بنا إليه؟

قلت: حتى استخير الله. فنمت تلك الليلة، فرأيت كأني أصعد

إلى رأس جبل فلما علوت فوقه رأيت هنالك رجلاً عليه برنس أخضر وهو جالس، وعن يمينه رجل، وعن يساره رجل، فنظرت إليه فقال لي:

عثرت على خليفة الزمان.

قال فانتبهت، فلما كان بعد صلاة الصبح، أتاني الرجل الذي دعاني إلى زيارة الشيخ فسرت معه.

فلما دخلنا على الشيخ رأيته على الصفة التي رأيته فوق الجبل، قال: فدهشت، فقال لي:

عثرت على خليفة الزمان. ما اسمك؟

فذكرت له اسمى ونسبي.

فقال لي رفعت إلى منذ عشرة أعوام.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه لما قدمنا من المغرب إلى الإسكندرية نزلنا عند عمود السواري من ظاهرها، وكان وصولنا عند اصفرار الشمس، وكانت بنا فاقة وجوع شديد، فبعث لنا رجل من عدول الإسكندرية طعاماً، فلما قيل للشيخ عنه قال: لا يأكل أحد منه شيئاً، فبتنا على ما نحن عليه من الجوع، فلما كان عند الصبح صلى بنا الشيخ وقال مدوا السماط وأحضروا ذلك الطعام ففعلنا وتقدمنا فأكلنا، فقال الشيخ رضي الله عنه: رأيت في المنام قائلاً يقول لي: أحل الحلال ما لم يخطر لك على بال، ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: كنت ليلة من الليالي نائماً بالإسكندرية وإذا قائل يقول: مكة والمدينة!

فلما أصبحت عزمت على السفر.

وكان الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه بالمقسم بالقاهرة، فسافرت إليه، فلما مثلت بين يديه قال لي.

مكة والمدينة.

فقلت لأجل ذلك جئت يا سيدي.

قال اجلس، فجلست، وإذا رجل داخل عليه وقال.

يا سيدي عزمت على الحج، وما معي شيء من الدنيا.

فقال لي الشيخ أي شيء معك.

قلت عشرة دنانير.

قال ادفعها لهذا الرجل فدفعتها له.

فقال لي الشيخ إذا كان غداً اخرج إلى الساحل واشتر لي عشرين أردباً قمحاً فأصبحت ونزلت إلى الساحل واشتريت عشرين أردباً قمحاً وحملته إلى المخزن وأتيت إلى الشيخ فقال لي.

هذا القمح قيل لي أنه مسوس ما نأخذ منه شيئاً.

فبقيت متحيراً لا أدري كيف أصنع فبقيت ثلاثة أيام لا يطالبني صاحب القمح بالثمن فلما كان اليوم الرابع وإذا رجل يطوف علي فلما رآني قال.

أنت صاحب القمح.

قلت نعم.

قال تأخذ فيه فائدة ألف درهم.

قلت نعم.

قال فوزن لي ألف درهم فوضع الله البركة فيها فلو قلت إني أنفق منها إلى اليوم لصدقت.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه.

سافرنا مع الشيخ رضي الله عنه في السنة التي توفي فيها، فلما كنا عند أخميم قال لي الشيخ:

رأيت البارحة كأني في جلبة وأنا في البحر، والرياح قد اختلفت، والأمواج قد تلاطمت، والمركب قد انفتح، وأشرفنا على الغرق، فأتيت إلى جانب المركب، وقلت: أيها البحر، إن كنت أمرت بالسمع والطاعة لي فالمنة لله السميع العليم، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم، فسمعت البحر يقول: الطاعة الطاعة.

فلما سافرنا، وتوفي الشيخ رضي الله عنه ودفناه بحميثرا من صحراء عيذاب وكنا في جلبة، فلما صرنا في وسط البحر، اختلفت الأمواج، وتلاطمت الرياح، وانفتح المركب، وأشرفنا على الغرق، ونسيت كلام الشيخ، فلما اشتد الأمر ذكرت ذلك فأتيت إلى جانب المركب وقلت:

أيها البحر إن كنت أمرت بالسمع والطاعة لأولياء الله فالمنة لله السميع العليم ما قلت كما قال الشيخ بالسمع والطاعة لي، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم، فسمعت البحر يقول: الطاعة الطاعة.

وسكن البحر وطاب السفر.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه كنت مع الشيخ في بحر عيذاب وكنا في شدة من الريح الأزيب[1]، وكان المركب قد انفتح،

---

(١) الأرنب: الشديد.

فقال الشيخ: رأيت السماء قد فتحت ونزل منها ملكان، أحدهما يقول؛ موسى أعلم من الخضر، والآخر يقول الخضر أعلم من موسى، ونزل ملك آخر وهو يقول: والله ما علم الخضر في علم موسى إلا كعلم الهدهد في علم سليمان حين قال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾[1]، ففهمت أن الله سلمنا في سفرنا فإن موسى سخر له البحر[2].

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: قال رجل للشيخ: ما تقول في الخضر أحي هو أم ميت؟ فقال الشيخ رضي الله عنه: اذهب إلى الفقيه ناصر الدين بن الأبياري فإنه يفتي أنه حي وأنه نبي والشيخ عبد المعطي لقيه وسكت ساعة، وقال: أنا لقيته وسبابته ووسطاه سواء.

واعلم أن بقاء الخضر قد أجمع عليه هذه الطائفة وتواتر عن أولياء كل عصر لقاؤه والأخذ عنه واشتهر ذلك إلى أن بلغ الأمر إلى حد التواتر الذي لا يمكن جحده، والحكايات في ذلك كثيرة.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لقيت الخضر في صحراء عيذاب فقال لي يا أبا الحسن أصحبك الله اللطف الجميل، وكان لك صاحباً في المقام والرحيل.

وذكر الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه أن أبا السعود بن الشبل كان يوماً في مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه يكنس فيها، فوقف الخضر على رأسه وقال: السلام عليكم، فرفع أبو

---

(١) النمل: ٢٢.

(٢) حيث انفلق البحر معجزة وكرامة لموسى ومن أمن معه حيثما فروا هاربين من فرعون وقومه الذين تبعوهم. قال تعالى: «فأتبعوهم مشرقين، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال: كلا إن معي ربي سيهدين، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم...».

السعود رأسه وقال: وعليكم السلام ثم عاد إلى شغله بما هو فيه، فقال له الخضر: ما بالك لم تهتبل بي كأنك لم تعرفني فقال أبو السعود: بلى قد عرفتك، أنت الخضر. فقال له الخضر: فما بالك لم تهتبل[1] بي؟ قال فقال له أبو السعود والتفت إلى: الشيخ عبد القادر الكيلاني لم يترك في هذا الشيخ فضله لغيره.

وقال الشيخ محي الدين بن عربي رضي الله عنه مخبراً عن نفسه كنت أنا وصاحب لي بالمغرب الأقصى بساحل البحر المحيط وهناك مسجد يأوي إليه الأبدال فرأيت أنا وصاحبي رجلاً قد وضع حصيراً في الهواء على مقدار أربعة أذرع من الأرض وصلى عليها فجئت أنا وصاحبي ووقفت تحته وقلت:

شغل المحب عن الحبيب بسره ... في حب من خلق الهواء وسخره
العارفون عقولهم معقولة ... عن كل كون ترتضيه مطهره
فهم لديه مكرمون وعنده ... أسرارهم محفوظة ومحررة[2]

قال فأوجز في صلاته وقال: إنما فعلت هذا لهذا المنكر الذي معك وأنا أبو العباس الخضر، ولم أكن أعلم أن صاحبي ينكر كرامات الأولياء فالتفت إلى صاحبي وقلت: يا فلان أكنت تنكر كرامات الأولياء؟ قال نعم قلت: فما تقول الآن.

قال: فما بعد العيان ما يقال، وقال الشيخ عبد المعطي

---

(١) يعني: لم لم تهتم بي وتغتنم فرصة وجودي.

(٢) معنى كلام ابن عربي رضي الله عنه: أن العارف لا يهتم بخوارق العادات، فإنها في الكون ومن الكون. واهتمام العارف ـ كل اهتمامه ـ أن يكون سره مع الله، وسعادته ـ كل سعادته ـ أن يكون مع المكون، وكأن ابن عربي بشعره هذا ينتقد هذا الذي يرتفع في الهواء، ولكن هذا الذي يرتفع في الهواء لم يكن بفعل ذلك لهوى في نفسه، ولذلك علل فعله تعليلاً أرضى ابن عربي.

الإسكندراني لتلميذه عند موته: خذ هذه الجبة فطال ما عانقت فيها الخضر.

وقالت زوجة القرشي رضي الله عنه: خرجت من عند الشيخ ولم أترك عنده أحداً فسمعت عنده رجلاً يكلمه. فوقفت حتى انقطع كلامه ثم دخلت فقلت: يا سيدي! خرجت وما كان عندك أحد والآن سمعت كلاماً عندك فقال الشيخ: الخضر أتاني بزيتونة من أرض نجد فقال لي: كل هذه الزيتونة ففيها شفاؤك.

فقلت له: اذهب أنت وزيتونتك لا حاجة لي بها.

وكان الشيخ به داء الجذام.

وقد جاء أنه لما توفي رسول الله ﷺ سمعوا قائلاً يقول من جوف البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه: إن في الله خلفاً من كل هالك، وعوضاً من كل فائت، وإن المصاب من حرم الثواب. قال الراوي كانوا يرون أنه الخضر(١).

---

(١) قال الحافظ البيهقي: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفقيه، حدثنا شافع بن محمد، حدثنا أبو جعفر بن سلامة الطحاوي حدثنا المزني حدثنا الشافعي، عن القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص عن جعفر بن محمد عن أبيه ـ الحديث بطوله ـ وفيه:

فلما توفي النبي ﷺ وجاءت التعزية سمعوا صوتاً من ناحية البيت: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودركاً من كل فائت، فبالله ثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصاب من حرم الثواب، فقال علي رضي الله عنه: أتدرون من هذا؟؟ هذا الخضر عليه السلام.

وهذا الحديث مرسل وفي إسناده ضعف بحال القاسم العمري هذا، فإنه قد ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه بالكلية آخرون. ورواه الربيع عن الشافعي عن القاسم عن جعفر عن أبيه عن جده، وفي الإسناد العمري المذكور.

وروى البيهقي عن الحاكم عن أبي جعفر البغدادي حدثنا عبد الله بن الحارث أو=

واعلم رحمك الله أن من أنكر وجود الخضر فقد غلط.

أو من قال أنه غير خضر موسى.

أو من قال لكل زمان خضر وأن الخضرية رتبة يقوم بها رجل في كل زمان.

والمنكر لوجود الخضر معترف على نفسه بأن منة الله بلقاء الخضر لم تواجهه وليته إذ فاته الوصول إليها لا يفوته الإيمان بها.

ولا تغتر بما عساك أن تقف عليه من كلام أبي الفرج بن الجوزي في كتاب سماه: «عجالة المنتظر في شرح حال الخضر» أنكر فيه وجود الخضر وقال: من قال أنه موجود فإنما قال ذلك لهواجس ووساوس وهوس قام به، واستدل على عدم وجوه بقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾[1].

فعجب لهذا الرجل كيف استدل بهذه الآية ولا دليل فيها، لأن الخلد هو بقاء لا موت بعده، وليس هو المدعى في الخضر، إنما المدعى في الخضر طول إقامة يكون الموت بعدها.

فاعجبوا رحمكم الله لرجل يصدق بطول بقاء إبليس وينكر طول بقاء الخضر.

= عبد الرحمن بن المرتعد الصفاني حدثنا أبو الوليد المخزومي حدثنا أنس بن عياض عن جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله قال: لما توفي رسول الله ﷺ ناداهم مناد يسمعون الحس ولايرون الشخص فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته: إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخلفاً من كل فائت، ودركاً من كل هالك، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإما المحروم من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قال البيهقي: هذان الإسنادان وإن كانا ضعيفين فأحدهما يتأكد بالآخر، ويدل على أن له أصلاً من حديث جعفر لله والله أعلم.

(١) الأنبياء: ٣٤.

وما يروونه عن رسول الله ﷺ: لو كان الخضر حياً لزارني فلم يثبته أهل الحديث.

فإن قالوا لو كان ذلك لنقل.

فاعلم أنه ليس كل شيء أطلع الله عليه رسوله ﷺ يلزمه الأعلام به.

كيف، وقد روى عنه ﷺ أنه قال: علمني ربي ثلاثة علوم: علم أمرني بإفشاله، وعلم نهاني عن إفشائه، وعلم خيرني في إفشائه.

وقال بعض العارفين أن الله سبحانه أطلع الخضر على أرواح الأولياء فسأل ربه أن يبقيه في دائرة الشهادة حتى يراهم شهادة كما رآهم غيباً.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: كنت مع الشيخ في سفر ونحن قاصدون إلى الإسكندرية حين مجيئنا من المغرب فأخذني ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله فأتيت إلى الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه فلما أحس بي قال: أحمد قلت نعم يا سيدي، قال آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة نصف يوم خمسمائة عام[1] ثم نزل به إلى الأرض، والله ما نزل الله بآدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[2] ما قال في الجنة ولا في السماء، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف، فأنزل إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توفرت فيه

---

(١) يقول الله تعالى: ﴿إن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾.
(٢) البقرة: ٣٠.

العبوديتان استحق أن يكون خليفة، وأنت أيضاً لك قسط من آدم: كانت بدايتك في سماء الروح في جنة المعارف فأنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف، فلما توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة.

وأخبرني بعض أصحاب الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه قال: قال الشيخ ليلة: اجتمع بي الشريف البوني، وشرف الدين بن المجلى وأخبراني أنهما دخلا على امرأة بغربي الإسكندرية، قالا فقالت لنا: أرياني أيديكما فشمت أيدينا، وقالت: أخوان صالحان، ثم قالت: انتهيت في المعرفة إلى مقام الحيرة فقلت إلٓهي بما يخرج العارفون من الحيرة؟ فقيل لي بالتوحيد فهل فيكم من يعرف هذا التوحيد الذي يخرج به العارفون من الحيرة؟ قالا: فقلنا لها: إنما جئنا لنلتمس بركتك، قال: ثم قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: ألا دلوها على من ضيق عليه، ألا دلوها على من ضيق عليه؟ ثم توجه إلى جهتها وقال التوحيد الذي يخرج به العارفون من الحيرة لا إلٓه إلا هو، يخرج العارفون من الحيرة بلا إلٓه إلا هو، فأصبح بعض أصحاب الشيخ فذهب إليها فوجدها وهي تقول: استغنيت استغنيت، فعلمنا أن الشيخ أمدها في تلك الساعة.

وأخبرني بعض أصحاب الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه قال: دخل على الشيخ أبي الحسن عبد القادر النقاد فقال له الشيخ: يا عبد القادر أيعصى الولي؟ فقال عبد القادر: أي والله الذي لا إلٓه إلا هو وهو يطالع عين الحقيقة فقال الشيخ أبو الحسن أشهد أنك ولي الله.

وقال الشيخ أبو الحسن كنت في بعض سياحاتي قد آويت إلى مغارة بالمغرب من مدينة للمسلمين فمكثت ثلاثة أيام لم أذق طعاماً فبعد الثلاثة الأيام دخل علي ناس من الروم كانت قد أرست سفينتهم هناك فلما رأوني قالوا: قسيس من المسلمين ووضعوا عندي طعاماً وإداماً

كثيراً، فعجبت كيف رزقت على أيدي الكافرين ومنعت ذلك من المسلمين فإذا قائل يقول لي: ليس الرجل من نصر بأحبائه إنما الرجل من نصر بأعدائه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه نمت ليلة في سياحتي على رابية من الأرض فجاءت السباع فطافت بي وأقامت إلى الصباح، فما وجدت أنساً كأنس وجدته في تلك الليلة، فلما أصبحت خطر لي أنه قد حصل لي من مقام الأنس بالله شيء، فهبطت وادياً، وكان هنالك طيور حجل لم أرها، فلما أحست بي طارت بمرة فخفق قلبي رعباً فإذا قائل يقول لي أياً من كان البارحة يأنس بالسباع مالك توجل من خفقان الحجل[1]، ولكنك البارحة بنا والآن أنت بنفسك.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه قلت يوماً وأنا في مغارة في سياحتي.

إلهي متى أكون لك عبداً شكوراً، فإذا قائل يقول لي.

إذا لم تر منعماً عليه غيرك.

فقلت: إلهي كيف لا أرى منعماً عليه غيري وقد أنعمت على الأنبياء، وقد أنعمت على العلماء، وقد أنعمت على الملوك؟ فإذا قائل يقول لي.

لولا الأنبياء لما اهتديت.

ولولا العلماء لما اقتديت.

ولولا الملوك لما آمنت، فالكل نعمة مني عليك.

---

(١) الحجل: بفتحتين: إناث اليعاقيب، واليعاقيب ذكورها.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: جعت مرة ثمانين يوماً فخطر لي أن قد حصل لي من هذا الأمر شيء وإذا بامرأة خارجة من مغارة ووجهها كأنه الشمس حسناً وهي تقول: منحوس منحوس، جاع ثمانين يوماً فأخذ يدل على الله بعمله، وها أنا لي ستة أشهر لم أذق طعاماً.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كنت في سياحتي في مبدأ أمري حصل لي تردد: هل يلزم البراري والقفار للتفرغ للطاعة والأذكار أو أرجع إلى المدائن والديار لصحبة العلماء والأخيار؟ فوصف لي ولي هناك، وكان برأس جبل فصعدت إليه، فما وصلت إليه إلا ليلاً، فقلت في نفسي لا أدخل عليه في هذا الوقت، فسمعته يقول من داخل المغارة: اللهم إن قوماً سألوك أن تسخر لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق علي حتى لا يكون ملجئي إلا إليك، قال فالتفت إلى نفسي وقلت: يا نفس انظري من أي بحر يغترف هذا الشيخ، فلما أصبح دخلت إليه فأرعبت من هيبته.

فقلت له.

يا سيدي كيف حالك؟

فقال: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختبار.

فقلت: يا سيدي أما شكواي من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلماذا؟

فقال أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله.

قلت: يا سيدي سمعتك البارحة تقول: اللهم إن قوماً سألوك أن

تسخر لهم خلقك، فسخرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق علي حتى لا يكون ملجئي إلا إليك، فتبسم ثم قال:

يا بني، عوض ما تقول: سخر لي خلقك قل: يا رب كن لي، أترى إذا كان لك أيفوتك شيء؟ فما هذه الجناية.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كنت أنا وصاحب لي قد أوينا إلى مغارة نطلب الوصول إلى الله فكنا نقول غداً يفتح لنا، بعد غد يفتح لنا، فدخل علينا رجل له هيبة فقلنا له: من أنت؟ فقال: أنا عبد الملك، فعلمنا أنه من أولياء الله، فقلنا له: كيف حال من يقول غداً يفتح لي بعد غد يفتح لي؟ فلا ولاية ولا فلاح، يا نفس، لم لا تعبدين الله الله؟ قال فتفطنا من أين دخل علينا فتبنا إلى الله واستغفرنا ففتح لنا.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كنت يوماً بين يدي الأستاذ فقلت في نفسي: ليت شعري هل يعلم الشيخ اسم الله الأعظم؟ فقال ولد الشيخ وهو في آخر المكان الذي أنا فيه: يا أبا الحسن ليس الشأن من يعلم الاسم الأعظم: إنما الشأن من يكون هو عين الاسم، فقال الشيخ من صدر المكان: أصاب وتفرس فيك ولدي.

وقيل للشيخ أبي الحسن رضي الله عنه: لم لا تسمع السماع؟ فقال السماع من الخلق جفاء.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: استشفع طالب بالشيخ أبي الحسن إلى القاضي تاج الدين بن بنت الأعز أن يزاد على مرتبه عشرة دراهم، فذهب الشيخ إليه، فأكبر القاضي تاج الدين مجيء الشيخ وقال يا سيدي فيم جئت؟

قال من أجل فلان الطالب لنزيده في مرتبة عشرة دراهم.

قال فقال له تاج الدين: يا سيدي هذا له في المكان الفلاني كذا، وله في المكان الفلاني كذا، وفي موضع كذا وكذا.

قال فقال له الشيخ أبو الحسن: يا تاج الدين، لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده إياها فإن الله لم يقنع بالجنة للمؤمن جزاء حتى زاده النظر إلى وجهه الكريم فيها.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه سمعت الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ:

«إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»(١).

فأشكل على معناه. فرأيت رسول الله ﷺ لي: يا مبارك ذاك غين الأنوار لا غين الأغيار.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه سمعت الحديث المروي عن رسول الله ﷺ: «من سكن خوف الفقر قلبه قل ما يرفع(٢) له عمل»، فمكثت سنة أظن أنه لا يرفع لي عمل أقول: ومن يسلم من هذا؟ فرأيت رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول لي: «يا مبارك أهلكت نفسك فرق بين خطر وسكن».

وقال رضي الله عنه: رأيت الصديق في المنام فقال لي: أتدري ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قال قلت: لا أدري، قال: علامة

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود.

(٢) ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد ضمن الرزق وأقسم على ذلك فقال تعالى:
﴿في السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾.

خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال رضي الله عنه: استنار قلبي يوماً فكنت أشهد ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، فوقعت مني هفوة فحجبت عن شهود ذلك، فتعجبت كيف حجبني هذا الأمر الصغير عن هذا الأمر الكبير، فإذا قائل يقول لي: البصيرة كالبصر أدنى شيء يحل فيها يعطل النظر.

ولنقبض عنان المقال لئلا نخرج عن غرض الكتاب، وإلا فكلام الشيخ رضي الله عنه أشهر من أن ننبه عليه، وأكثر ما ذكرته هنا لا يوجد في الكلام المنسوب إليه، وقد مضى من كلامه في المقدمة، وسيأتي في أثناء الكتاب إن شاء الله[1]، وحسبك من كلامه ما ذكره من كرامات القطب، وما ذكره من طريق الخصوص والعموم، والعلوم والحقائق والأسرار، وحلاوة اللفظ ووجازته، مع الاشتمال على المعاني الكثيرة، والهيبة التي تجدها عند ذكرك كلامه أو سماعك إياه، قل أن نجد ذلك في شيء من كلام من أهل الطريق.

أما ما قال في كرامات القطب فقال رضي الله عنه: للقطب خمس عشرة كرامة فمن ادعاها أو شيئاً منها فليبرز بمدد الرحمة والعصمة والخلافة والنيابة ومدد حملة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة الحكم والفصل بين الوجودين، وانفصال الأول عن الأول، وما انفصل عنه إلى منتهاه، ومن ثبت فيه، وحكم ما قبل وما بعد، وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم البدء وهو العلم المحيط بكل علم ولكل معلوم بدءاً من السر الأول إلى منتهاه ثم

---

(١) انظر سيرة الإمام الشاذلي ـ رضي الله عنه ـ بالتفصيل في كتابنا الذي كتبناه عنه ـ نشر دار الكتب الحديثة.

يعود إليه، فهذا معيار أعطاه الله الشيخ يختبر به من ادعى هذه الرتبة العظيمة القائمة بكفالة الأسرار، والمحيطة بمدد الأنوار.

وهذا نحو ما ذكره العارف بالله أبو عبد الله الترمذي الحكيم في كتاب ختم الأولياء له: إن من ادعى الولاية فيقال له: صف لنا منازل الأولياء فذكر مسائل معياراً على من ادعى الولاية(١).

ولقد أخبرني الشيخ مكين الدين الأسمر قال مكثت أربعين سنة يشكل على الأمر في طريق القوم، فلا أجد من يتكلم عليه ويزيل عني أشكاله، حتى ورد الشيخ أبو الحسن فأزال كل شيء أشكل علي.

ولما قدم الشيخ صدر الدين القونوي إلى ديار مصر رسولاً اجتمع بالشيخ أبي الحسن، وتكلم بحضرته بعلوم كثيرة، والشيخ مطرق إلى أن استوفى الشيخ صدر الدين كلامه، فرفع الشيخ أبو الحسن رأسه وقال: أخبروني أين قطب الزمان اليوم، ومن هو صديقه وما علومه؟

قال: فسكت الشيخ صدر الدين ولم يرد جواباً.

وطريقه رضي الله عنه طريق الغنى الأكبر، والتوصيل العظيم، حتى أنه كان يقول: ليس الشيخ من دلك على تعبك، إنما الشيخ من دلك على راحتك.

ونشأ على يده رضي الله عنه رجال.

منهم من أقام بالمغرب كأبي الحسن الصقلي وكان من أكابر الصديقين، وعبد الله الجيبي وكان من أكابر أولياء الله.

---

(١) كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذي، وهو من الكتب التي أثارت اهتمام الكثيرين في عالم الفكر الإسلامي، واهتم به اهتماماً كثيراً الإمام محيي الدين بن عربي وتحدث عنه أكثر من مرة ـ وقد طبع هذا الكتاب حديثاً في بيروت.

ومنهم من أتى معه وهاجر إلى ديار مصر منهم سيدنا ومولانا حجة الصوفية علم أهل الخصوصية شهاب الدين أحمد بن عمر الأنصاري المرسي رضي الله عنه.

ومنهم الحاج محمد القرطبي وأبو الحسن البجاوي وأبو عبد الله البجائي والوجهاني والخراز.

ومنهم من صحبه بديار مصر منهم الشيخ مكين الدين الأسمر والشيخ عبد الحكيم، والشيخ الشريف البوني، والشيخ عبد الله اللقاني، والشيخ عثمان البورنجي، والشيخ أمين الدين جبريل.

ولكل من هؤلاء علوم وأسرار وإشارات وأصحاب أخذوا عنهم تركنا تتبع كراماتهم وخصوصياتهم، لئلا نخرج عن غرض الكتاب.

وطريقته رضي الله عنه تنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، والشيخ عبد السلام ينتسب إلى الشيخ عبد الرحمن المدني، ثم واحد عن واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول طريقتنا هذه لا تنسب للمشارقة ولا للمغاربة، بل واحد عن واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أول الأقطاب.

وإنما يلزم تعيين المشايخ الذين تستند إليهم طريق الإنسان من كانت طريقته يلبس الخرقة فإنها رواية، والرواية يتعين تعيين رجال سندها، وهذه هداية، وقد يجذب الله العبد إليه فلا يجعل عليه منة لأستاذ(١)، وقد يجمع شمله برسول الله ﷺ فيكون آخذاً عنه، وكفى بهذا منة.

---

(١) يقول تعالى: ﴿الله يجتبى إليه من يشاء﴾.

ولقد قال لي الشيخ مكين الدين الأسمر رضي الله عنه: أنا ما رباني إلا رسول الله ﷺ، وذكر عن الشيخ عبد الرحيم القناوي رضي الله عنه أنه كان يقول: أنا لا منة لأحد علي إلا لرسول الله ﷺ، وإذا أراد الله أن يتفضل على عبد يغنيه عن الأستاذ حتى لا يكون له فيه سلف.

وقال ملك لبعض جلسائه: إني أريد أن أجعلك وزيراً قال: ليس لي في هذا سلف، قال: إني أريد أن أجعلك سلفاً لمن بعدك.

ولنقتصر على هذا القدر فإنه كاف في التعريف بقدر الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه.

وما الأمر إلا كما قال القائل:

وقد وجدت مكان القول ذا سعة   فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

وبدأنا بذكر الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه وإن كان غرضنا في وضع هذا الكتاب ذكر مناقب شيخنا أبي العباس رضي الله عنه، لكن فعلنا ذلك لأمرين:

أحدهما أن ذلك تعريف بقدر الشيخ أبي العباس رضي الله عنه، لأن شرف التابع بشرف المتبوع.

ولأن الشيخ رضي الله عنه هكذا كان شأنه: ذكر خصائصه هو في نفسه، حتى قال له إنسان: يا سيدي، نراك تقول: قال الشيخ: وقل أن تسند لنفسك شيئاً، فقال له الشيخ: لو أردت على عدد الأنفاس أن أقول قال الله قلت قال الله، ولو أردت على عدد الأنفاس أن أقول قال رسول الله قلت قال رسول الله ﷺ، ولو شئت على عدد الأنفاس أن أقول قلت أنا قلت أنا، ولكن أقول قال الشيخ وأترك ذكر نفسي أدباً معه.

وقد تم الكلام في الباب الأول والحمد لله رب العالمين.

الباب الثالث

شهادة الأولياء

في شهادة الشيخ له أنه الوارث للمقام
والحائز قصب السبق بالتمام وإخباره هو
عن نفسه بما من به عليه
من النعم الجسام وشهادة
الأولياء له بأنه بلغ
من الوصول إلى
الله لأفضل
مرام



ولنقدم أمام ذلك مقدمة:

اعلم أن الوارث للرجل هو الظاهر بعلمه وحاله، وهو الذي تظهر طريق الموروث على يديه يفسر مجملها ويبسط مختصرها، يرفع منارها ويبث أنوارها، يعرف الناس بما كان ذلك الرجل الكبير عليه من العلم بالله والمعرفة والنفوذ إليه والاحتظاء من نوره حتى إذا فرط الناس في محبة ذلك الرجل الكبير وتعظيمه في حال حياته استدركوا ذلك بعد وفاته، لأن كل ما هو مقدور عليه مزهود فيه وكل معجوز عنه متطلع إليه بالشغف، حتى لقد سمعت الشيخ أبا العباس رضي الله عنه يقول: يكون الرجل بين أظهرهم فلا يلقون إليه بالا، حتى إذا مات قالوا كان فلان، وربما دخل في طريق الرجل بعد وفاته أكثر مما دخل فيها في حياته، والذي ظهر بهذه الأوصاف هو: الشيخ أبو العباس رضي الله عنه.

هو الذي بث علوم الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه، ونشر أنوارها، وأبدى أسرارها، وسار الناس إليه من أقاصي البلاد وأقبلوا مسرعين إليه من كل ناد، فنشأت على يديه الرجال، ونصرها وأظهرها بالمقال والفعال، حتى انتشرت في الآفاق الأصحاب، وظهرت علوم

الشيخ في مظهري ولسان وكتاب.

وأخبرني الشيخ الصالح الأمين العدل زكي الدين الأسـواني قال: قال لي الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: يا زكي عليك بأبي العباس فوالله إنه ليأتيه البدوي يبول على ساقيه فلا يمسي عليه المساء إلا وقد وصله إلى الله، يا زكي عليك بأبي العباس فوالله ما من ولي لله كان أو هو كائن إلا وقد أطلعه الله عليه، يا زكي أبو العباس هو الرجل الكامل.

وسمعت الشيخ أبا العباس يقول عن نفسه: والله ما سار الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف حتى يلقوا واحداً مثلنا فإذا لقوه كان بغيتهم، ثم قال: وبالله الذي لا إله إلا هو ما من ولي لله كان أو هو كائن إلا وقد أطلعني الله عليه وعلى اسمه وكم حظه من الله.

وبلغني عن الشيخ أبي الحسن أنه كان يقول: أبو العباس شمس وعبد الحكيم قمر، وعبد الحكيم هذا ولي كبير من أصحاب الشيخ أبي الحسن وقد تقدم ذكره.

وسمعت الشيخ أبا العباس يقول: قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: سمعت يقال لي: لن تهلك أمة فيها أربعة: إمام وولي وصديق وسخي.

قال الشيخ أبو الحسن: الإمام هو أبو العباس.

وسمعت الشيخ أبا العباس يقول: ليس الشأن من ملك، الشأن من ملك وملك أن يملك وأنا والله ملكت وملكت أن أملك من ست وثلاثين سنة.

وسمعته رضي الله عنه يقول الولي إذا أراد أغنى.

وسمعته يقول؛ والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته.

وسمعته يقول قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت.

وسمعت يقول: قال لي الشيخ يا أبا العباس فيك ما في الأولياء، وليس في الأولياء ما فيك.

وقد أخبرني بعض أهل البهنسا قال: قدم علينا الشيخ أبو العباس فقال لي الآن خمس وعشرون سنة ما حجبت فيها عن الله طرفة عين قال ثم غاب عنا خمس عشرة سنة ثم قدم علينا فقال: لي الآن أربعون سنة ما حجبت فيها عن الله طرفة عين.

وقال يوماً: والله لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين.

وأخبرني بعض أصحابه قال: دخل عليه بدمنهور إنسان، فلما أراد أن يخرج قال يا سيدي صافحني، فإنك قد لقيت بلاداً وعباداً فلما خرج. قال الشيخ: ما الذي يعني ببلاد وعباد، فقال إنسان: يريد أنك صافحت عبداً وسلكت بلاداً اكتسبت بركاتها، فإذا صافحك حصل له منك بركة، فضحك الشيخ ثم قال: والله ما صفحت بهذه اليد إلا رسول الله ﷺ.

وكان بنشيل القناطر رجل يقال له خليل وهو الآن مدفون بها وكان من أولياء الله قال: دخل على الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه فتوضأ عندي، ثم أخذ قوساً لي فجرها ثلاث مرات، فقلت له يا سيدي: من هو الخليفة بعدك؟ فقال من يأتيك إلى ههنا ويتوضأ نحو وضوئي هذا

ويجر هذا القوس ثلاث مرات، فهو الخليفة بعدي، قال فدخل على أصحاب الشيخ أجمعهم وأنا أترصد هل يفعل ذلك أحد فلم يتفق حتى دخل الشيخ أبو العباس رضي الله عنه علي في ذلك المكان وتوضأ نحو وضوء الشيخ ورفع بصره فرأى القوس معلقة فقال ناولني القوس، فناولته إياها فجرها ثلاث مرات ثم قال يا خليل جاءك وعد الشيخ.

وبلغني عن الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه أنه قال: هذا أبو العباس منذ نفذ إلى الله لم يحجب ولو طلب الحجاب لم يجده.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: كنت ليلة من الليالي جالساً بالإسكندرية أكتب كتاباً لبعض أصحابنا وإذا بالشيخ خليل هذا في الهواء، فقلت له إلى أين انتهت سياحتك في هذه الليلة؟ فقال: خرجت من نشيل وانتهيت إلى جبال الزيتون بالمغرب الأقصى وأنا أريد أن أذهب إلى البيت المقدس وأعود إلى بلدي ولو بسط لي أكثر من ذلك لانبسطت.

قال الشيخ فقلت له: ليس الشأن أن تذهب إلى جبال الزيتون وتعود في ليلتك ولكن أنا الساعة لو أردت أن أخذ بيدك وأضعك على قاف وأنا ههنا لفعلت.

وأخبرني أبو عبد الله بن سلطان وكان من أولياء الله قال: أردت أن أرسل إلى الشيخ أبي العباس عسلاً فقلت لبعض أصحابي فقال لي: عندي نصفيتان عسل فراخ أي جرتان صغيرتان، وأتى إلي بهما فسددتهما وكتبت عليهما: وديعة الشيخ أبي العباس المرسي وأتيت بهما إلى بحر تونس فأدليتهما فيه فجاءني الخبر من عنده أنهما وصلتا إليه، وأخبرني بعض أصحابه قال؛ كان الشيخ يوماً جالساً فقال لبعض أصحابه: قم بنا، فأتى إلى بحر السلسلة وأدلى يده وأخرج الجرتين منه.

وأخبرني عبد الدائم ابن الشيخ ماضي وماضي هذا أحد أصحاب الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه وهو أخو أبي عبد الله بن سلطان قال: صليت ليلة عند الشيخ فوضع لنا قطايف وعسلاً وقال: هذا العسل من عند عمك، فلما ذهبت إلى والدي قال لي أبطأت الليلة لقد شغلت قلبي، قلت له: كنت عند الشيخ أبي العباس وأطعمني قطايف وعسلاً، وقال هذا العسل من عند عمك، فقال أبي عجيب: هذا لي في ديار مصر عشرون سنة ما أرسل إلى أخي شيئاً قط، حتى بلغه أن وصول العسل كان على الوجه الذي تقدم.

وكان يقول: والله لو حجبت عني جنة الفردوس طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين.

وكان يقول: والله لو فاتني الوقوف بعرفة سنة ما عددت نفسي من المسلمين.

وسمعته يقول؛ كان الشيخ إذا أوذيت من بعض أصحابه يقول اصبر فوالله ما هي إلا لك أي ما الوراثة إلا لك.

ووجدت بخط ابن ناشيء: أخبرنا الشيخ جلال الدين عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنه قال ألبس اليوم أبو العباس ثياب البدلية حين مجيئهم من الحجاز بالمراسي بالجديد، قال ابن ناشىء: فكتبت إلى شيخي أبي العباس رضي الله عنه في ذلك:

على ذلك الوجه الجميل تحيتي فيا رب بلغني إلى باب قدوتي
أقبل أقداماً سعت نحو خلوة بها جلوة للشيخ أعظم جلوة
فأخرج من ضيف الضلال إلى الهدى وصحح لي عقدي وعهدي ونيتي
وأشرقت الأنوار من كل وجهة بتلقينه الأذكار في كل زورة
وأبصرت ما أبصرت من ذلك الذي فلا تسألوا يا قوم عن تكلم التي

أنـوح عليهـا لا أبـوح ببعضهـا ولكنني إن بحت نحت بعبـرتي
فسبحان من أعمى القلوب عن الذي تصـرف في سر القلوب بهمتي
ومن ذا الذي ربي بحضرة شيخه فأكرم بها من حضرة بعد حضرة
وكان جديـراً في الجديـد بحلة غـدت حلة الأبدال أول سفـرة
كذلك قـال الشيخ وهـو مسافـر بـلا وقفة للركب في عـام وقفة
أفي الوقت رباني كأحمد الذي أتـاني فـرباني على حين فتـرة
ومدحي له مـدح لأحمد الـذي علا في العلا أعلا مقام المحبة
فصلى عليـه الله ما سـار سائـر إلى قبـره بعـد القيـام بحجـة

وأخبرني الشيخ الإمام العارف نجم الدين عبد الله الاصبهاني نزيل مكة قال: قال لي شيخ صحبته ـ وأنا ببلاد العجم ـ: إنك ستلقى القطب بديار مصر فخرجت من بلادي قاصداً لذلك، فأنا في بعض الطريق وإذا بجماعة من التتار قد لاقوني فأمسكوني، وقالوا هذا جاسوس فكتفوني ثم تشاوروا في قتلي، فقال بعضهم نقتله، فبت مكتوفاً ففكرت في أمري وقلت: خرجت من بلادي أريد لقاء من يعرفني بالله، والله ما جزعـي من الموت، ولكن كيف أموت قبل أن أنال ما قصدت، فعلمت أبياتاً ضمنت فيها شعراً لامرىء القيس:

وقـد أوطـأت نعلي كـل أرض وقـد أتعبت نفسي بـاغتـراب
وقـد طـوفت في الآفـاق حتى رضيت من الغنيمـة بـالإيـاب

فما استتممت الإنشاد إلا وأنا أرى رجلاً كث اللحية ظاهر الهيبة أتى إلي كالبازي إذا انقض على الفريسة فحل كتافي، وقال: قم يا عبد الله فأنا مطلوبك، ثم أني قدمت ديار مصر فقيل لي: هنا رجل يقال له أبو العباس المرسي، فذهبت إليه فإذا هو ذلك الرجل الذي حل وثاقي وقال: لقد أعجبني نظمك ليلة أسرت وقولك وذكر الأبيات إلى آخرها.

وأخبرني الشيخ نجم الدين أيضاً قال: قال لي شيخي: إذا لقيت القطب فلا تصلين وهو وراءك، فجئت يوماً إلى الشيخ أبي العباس رضي الله عنه وهو بالإسكندرية عند صلاة العصر فلما دخلت عليه قال: أصليت العصر؟ قال قلت: لا قال قم فصل، وفي المكان الذي هو فيه ايوانان قبلي وبحري، وكان الشيخ جالساً في البحري منهما، فلما قمت لأصلي ذكرت ما قاله لي شيخي: «إذا لقيت القطب فلا تصلين وهو وراءك» وعلمت أني إذا صليت كان الشيخ خلف ظهري، فأقام الله في قلبي حاله وقلت حيث ما كان الشيخ هنالك القبلة، فتوجهت لناحية الشيخ وأردت أن أكبر فقال الشيخ: لا، لا، هو لا يرضيه خلاف السنة.

وقال رضي الله عنه: ما أصنع بالكيمياء والله لقد صحبت أقواماً يعبر أحدهم على الشجرة اليابسة فيشير إليها فتثمر رمانا للوقت، فمن صحب هؤلاء الرجال ماذا يصنع بالكيمياء[1].

وأخبرني بعض أصحابنا قال: كنت أصحب بمدينة «قوص» الشيخ أبا عبد الله البجائي، أحد أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، فكان يقع لي الأمر، فأسأل عنه الشيخ أبا عبد الله، فيقول لي: ليس هذا الأمر لي، ولكن إن جمع الله بينك وبين الشيخ أبي العباس المرسي تجد عنده ما تريد.

قال: ورأيت في المنام كأن معي طبقاً فيه بسر وحواري نأكل منه، فعبرته، فقيل لي: هذا رجل كبير لك على يديه علوم كثيرة بعد ما أتى وقتها، فلما ورد الشيخ أبو العباس إلى مدينة «قوص» دخلت عليه فسألته

---

(١) إن الكيمياء بالمعنى القديم ـ وهو المراد هنا ـ هي: تحويل العناصر إلى بعضها، كتحويل النحاس مثلاً إلى ذهب، وهذا هو المعنى المقصود من كلمة «الكيمياء» هنا، وكان كثير من القدماء يعتقدون أن ذلك ممكن، ويسعون وراء تحقيقه.

عما كان يقع لي فأجابني عن ذلك وقال تذكر رؤياك البسر والحواري تأكل منه، أنا ذلك الحواري(١).

وتجاريت الكلام يوماً مع الشيخ مكين الدين الأسمر رضي الله عنه فقلت له عن الشيخ أبي العباس قال الشيخ كذا وقال كذا إلى أن تمادى بنا الكلام والفقيه مكين الدين يستغرب تلك الحقائق التي أقولها عن الشيخ، إلى أن قال: نقول لك الحق ما عرفنا الشيخ أبا العباس.

فهذا اعتراف من الشيخ مكين الدين(٢)الأسمر بعظيم شأن الشيخ أبي العباس وأنه لم يعرفه، مع أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه شهد للشيخ مكين الدين الأسمر أنه من السبعة الأبدال.

وكنت يوماً عند الشيخ أبي العباس الدمنهوري، وعنده إنسان من أصحاب الشيخ أبي العباس فقال له إنسان: يا سيدي هذا من أصحاب الشيخ أبي العباس المرسي.

فقال له الشيخ أبو العباس الدمنهوري: سيدي أبو العباس المرسي ملك من ملوك الآخرة.

(١) البسر: جمع بسرة ـ أبسر النخل صار ما عليه بسراً ـ أي بعد أن يكون: طلعاً ثم خلالاً تم بسراً، والحواري بالضم وتشديد الواو ـ وفتح الراء ـ الدقيق الأبيض وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه.

(٢) والشيخ مكين الأسمر كما في جامع الكرامات العلية هو القطب الرباني صاحب المكاشفات والمجاهدات، الحائز لأسرار أهل الحقائق والتمكين، شيخ المشايخ الراسخين الفقيه المحدث سيدي ومولاي أبو عبد الله بن منصور الإسكندراني الشاذلي المقري بمكين الدين الأسمر، كان من أرباب المجاهدات، وله مكاشفات عجيبة وأحوال غريبة، ولد بالإسكندرية وبها نشأ، وحفظ القرآن، وبرع فيه وفي علومه حتى صار أوحد أهل زمانه، وشدت إليه الرحال، ووقدت عليه أكابر الرجال، كان في بدايته يخيط الملابس ويتقوت من ذلك وهو مع ذلك يطلب العلم، قال فيه أبو الحسن الشاذلي: الشيخ مكين الأسمر أهل السبعة الأبدال، وله كرامات ومكاشفات، كان رضي الله عنه في زمنه شيخ القراء، قرأ عليه ناس كثيرون وجماعة آخرون، توفى نفعنا الله به بالإسكندرية في سنة ٦٩٢ ومولده بها سنة ٦١٠.

وأخبرني سليمان بن الباخس قال: دخلت على الشيخ أبي العباس الدمنهوري فسمعته يقول: يا رب هذاك أبو العباس وأنا أبو العباس ويكرر ذلك فقلت: يا سيدي من أبو العباس؟ قال المرسي، يا بني ما بين أسوان إلى الإسكندرية رجل مثله.

ثم قال: ما بين أسوان إلى دمياط إلى الإسكندرية رجل مثله.

وأخبرني سليمان هذا قال: لقيت يوماً الشيخ أبا العباس المرسي، وقد خرج من الحمام فعزمت عليه، فطلع عندي فقدمت له من البطيخ الصالحي، فهو في أثناء أكله سألته عن رجل كان كثير الشهرة يرحل بالخلق الكثير والرايات ولا يحضر صلاة الجمعة، فلما ذكرته للشيخ تغير وقال: والله لو أعلم أنك تذكره لي ما طلعت عندك تذكرون بين يدي الأبدال والأولياء أهل البدع.

وسمعته يقول: والله ما كان اثنان من أصحاب هذا العلم في زمن واحد قط إلا واحداً عن واحد إلى الحسن.

وأخبرني جماعة من أهل أشموم قالوا قوم علينا الشيخ أبو العباس البجائي من أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه وكان يتكلم علينا فيعجبنا كلامه فإذا رأى إعجابنا بذلك قال: كيف لو رأيتم الشيخ أبا العباس المرسي، لو أطلق الشيخ أبو العباس لساني لتكلمت بالعلم الغريب.

وسمعته يقول: كان يتكلم في هذا العلم ثلاثة شيوخ. الشيخ أبو الحسن وصاحبه الشيخ أبو الحسن الصقلي وأنا، توفي الشيخ رضي الله عنه، وتوفي أبو الحسن الصقلي، ولا أعلم اليوم على وجه الأرض أحداً يتكلم في هذا العلم غيري.

وكنت أنا حين توفي الشيخ أبو العباس بالقاهرة فدخلت يوماً زاوية

الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور فجلست فيها، فقال واحد من الفقراء[1] يخاطب آخر؟ يا أخي قد مات رجل كبير اليوم، فقال له الآخر من هو؟ قال: الشيخ أبو العباس المرسي، وهما لا يعلمان أنني من أصحاب الشيخ، أتدري ما اتفق له مع شيخنا صفي الدين، قال: لا، قال سمع الشيخ ليلة ههنا ذكراً لا يعهده فقال لي: اذهب فانظر من هذا؟ فذهبت فإذا هو الشيخ أبو العباس وأصحابه، فرجعت إلى الشيخ صفي الدين فأخبرته فقال: يأتي هذا الرجل إلى هنا ولا يزورنا؟ ما هذا إلا أمر عجيب، قال: ثم أصبح الشيخ صفي الدين فقال لأصحابه: رأيت البارحة كأنني في فلاة من الأرض وأبو العباس في موضع مرتفع وهو يقول لي: يا أخي يأبى الله أن نجتمع إلا هكذا.

وقال الشيخ أبو عبد الله بن النعمان، الشيخ أبو العباس المرسي وارث علم الشيخ الشاذلي حقيقة.

وأخبرني بعض الفقهاء من أهل اليهنسا قال: قال لي الشيخ أمين الدين جبريل: تريد أن أريك ولياً من أولياء الله؟ قلت: نعم، قال: امض بنا، فأتى بي إلى الشيخ أبي العباس وقال: هو هذا.

وأخبرني بعض أصحابه قال: عزم على الشيخ إنسان، فقدم له طعاماً يختبره به، فأعرض الشيخ عنه ولم يأكله، ثم التفت إلى صاحب الطعام فقال: إن كان الحارث ابن أسد المحاسبي كان في أصبعه عرق إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه، فأنا في يدي ستون عرقاً تتحرك علي إذا كان مثل ذلك، فاستغفر صاحب الطعام واعتذر إلى الشيخ.

---

(١) المقصود: الفقراء إلى الله، وهم الصوفية.

ومن المشهورين أصحاب الشيخ أبي الحسن وغيرهم أن الشيخ كان يوماً بالقاهرة في دار الزكي السراج وكتاب المواقف(١) للنفري يقرأ عليه، فقال أين أبو العباس؟ فلما جاء قال: يا بني تكلم، بارك الله فيك تكلم ولن تسكت بعدها أبداً، فقال الشيخ أبو العباس: فأعطيت في ذلك الوقت لسان الشيخ.

ولقد كان علماء الزمان يسلمون له هذا الشأن، حتى كان شيخنا الإمام العلامة سيف المناظرين، حجة المتكلمين شمس الدين الاصبهاني، والشيخ العلامة شمس الدين الأيكي يجلسان بين يديه جلوس المستفيد، آخذين عنه ومتلقين ما يبديه حتى سأله أحدهما عن بعض المشايخ الظاهرين في الوقت: يا سيدي أتعرفه؟ فقال الشيخ: أعرفه هنا ـ وأشار إلى الأرض ـ ولا أعرفه هناك ـ وأشار إلى السماء.

وسأله أحدهما عن إنسان كان بدمشق الغالب عليه السكر والغيبة، فقال الشيخ رضي الله عنه: كل من لا يكون له في هذه الطريق شيخ لا يفرح به.

وكان من مذهبه رضي الله عنه: أنه لا يلزم أن يكون القطب شريفاً حسنياً، بل قد يكون من غير هذا القبيل.

وتكلم يوماً في القطب وأوصافه ثم قال: وما القطبانية بعيدة من بعض الأولياء وأشار إلى نفسه.

وأخبرني بعض أصحابه قال: استلقى الشيخ يوماً على ظهره وأمسك بلحيته وقال: لو علمت علماء العراق والشام ما تحت هذه

---

(١) كتاب «المواقف» من يعمق كتب التصوف بحيث لا يتناوله إلا خاصة الخاصة وهو مطبوع إلا أنه من الندرة بمكان.

الشعرات لأتوها لو سعياً على وجوههم.

وكان يقول: والله ما نطالع كلام أهل الطريق إلا لنرى فضل الله علينا، وقال في الإمام أبي حامد الغزالي رضي الله عنه: إنا لنشهد له بالصديقية العظمى.

وكان الشيخ أبو الحسن يقول: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد.

وكان يقول عن شيخه أبي الحسن رضي الله عنه: كتاب الإحياء يورثك العلم، وكتاب القوت[1] يورثك النور.

وكان يقول عن الشيخ أبي الحسن: عليكم بالقوت فإنه قوت.

وكان هو والشيخ أبو الحسن كل منهما يعظم الإمام الرباني محمد بن علي الترمذي[2]، وكان لكلامه عندهما الحظوة التامة، وكان

---

(١) كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وهو من الكتب التي تعتبر من عمد التصوف، وقد قرأه الإمام الغزالي واستفاد منه، وكان الإمام الشاذلي يدرسه لمريديه، ويحثهم على قراءته ـ وهو مطبوع متداول.

(٢) هو صاحب كتاب «ختم الأولياء» الذي أثار ثورة فكرية في الجو الصوفي وقد طبع له هذا الكتاب أخيراً في لبنان، وطبع له من قبل كتاب «نوادر الأصول» وكتاب «الصلاة» وله كتب كثيرة تحت الطبع. وقد كتب عنه أصحاب الطبقات فيقول عنه صاحب الرسالة القشيرية:
«من كبار الشيوخ، وله تصانيف في علوم القوم، صحب أبا تراب النخشبي، وأحمد بن خضروية، وابن الجلاء وغيرهم.
سئل محمد بن علي عن صفة الخلق فقال:
«ضعف ظاهر، ودعوى عريضة».
وقال محمد بن علي:
ما صنفت حرفاً عن تدبير، ولا لينسب إلي شيء منه، ولكن كان إذا اشتد علي وقتي أتسلى به!
=

يقول عنه أنه أحد الأربعة الأوتاد.

ودخلت عليه يوماً فوجدته مغموساً في وارد ورد عليه فقال: سمعت البارحة يقال لي: السلام عليكم يا عبادي، ثم قال: وهذا قد أسمعه في السنة مرة أو مرتين.

بدا لك سر طال عنك اكتتامه ولاح صباح كنت أنت ظلامه
فأنت حجاب القلب عن سر وحيه ولولا لم يطبع عليه ختامه
فإن غلبت عنه حل فيه وطنبت[1] على موكب الكشف المصون خيامه
وجاء حديث لا يمل سماعه شهي إلينا نشره ونظامه

= والترمذي: نسبته إلى (ترمذ): مدينة على طرف نهر بلخ المسمى (بحيجون) قال الحافظ بن النجار في تاريخه: كان إماماً من أئمة المسلمين، وله التصانيف الكثيرة في التصوف، وأصول الدين، ومعاني الحديث.

وقال الكلا باذي ـ في التعريف ـ هو من أئمة الصوفية.

وقالابن عطاء الله:

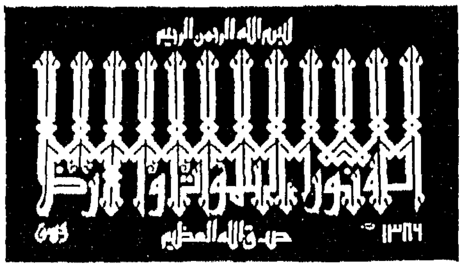
كان الشاذلي والمرسي يعظمانه ويقولان: هو أحد الأوتاد الأربعة!

ومن حكمه: إذا سكنت الأرواح بالسر، نطقت الجوارح بالبر.

وقال الولي: أبداً في ستر حاله، والكون ناطق بولايته، ومدعى الولاية ناطق بولايته، والكون كله يكذبه.

وقال: ما استصغرت أحداً من المسلمين إلا وجدت نقصاً في معرفتي وإيماني وما منع الناس من الوصول إلا لركضهم في الطريق بغير دليل!

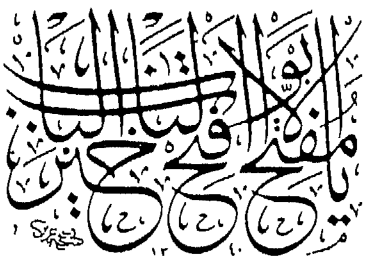
(١) طنبت: أي شدت بأطنابها، وهي الحبال الطويلة.


بسم الله الرحمن الرحيم
الله نور السموات والأرض
١٣٨٦ ه
صدق الله العظيم

الباب الرابع

في المجربات والمكاشفات

في مجرباته ومنازلاته
وما اتفق لأصحابه معه ومكاشفاته


يا مفتح الأبواب افتح لنا خير الباب

سمعت الشيخ أبا العباس رضي الله عنه يقول: كنت أنا وصبي عند المؤدب إذ جاء رجل فوجدني أكتب في لوح فقال لي: الصوفي لا يسود بياضاً، قال: فقلت له: ليس الأمر كما زعمت، ولكن لا يسود بياض الصحائف بسواد الذنوب.

وسمعته يقول: عمل إلى جانب دارنا خيال الستارة، وأنا إذ ذاك صبي فحضرته، فلما أصبحت وأتيت إلى المؤدب، وكان من أولياء الله أنشدني حين رآني:

يا ناظراً صور الخيال تعجباً   وهو الخيال بعينه لو أبصرا

وقال رضي الله عنه: رأيت ليلة كأني في سماء الدنيا وإذا برجل أسمر اللون قصير الطول كبير اللحية، فقال قل:

اللهم اغفر لأمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم استر أمة محمد، اللهم اجبر أمة محمد.

هذا دعاء الخضر، من قاله كل يوم كتب من الأبدال، فقيل لي: هذا الشيخ ابن أبي شامة، فلما انتهت أتيت إلى الشيخ أبي الحسن

رضي الله عنه فجلست ولم أخبره بشيء، فقال: اللهم اغفر لأمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم استر أمة محمد، اللهم اجبر أمة محمد، هذا دعاء الخضر من قاله كل يوم كتب من الأبدال.

وقال رضي الله عنه: كنت أخرج كل يوم من باب البحر إلى نحو المنار، فخرجت يوماً إلى المنار، فنمت عند الجانب الشرقي، وكان قد خطر في نفسي: ما سبب قلة رواية أبي بكر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ مع كثرة ملازمته له؟

فإذا قائل يقول لي: أعلم الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وإنما قلت روايته عنه لتحققه به.

وقال رضي الله عنه: طالعت مقام الرحمة فإذا قائل يقول لي: والله ليكونن من رحمة الله يوم القيامة ما ينال منها ابن أبي الطواجن هذا قد قتل الشيخ القطب عبد السلام ابن مشيش شيخ الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما.

وقال رضي الله عنه: كنت مع الشيخ في مدينة الرسول ﷺ فأردت أن أزور حمزة رضي الله عنه، فخرجت من المدينة فتبعني رجل فأتينا إلى التربة، فإذا الباب مغلق، فانفتح ببركة رسول الله ﷺ فدخلنا فوجدنا هناك رجلاً من الأبدال فقلت للرجل الذي تبعني: ادع في هذا الوقت بما تريد، فإنه يستجاب لك، فدعا ذلك الرجل أن يعطيه الله ديناراً، فلما رجعنا إلى المدينة لقيه رجل فأعطاه ديناراً، فلما دخلنا على الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه قال له: يا بطال صادفت وقت إجابة فسألت الله ديناراً! هلا سألت الله كما سأله أبو العباس، سأله أن يكفيه هم الدنيا وعذاب الآخرة وقد استجاب الله له في ذلك.

وقال رضي الله عنه: كنت يوماً جالساً بين يدي الأستاذ فدخل عليه

جماعة من الصالحين فلما خرجوا من عنده قال: هؤلاء أبدال، فنظرت ببصيرتي فلم أجدهم أبدالاً، فتحيرت بين ما أخبر به الشيخ، وبين ما شهدته بصيرتي، فبعد ذلك بأيام قال الشيخ: من بدلت سيآته حسنات فهو بدل، فعلمت أن الشيخ أراد أول مراتب البدلية.

وأخبرني الشيخ العارف نجم الدين الأصبهاني، قال: قال لي الشيخ أبو العباس يوماً: ما اسم كذا وكذا بالعجمية؟ فخطر لي أن الشيخ يجب أن يقف على لغة العجم، فأتيت إليه بكتاب «الترجمان» قال؛ فقال الشيخ: ما هذا الكتاب؟ فقلت كتاب «الترجمان» قال: فضحك الشيخ وقال: سل بالعجمية ما شئت أجبك بالعربية، وسل ما شئت بالعربية أجبك بالعجمية، فسألته بالعجمية فأجابني بالعربية، وسألته بالعربية فأجابني بالعمجية، وقال. يا عبد الله ما أردت بقولي ما اسم كذا إلا مباسطتك، وإلا فلا يكون صاحب هذا الشأن، ويخفى عليه شيء من الألسنة.

وأخبرني أيضاً قال: قال الشيخ أبو العباس يوماً: كم بين بلدة كذا وبلدة كذا من نهر لبلدتين من بلاد العجم؟ فقلت أربعة أنهر فقال: والنهر الذي غرقت فيه فذكرت أني نسيت نهراً أتيت لأخوضه فكدت أن أغرق فيه.

وأخبرني الشيخ العارف ياقوت: قال عزم علي إنسان فقدم لي طعاماً، فرأيت عليه ظلمة كالمكب فقلت في نفسي: هذا حرام فامتنعت من أكله، ثم دخلت على الشيخ أبي العباس رضي الله عنه فقال: أول ما جلست: ومن جهلة المريدين من يقدم له طعاماً فيرى عليه ظلمة فيقول هذا حرام، يا مسكين ما يساوي ورعك سوء ظنك في أخيك المسلم هلا قلت هذا طعام لم يردني الله به.

ودخلت أنا عليه يوماً، وفي نفسي ترك الأسباب والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر قائلاً: إن الوصول إلى الله لا يكون إلا على هذه الحالة.

فقال من غير أن أبدي به شيئاً: صحبني بقوص إنسان يقال له: ابن ناشي وكان مدرساً بها ونائب الحكم، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا. فقال: يا سيدي أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟

فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك واصل.

ثم قال: وهذا شأن الصديقين، لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى إخراجهم.

فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي وكأنما كانت ثوباً نزعته، ورضيت عن الله فيما أقامني فيه.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: رأيت وأنا بالمغرب دائرة من الرجال، ورجل في وسطها، وكل من في تلك الدائرة متوجه إليه، فقلت في نفسي: هذا هو القطب، أما الذين يقابلون بطني لهم المدد من باطن حقيقتي، والذين يقابلون ظهري لهم المدد من ظاهر علمي، والذين يقابلون جنبي لهم المدد من العلوم التي بين جنبي.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلي ينزل من السماء، والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله، متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبت رجليه في الأرض،

وتهيأ لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه، ودخل من رأسه، حتى غاب فيه واستيقظت.

وأخبرني الشيخ محمد السراج رحمه الله قال: كنت ليلة من الليالي نائماً وأنا أرى في المنام قائلاً يقول لي: اذهب إلى خارج الإسكندرية من باب السدرة، فأول بستان تلقاه من الجانب الأيسر فادخل فيه فإنك تجد فيه جماعة من الناس، الجالس منهم تحت أطول نخلة هناك رجل من الرجال، ثم قيل: إن في الجامع حلقة من دخل فيها فهو آمن، فلما أصبحت خرجت إلى ظاهر الإسكندرية ودخلت أول بستان من الجانب الأيسر، فوجدت حلقة هناك، فرفعت بصري لأنظر إلى أطولها نخلة، فإذا قائل يقول لي: كلها طوال، فإذا الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه، فسلمت عليه وجلست وقلت؛ يا سيدي رأيت البارحة كذا وكذا وقصصت عليه الرؤيا فقال: الجامع أنا، والحلقة هم أصحابي، ومن دخل فيها فهو آمن أي من دخل في شروطنا فهو آمن، ثم قال: أنا الليلة أتيك فقلت: يا سيدي انتظرك على الباب، أو أترك الباب لك مفتوحاً؟ فقال: لا. ولكن أغلق بابك، وأنا آتيك.

قال: فلما كان الليل أخذني شبيه الوهم، وصرت أقول: من أين يأتي؟ من هنا يأتي، لا بل من هنا يأتي، فلم أطق المكث، فخرجت إلى رباط الواسطي، وصعدت المأذنة، ووقفت أصلي، فأنا في الصلاة، وإذا الشيخ أبو العباس قد أتى في الهواء وقال: يا محمد، أتظن أنك إذا جئت هنا لأني لم أطق المكث، وهالني الأمر، وكان المخاطب له مني لساناً آخر غير الذي كنت أقرأ به.

وأخبرني بعض أصحابه قال: كنا مع الشيخ بمدينة «قوص»، وكان من أصحاب الشيخ أبي العباس أبو الحسن المرسي، وكان في خلقه

حدة فنزل ولد الشيخ يوماً يلعب كما يلعب الصبيان، فقال له الشيخ أبو الحسن المرسي: اطلع لا أطلعك الله، فسمعه الشيخ أبو العباس فنزل وقال؛ يا أبا الحسن حسن خلقك مع الناس، بقي لك عام وتموت، فمات إلى تمام العام.

وأخبرني أبو عبد الله الحكيم المرسي رحمه الله قال قدم علينا الشيخ بأشموم، فلما جن الليل دعاني الشيخ وقال: ادن مني يا حكيم، فدنوت منه، فوضع يده خلف ظهري، وفعلت أنا كذلك، وضمني إليه وبكى: فبكيت لبكائه ولم أدر مم بكى؟ فقال يا حكيم ما جئتكم إلا مودعاً، يا حكيم نذهب إلى المقسم نودع أخي ثم نعود إلى الإسكندرية نبيت بها ليلة، وندخل في اليوم الثاني قبري، فسافر فأقام عند أخيه مدة يسيرة، ثم انحدر إلى الإسكندرية، فأقام بها ليلة، ودخل في اليوم الثاني قبره كما قال، رحمه الله.

وأخبرني سيدي جمال الدين ولد الشيخ رضي الله عنهما: قال ورد رسول الأفرنج إلى الإسكندرية، فذهبت لأنظره، ولم أعلم الشيخ، فلما جئت قال: أين كنت؟ قلت ههنا.

قال: بل ذهبت تنظر رسول الأفرنج، أتظن أن شيئاً من أحوالك يخفى علي؟ كان الرسول لابساً كذا وكذا، راكباً على كذا عن يمينه فلان، وعن يساره فلان فوصف الحال على ما كانت عليه.

وأخبرني عبد العزيز المدبولي قال؛ قال لي الشيخ: يا عبد العزيز سقيت الفرس؟ فقلت: نعم، فكرر مراراً وأنا أقول نعم، ففي المرة الأخيرة قال يالله وطار في الهواء حتى غاب عن بصري، فلما كان في اليوم الثاني، قال يا عبد العزيز، ما الذي يحوج الإنسان منكم أن يقول غير الحق، كنت تقول ما سقيتها، وماذا كنت أصنع بك إذا لم تسقها.

وكنت أنا سمعت الطلبة يقولون: من يصحب المشايخ لا يجيء منه في العلم الظاهر شيء، فشق علي أن يفوتني العلم، وشق علي أن تفوتني صحبة الشيخ رضي الله عنه.

فأتيت إلى الشيخ فوجدته يأكل لحماً بخل فقلت في نفسي: ليت الشيخ يطعمني لقمة من يده فما استتممت الخاطر إلا وقد دفع في فمي لقمة في يده ثم قال:

نحن إذا صحبنا تاجراً ما نقول له اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له اترك طلبك وتعال ولكن نقر كل أحد فيما أقامه الله فيه، وما قسم على أيدينا فهو واصل إليه.

وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ فما قال لتاجر اترك تجارتك ولا لذي صنعة أترك صنعتك، بل أقرهم على أسبابهم وأمرهم بتقوى الله فيها. وسمعته يقول: سافرت إلى «قوص» ومعي خمس أنفس: الحاج سليمان. وأحمد بن الزين، وأبو الربيع وأبو الحسن المرسي، وفلان، فقال لي إنسان: ما الذي تقصد بسفرك يا سيدي؟ فقلت له: أدفن هؤلاء بقوص وأجيء، فدفنت الخمسة بها، أما الحاج سليمان فما مات حتى شرب من حوض الكوثر، وأخبرني بعض أصحابه قال؛ نزل عنده بعض الأعيان فقال في نفسه أشتهي من ينبهني قبل الفجر بمنزلة ويأتيني بإبريق ماء سخن، ويأتيني بسراج ويريني محل الطهارة، قال فما كان قبل الفجر إلا وطارق يطرق الباب، فخرجت فإذا هو الشيخ فقال: الوقت قبل الفجر بمنزلة وهذا ابريق فيه ماء سخن، وهذه شمعة تعال حتى أريك محل الطهارة.

وكنت قلت لبعض أصحاب الشيخ أريد لو نظر إلي الشيخ بعناية

وجعلني في خاطره، فقال ذلك للشيخ، فلما دخلت على الشيخ رضي الله عنه قال:

لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا في خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ في خاطركم، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم تكونون عنده.

ثم قال: أي شيء تريد أن تكون، والله ليكونن لك شأن، والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك كذا، والله ليكونن لك كذا، لم أثبت منه إلا قوله «ليكونن لك شأن عظيم»، فكان من فضل الله سبحانه ما لا ننكره.

وأخبرني سيدي جمال الدين ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ: هم يريدون يصدرون ابن عطاء الله في الفقه، فقال الشيخ:

هم يصدرونه في الفقه، وأنا أصدره في التصوف.

ودخلت أنا عليه فقال لي: إذا عوفي الفقيه ناصر الدين يجلسك في موضع جدك، ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية، وتتكلم إن شاء الله في العلمين فكان ما أخبر به رضي الله عنه.

وسمعته يقول: أريد أن أستنسخ كتاب التهذيب لولدي جمال الدين، فذهبت أنا فاستنسخته من غير أن أعلم الشيخ، وأتيته بالجزء الأول فقال ما هذا؟ قلت كتاب التهذيب استنسخته لكم، فأخذه فلما نهض ليقوم قال اجعل بالك، الولي لا يتفضل عليه أحد تجد هذا إن شاء الله في ميزانك، فلما أتيته بالجزء الثاني لقيني بعض أصحابه بعد نزولي من عنده، وقال: قال الشيخ عنك والله لأجعلنه عيناً من عيون الله يقتدي به في العلم الظاهر والباطن، فلما أتيته بالجزء الثالث ونزلت من

عنده لقيني بعض أصحابه وقال طلعت عند الشيخ فوجدت عنده مجلدة حمراء، فقال هذا كتاب استنسخه لي ابن عطاء الله، فوالله ما أرضى له بجلسة جده، ولكن بزيادة التصوف.

وأخبرني بعض أصحابه قال؛ قال الشيخ يوماً: إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية، فأعلموني به.

فلما أتيت أعلمنا الشيخ بك، فقال تقدم فتقدمت بين يديه، ثم قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذبته قريش، فقال له جبريل عليه السلام هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك في قريش فسلم عليه ملك الجبال وقال: يا محمد إن شئت أطبق عليهم الأخشبين فعلت، فقال رسول الله ﷺ: لا، ولكن أن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله ولا يشرك به شيئاً، فصبر عليهم رسول الله ﷺ رجاء من يخرج من أصلابهم[1]، كذلك صبرنا على جد هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه.

---

(١) عندما لقي رسول الله ﷺ من أهل الطائف الكثير من الأذى ودعا دعاءه المشهور «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس» عند ذلك نزل عليه جبريل ومعه ملك الجبال وكما روى البخاري بسنده عن عائشة قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من أحد؟ فقال:

لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت على وجهي وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأس، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك وقد بعثت إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي فقال: يا محمد ذلك لك: إن شئت أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: بل أرجو ان يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً..» وانظر الروض الأنف ٤ ـ ٥٦ ـ ٥٧.

وخرجت يوماً من عند الفقيه مكين الدين الأسمر رضي الله عنه وخرج معي أبو الحسن الجزيري ـ وكان من أصحاب الشيخ أبي الحسن ـ فسلمت عليه فسلم علي ببشاشة وإقبال، فقلت له: من أين تعرفني؟ فقال وكيف لا أعرفك كنت يوماً جالساً عند الشيخ أبي العباس وكنت أنت عنده فلما نزلت قلت له: يا سيدي إنه ليعجبني هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة، وهذا الشاب ملازم قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله فكان كما قال الشيخ ولله الحمد.

وأخبرني أبو الحسن هذا، قال: كنت ليلة عند الشيخ أبي الحسن، وكان يقرأ عليه كتاب «ختم الأولياء» للترمذي الحكيم، فرأيت واحداً جالساً لم يطلع معنا: ولم يكن عند الشيخ وقت طلوعنا، فقلت لإنسان إلى جانبي: من هذا الرجل الجالس إلى جانب فلان؟

فقال: ما ههنا أحد غير الجماعة الذين تعرفهم، فسكت وعلمت أنه لم يره فلما انصرف الجمع سألت الشيخ أبا الحسن رضي الله عنه فقلت: يا سيدي رأيت هنا رجلاً لم يطلع معنا ولم يكن عندك قبل طلوعنا، فقال الشيخ: ذاك أبو العباس المرسي يأتي كل ليلة من المقسم حتى يسمع الميعاد ثم يعود من ليلته إلى مكانه والشيخ أبو الحسن إذ ذاك بالإسكندرية.

وكنت كثيراً ما يطرأ علي الوسواس في الطهارة فبلغ ذلك الشيخ أبا الحسن فقال: بلغني أن بك وسواساً في الوضوء.

قلت: نعم.

فقال رضي الله عنه: هذه الطائفة تلعب بالشيطان. لا الشيطان يلعب بها، ثم مكثت أياماً ودخلت عليه فقال: ما حال هذا الوسواس؟

فقلت: على حاله.

فقال: إن كنت لا تترك هذه الوسوسة لا تعد تأتينا. فشق ذلك علي وقطع الله الوسواس عني.

وكان رضي الله عنه يلقن للوسواس: «سبحان الملك الخلاق، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز».

وعملت فيه قصيدة أمدحه بها سيأتي ذكرها إن شاء الله آخر الكتاب فقال ـ حين أنشدت ـ أيدك الله بروح القدس، ثم عملت قصيدة أخرى بإشارته ـ جواباً لقصيدة مدحه بها إنسان من بلاد أخميم وسيأتي ذكرها أيضاً آخر الكتاب إن شاء الله تعالى ـ فلما قرئت عليه قال: هذا الفقيه صحبني وبه مرضان، وقد عافاه الله منهما، ولا بد أن يجلس ويتحدث في العلمين.

يشير الشيخ إلى مرض الوسوسة فقد انقطع عني ببركة الشيخ حتى صرت أخاف أن أكون لشدة التوسعة التي أجدها قد تساهلت في بعض الأمور.

والمرض الآخر: كان بي ألم برأسي فشكوت ذلك إليه فدعا لي، فعافاني الله وشفاني.

وبت ليلة من الليالي مهموماً، فرأيت الشيخ في المنام فشكوت إليه ما أنا فيه، فقال: اسكت والله لأعلمنك علماً عظيماً، فلما استيقظت أتيت إلى الشيخ رضي الله عنه. فقصصت عليه الرؤيا. فقال: هكذا تكون إن شاء الله.

وقدم يوماً من السفر فخرجنا للقائه فلما سلمت عليه قال: يا أحمد كان الله لك، ولطف بك، وسلك بك سبيل أوليائه، وبهاك بين خلقه،

فلقد وجدت بركة هذا الدعاء، وعلمت أنه لا يمكنني الانقطاع عن الخلق، وأني مراد بهم، لقوله: «وبهاك بين خلقه».

وكنت أنا لأمره من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا لشيء صح نقله عنه، حتى جرت بيني وبين بعض أصحابه مقاولة، وذلك قبل صحبتي إياه، وقلت لذلك الرجل.

ليس إلا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظاماً وظاهر الشرع يأباها، فقال ذلك الرجل: بعد أن صحبت الشيخ: تدري ما قاله لي الشيخ يوم تخاصمنا؟ قلت: لا.

قال: دخلت عليه فأول ما قال لي: هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خير مما أصابك، فعلمت أن الشيخ كوشف بأمرنا، ولعمري لقد صحبت الشيخ اثني عشر عاماً فما سمعت منه شيئاً ينكره ظاهر العلم، من الذين كان ينقله عنه من يقصده بالأذى.

وكان سبب اجتماعي به أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل دعني أذهب أرى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارب بها فقال:

الأول إسلام.

والثاني: إيمان.

والثالث: إحسان.

وإن شئت قلت: الأول عبادة.

والثاني: عبودية.

والثالث عبودة.

وإن شئت قلت: الأول شريعة.

والثاني حقيقة.

والثالث: تحقق، أو نحو هذا.

فما زال يقول: «وإن شئت قلت» «وإن شئت قلت» إلى أن بهر عقلي وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلّهي، ومدد رباني، فأذهب الله ما كان عندي، ثم أتيت تلك الليلة، إلى المنزل فلم أجد في شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل على عادتي، ووجدت معنىً غريباً لا أدري ما هو، فانفردت في مكان أنظر إلى السماء وإلى كواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى، فأتيت إليه فاستؤذن علي فلما دخلت عليه، قام قائماً وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك، فكان أول ما قلت له يا سيدي أنا والله أحبك.

فقال أحبك الله كما أحببتني، ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان فقال رضي الله عنه:

أحوال العبد أربعة لا خامس لها:

النعمة والبلية والطاعة والمعصية.

فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر.

وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر.

وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منته عليك.

وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار.

فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوباً نزعته ثم سألني بعد ذلك بمدة كيف حالك؟

فقلت أفتش على الهم فلا أجده، فقال رضي الله عنه:

لـيلي بـوجـهـك مـقـمـر وظـلامـه في الـنـاس سـار
والـنـاس في سـدف الـظلا م ونـحن فـي ضـوء الـنـهـار

الزم: فوالله لئن لزمت لتكونن مفتياً في المذهبين، يريد.

مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر.

ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن.

الباب الخامس

في علمه وزهده وصبره وسداد طريقته

محمد
رسول
الله

كان رضي الله عنه لا تتحدث معه في علم من العلوم إلا تحدث معك فيه، حتى يقول السامع: إنه لا يحسن غير هذا العلم ـ لاسيما علم الحديث والتفسير.

وكان يقول: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه.

وكان كتابه في أصول الدين «الإرشاد». وفي الحديث كتاب «المصابيح»، وفي الفقه «التهذيب والرسالة» وفي التفسير كتاب ابن عطية[1].

ولقد كان يقرأ عليه بعض المغرقين في العربية فيرد عليه اللحن.

وأما علوم المعارف والأسرار فقطب رحاها وشمس ضحاها، تقول إذا سمعت كلامه: هذا كلام من ليس وطنه إلا غيب الله هو بأخبار أهل

---

(١) كتاب ابن عطية: هو كتاب المحرر الوجيز، وله من اسمه نصيب، فهو محرر، وهو في عرف ابن عطية وجيز، وإن كان متوسط الحجم، وما زال الكتاب مخطوطاً، ولكن عدة جهات تعمل على نشره، ونرجو الله لهم التوفيق.

السماء أعلم منه بأخبار أهل الأرض.

وسمعت أن الشيخ أبا الحسن قال عنه أبو العباس بطرق السماء أعرف منه بطرق الأرض.

كنت لا تسمعه يتحدث إلا في العقل الأكبر، والاسم الأعظم، وشعبه الأربع، والأسماء، والحروف، ودوائر الأولياء، ومقامات الموقنين، والأملاك المقربين عند العرش، وعلوم الأسرار، وأمداد الأذكار، ويوم المقادير، وشأن التدبير، وعلم المشيئة، وشأن القبضة، ورجال القبضة، وعلوم الأفراد، وما سيكون يوم القيامة من أفعال الله مع عباده من حلمه وإنعامه، ووجود انتقامه حتى لقد سمعته يقول:

والله لولا ضعف العقول لأخبرت بما يكون غدا من رحمة الله.

وإن تنزل إلى علوم المعاملة ففي الزمن اليسير لحاجة الخلق إلى ذلك، ولذلك قل أتباع من هذه علومه، وقد يكثر المشتري للمرجان، وقل أن يجتمع على شراء الياقوت اثنان، ولذلك كان يقول رضي الله عنه.

أتباع أهل الحق قليلون وقد قال الحق سبحانه.

﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾.

وقال سبحانه: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾.

وقال سبحانه: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقال في أهل الكهف: ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾.

فأولياء الله أهل كهف الإيواء فقليل من يعرفهم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: معرفة الولي أصعب من معرفة الله،

فإن الله معروف بكماله وجماله، ومتى حتى تعرف مخلوقاً مثلك، يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب.

وأما زهده في الدنيا فيستدل على الزهد في الدنيا بالزهد في الرئاسة، ويستدل على الزهد في الرئاسة بالزهد في الاجتماع بأهلها، ولقد مكث رضي الله عنه بالإسكندرية ستاً وثلاثين سنة ما رأى وجه متوليها ولا أرسل إليه، وطلب ذلك المتولي بالإسكندرية فأبى الشيخ من ذلك.

وقال له الزكي الأسواني: يا سيدي متولي الإسكندرية قال: إنه يريد الاجتماع بك، ويأخذ بيدك فتكون شيخه.

فقال له الشيخ يا زكي، لست ممن يلعب به، والله إني ألقى الله، ولا يراني (المتولي) ولا أراه فكان كذلك.

وكان إذا نزل بلدة وقيل له: متولي البلد يريد أن يأتيك غداً، سافر هو ليلاً.

ولقد كان يأتي إليه متولي الثغر وناظره ومشد الدواوين به، قليلة إتيانهم يغلب القبض عليه، ولا ينبسط للكلام كحاله في عدم حضورهم حتى كنا نقول ليت ذلك الكلام الذي كان في غيبتهم كان ليلة حضورهم.

ولقد أتي إليه الشجاعي في بحبوحة عزه، وتمكنه من السلطنة، فما ألوى إليه عنان همته. ولا فوق إليه سهام عزيمته، حتى لقد بلغني أن الزكي الأسواني لما استعرض الشجاعي حوائجه قال للشيخ؛ يا سيدي اطلب منه أرضاً يزرعها أصحابك:

فقال: يا زكي هذا ما لا يكون أبداً.

ومن زهده رضي الله عنه أنه خرج من الدنيا وما وضع حجراً على

حجر، ولا اتخذ بستاناً، ولا افتتح سبباً من أسباب الدنيا، ولا خلف وراءه ورقة مع أن الزهد وصف من أوصاف القلوب يصف الله به قلب من أحبه، ولكن له علامات تدل عليه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: رأيت الصديق في المنام، فقال لي: أتدري ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قلت: لا أدري، قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد، ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المنام، فقلت: يا أمير المؤمنين ما علامة حب الدنيا؟ قال: خوف المذمة وحب الثناء.

فإذا كان علامة حبها خوف المذمة، وحب الثناء فعلامة الزهد فيها وبغضها أن لا يخاف المذمة ولا يحب الثناء.

وأما ورعه فلقد أخبرني بعض أصحابه أنه دخل يوم بيت واحد من الجماعة في البرج الذي هو فيه فوجده يضرب فيه وتداً، قال: فاتفق للشيخ من الحرج الأمر الكبير، وقال: كيف يحل لك أن تتصرف في الحبس[1] بأمر لم يؤذن لك فيه.

وكان يقول: والله ما دخل بطني حرام قط.

وكان يقول: الورع من ورعه الله.

وقال رضي الله عنه: عزم علينا بعض صلحاء الإسكندرية في بستان له بالرمل، فخرجت أنا وجماعة من صلحاء الثغر، ولم يخرج معنا صاحب البستان ذلك الوقت، بل وصف لنا المكان فتجاربنا ونحن

(١) الحبس: هو الوقف ـ والمراد أنه يدق وتداً في بناء الوقف.

خارجون الكلام في الورع، فكل قال شيئاً، فقلت لهم: إنما الورع من ورعه الله، فلما أتينا البستان، وكان زمن ثمرة التوت كلهم أسرع إلى الأكل وأكل، وكنت كلما جئت لآكل أجد وجعاً في بطني، فأرجع فينقطع الوجع عني، فعلت ذلك مراراً. فجلست ولم آكل شيئاً، فهم يأكلون، وإذا بإنسان يصيح كيف يحل لكم أن تأكلوا من ثمرة بستاني بغير إذني، فإذا هم قد غلطوا بالبستان، فقلت لهم: ألم أقل لكم إن الورع من ورعه الله سبحانه؟

واعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا قليل، فإن من جملة ورعهم تورعهم عن أن يسكنوا لغيره أو أن يميلوا بالحب لغيره أو تمتد أطماعهم بالطمع في غير فضله وخيره.

ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب، وخلع الأنداد والأرباب.

ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات، والاعتماد على الطاعات، والسكون إلى أنوار التجليات.

ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الوقوف مع الآخرة صفاء.

قال الشيخ عثمان بن عاشوراء: خرجت من بغداد أريد الموصل فأنا أسير وإذا بالدنيا قد عرضت علي: بعزها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشتهياتها، فأعرضت عنها، فعرضت لى الجنة: بحورها وقصورها وأنهارها وثمارها فلم أشتغل بها.

فقيل لي: يا عثمان لو وقفت مع الأولى لحجبناك عن الثانية، ولو وقفت مع الثانية لحجبناك عنها فها نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك.

وقال الشيخ عبد الرحمن المغربي ـ وكان مقيماً بشرقي الإسكندرية ـ: حججت سنة من السنين، فلما قضيت الحج عزمت على الرجوع إلى الإسكندرية، فإذا قائل يقول لي: أنك العام القابل عندنا، فقلت في نفسي: إذا كنت العام القابل ههنا فلا يقول لي: إنك العام القابل عندنا، فقلت في نفسي: إذا كنت العام القابل ههنا فلا أعود إلى الإسكندرية، فخطر لي الذهاب إلى اليمن، فأتيت إلى «عدن» فأنا يوماً على ساحلها أمشي، وإذا أنا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم، ثم نظرت فإذا رجل قد فرش سجادة على البحر، ومشى على الماء فقلت في نفسي: لم أصلح للدنيا ولا للآخرة، فإذا قائل يقول لي: من لا يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا.

وقال الشيخ أبو الحسن.

الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه.

فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله، وعن الله، والقول بالله، والعمل لله وبالله، على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة:

فهم في عموم أوقاتهم، وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون في عين الجمع لا يتفرقون فيما هو أعلا، ولا فيما هو أدنى، وأما أدنى الأدنى: فالله يورعهم عنه ثواباً لورعهم، مع الحفظ لمنازلات الشرع عليهم، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث فهو محجوب بدنيا أو مصروف بدعوى، وميراثه التعزز لخلقه، والاستكبار على مثله والدلالة على الله بعلمه، فهذا هو الخسران المبين، والعياذ بالله العظيم من ذلك.

والأكياس يتورعون عن هذا الورع، ويستعيذون بالله منه، ومن لم يزدد بعلمه وعمله افتقاراً لربه، وتواضعاً لخلقه فهو هالك، فسبحان من قطع كثيراً من الصالحين بصلاحهم عن مصلحتهم، كما قطع كثيراً من المفسدين بفسادهم عن موجدهم، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم:

فانظر فهمك الله سبيل أوليائه، ومن عليك بمتابعة أحبائه، هذا الورع الذي ذكر الشيخ رضي الله عنه: هل كان فهمك يصل إلى مثل هذا النوع من الورع: ألا ترى قوله: «فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة».

فهذا هو ورع الأبدال والصديقين لا ورع المتنطعين الذي ينشأ عنه سوء الظن وغلبة الوهم.

وأما رفع همته فكان آتياً من ذلك بالعجب العجاب، وقد تقدم من رفع همته عن ولاة الأمر مع استعراضهم لحوائجهم وتطارحهم عليه.

وقال رضي الله عنه يوماً لأصحابه: جاءني اليوم الطواشي بهاء الدين وهو مشد الدواوين إذ ذاك والفقيه شمس الدين الخطيب ـ وهو يومئذ ناظر الأحباس[1] ـ فقالا لي: إن هذه القلعة تحتاج إلى حصر وزيت، وقناديل، ويحتاج الفقراء فيها ما يأكلون، ونحن حكام الوقت نطلق لها شيئاً في كل شهر.

قال: فقلت لهم: حتى أشاروا أصحابي، وأنتم أصحابي فماذا تشيرون؟

فلم يرجع إليه أحد جواباً، فأعاد الأمر مراراً فلم يجبه أحد.

---

(١) الأحباس: هي الأوقاف.

فقال: اللهم اغننا عنهم، ولا تغننا بهم، إنك على كل شيء قدير، ولم يجبهم إلى ما ذكروا، ومات الشيخ رضي الله عنه، وليس للمكان مرتب ولا معلوم.

وسمعته رضي الله عنه يقول: والله ما رأيت العز إلا في رفع الهمة عن الخلق.

وسمعته يقول: رأيت كلباً في المحجة، ومعي شيء من الخبز فوضعته بين يديه، فلم يلتفت إليه، فقربته من فيه فلم يلتفت إليه، فإذا قائل يقول لي: أف لمن يكون هذا الكلب أزهد منه.

وسمعته يقول: خرجت يوماً أشتري حاجة من بعض من يعرفني بنصف درهم، فقلت في نفسي: ولعله لا يأخذه مني، فإذا قائل يقول لي السلامة في الدين بترك الطمع في المخلوقين.

قال فأتيت إلى الموضع الذي كنت مقيماً به، ودخلت وأغلقت الباب، فأنا جالس، وإنسان قد فتح الباب بمرة[1]، وقال: بماذا تكون السلامة في الدين؟

قال فقلت: بترك الطمع في المخلوقين، فأخذها كأنما كانت ضالة وجدها، فتبين من حاله أن الشيخ أبا الحسن كان قد قال له: اذهب إلى موضع الغلة، فاكتل لك ثلاث ويبات، فذهب فاكتال لنفسه إردباً، فبلغ ذلك الشيخ فقال: دعوا ما اكتاله في موضعه، وأعطوه ثلاث ويبات التي كنا أعطيناه إياها.

وقال رضي الله عنه: الطمع ثلاثة أحرف، كلها مجوفة فهو بطن كله، فلذلك صاحبه لا يشبع أبداً.

---

(١) مرة بكسر الميم أي قوة.

وكان يقول رحمه الله: للناس أسباب، وسببنا نحن الإيمان والتقوى، قال الله سبحانه:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

تنبيه وإعلام:

اعلم أن رفع الهمة عن الخلق شأت أهل الطريق، وصفة أهل التحقيق، ولقد سئل الجنيد: أيزني العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ولعمري لو سئل: أيطمع العارف في غير الله؟ لقال: لا، وإنما مراد الحق سبحانه أن يعبده العباد في كل شيء حباً وثقة، وتوكلا وخوفاً ورجاءً، وذلك الذي تستحقه فرديته.

وكان بعض العارفين ينشد:

حرام على من وحد الله ربه ... وأفرده أن يجتدي[2] أحداً رفدا
ويا صاحبي قف لي مع الحق وقفة ... أموت بها وجدا وأحيى بها وجدا
وقل لملوك الأرض تجهد جهدها ... فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

ورفع الهمة إنما ينشأ عن صدق الثقة بالله.

وصدق الثقة بالله إنما ينشأ عن الإيمان بالله على سبيل المعاينة والمواجهة فيوجب لهم إيمانهم الإعزاز بالله قال الله سبحانه:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

---

(١) الأعراف: ٩٦.
(٢) يجتدي: بطلب العطاء.
(٣) المنافقون: ٨.

والنصر من عند الله، قل سبحانه.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

والنجاة من العوارض الصادة عن الله قال الله سبحانه:

﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

فعز المؤمن بالله ثقته بمولاه، ونصرته على نفسه وهواه، ونجاته من العوارض أن تقطعه عن سبيل هداه.

وشعار أهل الإرادة ودثارهم الإكتفاء بالله، ورفع الهمة عما سواه، وصيانة ملابس الإيمان من أن تدنس بالميل إلى الأكوان، والطمع في غير الملك المنان.

ولنا في هذا المعنى:

بكرت تلوم على زمان أجحفا ... فصدفت[3] عنها علها أن تصدفا
لا تكثري عتباً لدهرك إنه ... ما أن يطالب بالوفاء ولا الصفا
ما ضرني أن كنت فيه خاملاً ... فالبدر بدر إن تبدي أو خفى
الله يعلم أنني ذو همة ... تأبى الدنايا عفة وتطرفا
لم لا أصون على الورى ديباجتي ... وأريهم عز الملوك وأشرفا
أأريهم أني الفقير إليهم ... وجميعهم لا يستطيع تصرفا
أم كيف أسأل رزقه من خلقه ... هذا ـ لعمري إن فعلت ـ هو الجفا
شكوى الضعيف إلى ضعيف مثله ... عجز أقام بحامليه على شفا
فاسترزق الله الذي إحسانه ... عم البرية منة وتعطفاً

(١) الروم: ٤٧.
(٢) يونس: ١٠٣.
(٣) صدفت: أي أعرضت.

والجأ إليه تجده فيما ترتجي　　لا تعد عن أبوابه متحرفا

والذي يوجب لك رفع الهمة عما سوى الله: علمك بأنه لم يخرجك إلى مملكته إلا وقد كفاك، ومنحك وأعطاك، ولم يبق لك حاجة عند غيره، وإذا كان قد اقتضى لهم الفهم عن الله أن يكتفوا بعلمه عن مسألته، فكيف لا يوجب لهم الفهم عن الله الاكتفاء بعلمه عن سؤال خلقه؟

ومن فاتحه الحق سبحانه بشيء مما فاتح به أحباءه فقد اقتضى منه رفع همته إليه، كما اقتضاه من غيره وأولى.

ألم تسمع قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾[1] الآية.

وكيف لا تكون منته فيك ومواهبه وفواتح عنايته وخصائص ولايته، ناهية لك عن التعلق بغيره؟

وكان بعض العارفين ينشد:

أبعد نفوذي في علوم الحقائق　　وبعد انبساطي في مواهب خالقي
وفي حين إشرافي على ملكوته　　أرى باسطاً كفا إلى غير رازقي؟

فإن كل ذي رتبة من المخلوقين لا يرضى منك أن تنسب له رتبة تضيف المنع والعطاء والولاية والعزل فيها لغيره؟

فاحذر أن تكون من الذين قال الله سبحانه فيهم:

---

(١) الحجر: ٨٧، ٨٨ ـ وتمام الآيتين: ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم، ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين﴾.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1].

وقبيح أن تكون في دار ضيافته وتوجه وجه طمعك لغيره.

ولنا في هذا المعنى.

أيحسن بي أني نزيل ذراكم[2] أوجه يوماً للعباد رجائيا
بلى إنني ألوي إليك أخلف فيها ما سواك ورائيا

ولا تتطلب ممن هو بعيد عنك، وتترك الطلب من مولى هو أقرب إليك من حبل الوريد.

ألم تسمع قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[3] الآية:

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾[4] الآية:

وقال سبحانه: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[6].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[7].

---

(١) يوسف: ١٠٦.
(٢) الذري: الكنف والضيافة والستر والدفء.
(٣) البقرة: ١٨٦ وتمامها: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾.
(٤) ق: ١٦.
(٥) غافر: ٦٠.
(٦) النساء: ٣٢.
(٧) الحجر: ٢١.

كل ذلك ليجمع همم عباده عليه، وكيلاً يرفعوا حوائجهم إلا إليه.

وأما حلمه رضي الله عنه فكان من شأنه أنه لا ينتقم لنفسه ولا ينتصر لها.

ولقد دخلت عليه يوماً فقال لي: ما تقول في فلان ـ رجل كان قد آذى الشيخ الأذى البالغ، أتى إلى أصحاب فلان، بعض من كان له الأمر في ذلك الزمن، وكان يتردد إلى الشيخ وقالوا: يا سيدي هذا الرجل الذي آذاك نسعى في ضربه وإشهاره في البلدتين مصر والقاهرة فماذا تقول أنت قلت: مصلحة فقال كالمنكر لأي شيء؟ قلت ذاك حتى يتشفى منه قال: «أنا ما أتشفى من أحد» قلت: إنما أردت الاتباع، قال: ولا نحمل أتباعي عن التشفي، فأطرقت خجلاً فما توجه أحد لنا بالأذى بعد ذلك، فنزلت به نازلة، فهمت النفس بالتشفي منه إلا وذكرت كلام الشيخ: «إنا ما أتشفى من أحد» حتى كأني قد سمعته ذلك الوقت فتخمد النفس عن التشفي بذلك، واتفق بعد مدة نحو خمسة عشر عاماً أن الذي كان قد سعى في أذية الشيخ سعى في أذيتنا فأنفقت له نازلة، فصانني الله من التشفي منه وسلم.

وكان الشيخ يقول: هذا الذي استشرتك فيه سيتفق لك معه مثل ما اتفق لي، فافعل معه كما فعلت معه، وهذا هو كلام الأكابر يطوى في صحائف قلوب المريدين، حتى إذا جاء وقته أظهره الحق سبحانه، كأنك قد سمعته في ذلك الوقت.

وربما أحضر الله بفكرك شيخك الذي خاطبك به بهيئته وزيه، وربما تمثل ذلك في الخيال المنفصل.

وربما حضر بوجوده الحسي عند وجود النوازل مثبتاً للمريد ومعلماً.

وسمعته رضي الله عنه يقول: ما سمعتوه مني ففهمتموه فاستودعوه الله يرده عليكم وقت الحاجة، وما لم تفهموه فكلوه إلى الله يتولى الله بيانه.

فكلام الأكابر مردود على المريدين وقت حاجاتهم فيظن المريد أنه ما أخذ ولقد أخذ، ولكن للحكمة بذر ونبات، ووقت البذر غير وقت النبات، وقد يبذر فيك بذر الحكمة ويبقى النبات موقوفاً على مجيء سحابة ماطرة فإذا جاءت أظهرت من الأرض ما كان فيها كامن، فتبقى الودائع مطوية في العباد حتى تجيء أوقاتها.

وبلغني عن الشيخ أبي الحسن أنه كان يقول: لا حجاب إلا الوقت.

وسمعته يوماً يقول: كان إذا آذاني إنسان يهلك للوقت وأنا الآن لست كذلك فرآني رضي الله عنه مستشرفاً لسبب ذلك، فقال: اتسعت المعرفة.

وسمعته يقول: لحوم الأولياء مسمومة!

واعلم علمك الله من العلم الذي يدل عليه، وجعلك من الدائمين بين يديه. أن انتصار الحق لأوليائه ليس ذلك لهم لأنهم طلبوه من الله، ولكن لما صدقوا التوكل عليه، وأرجعوا الأمر إليه، انتصر الحق لهم، ألم تسمع قوله تعالى:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله عز وجل:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

ولا نقولن هم ممن ينتصر لنفسه منك، بل عدهم من ينتصر الله

له، فإنه الغالب الذي لا يغلب، والقادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا قبل لأهل السموات والأرض بذرة من بلائه، ولو وضع ذرة من ذرات قهره على الجبال لأذابتها.

ومعنى قول الشيخ: «اتسعت المعرفة»، أن المريد في مبدأ إرادته بهمته، وفي نهايته بوجود معرفته، فإذا كان في مبدأ إرادته توجه بصدق الهمة إلى الله لاجئاً إليه في الانتقام ممن آذاه فينتصر الحق له لتوجهه بصدق الهمة في طلب النصرة، ولضيق عطنه عن الصبر على تأخر الانتقام له، والعارف اتسع عليه بحر المعرفة، فانطوت همته وإشاءته وتدبيره في إشاءة الحق له، وتدبيره إياه، ومن غلب عليه شهود المشيئة فأي همة تبقى له!

وأيضاً: إنه إذا أخرت عقوبة من آذاه شهد حسن اختيار مولاه، فلم يعجل له الانتصار، لأنه لايخشى على المريد من عدم الصبر إذا أخر الانتقام له.

وأيضاً: إن العارف لما توجه لطلب الانتقام ممن ظلمه قامت الرأفة والرحمة القائمتان به لتخلقه بخلق معروفة[1] فمعناه من الانتصار، وإن كان على ذلك قادراً، وكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعالا فيهم!؟

ثم أولياء الله إذا ظلموا على طبقات:

داع يدعو على من ظلمه، استثار الأذى منه القرح، واستخرج منه الاضطرار، فهذا الذي لا يرد دعاؤه ومنه قوله ﷺ:

«واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[2].

---

(١) أي لتخلقه بخلق الله سبحانه من الرحمة والرأفة.

(٢) رواه أحمد والبخاري في الزكاة والجهاد والمظالم والمغازي ومسلم في الإيمان وأبو_

القسم الثاني: وهم الذين إذا ظلموا لجئوا إلى الله سبحانه في طلب النصرة وتعجيل الإجابة، غير أنهم علموا أن الله يعلم السر وأخفى فرفعوا أمرهم إلى الله سراً بسر وهؤلاء أولى بانتصار الحق لهم لتوكلهم عليه، ولإرجاعهم الأمر إليه، وقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(1).

ولقد ذكر أن امرأة كان لها دجاجة، ليس عندها غيرها، وكانت تتقوت من بيضها فجاء سارق فسرقها، فلم تدع عليه، وأرجعت الأمر إلى الله سبحانه فأخذ السارق الدجاجة فذبها ونتف ريشها فنبت جميعه بوجهه، فسعى في إزالة ذلك فلم يستطع، وسأل الناس فلم يقدر أحد على إزالـة ما نزل به، إلى أن أتى حبراً من أحبار بني إسرائيل، فقال: لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك المرأة التي سرقت دجاجتها، فإن فعلت ذلك شفيت.

فأرسل إليها من قال لها: أين دجاجتك التي كانت عندك؟

قالت: سرقت.

قالوا: لقد آذاك من سرقها.

قالت: قد فعل.

قالوا: وقد فجعك في بيضها.

قالت: هو كذلك.

فما زالوا بها حتى أثاروا الغضب منها، فدعت عليه، فتساقط الريش من وجهه.

= داود في الزكاة والترمذي في الزكاة والنسائي في الزكاة وابن ماجه في الزكاة والدارمي في الزكاة.

(1) الطلاق: ٣.

فقيل لذلك الحبر: من أين علمت هذا؟

قال: إنها لما سرقت دجاجتها لم تدع عليه، ورجعت إلى الله في أمره، فانتصر الله لها، فلما دعت انتصرت لنفسها، فسقط الريش من وجه السارق.

القسم الثالث؛ عباد لما ظلموا لم يدعوا ولم يلجئوا إلى الله في طلب الانتقام ممن ظلمهم، ولكن فوضوا الأمر إلى الله، فكان هو المختار لهم.

القسم الرابع: وهم الطبقة العليا وهم الذين إذا ظلموا رحموا من ظلمهم.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه.

وإذا آذاك ظالم فعليك بالصبر والاحتمال، واحذر أن تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان، ظلم غيرك لك، وظلمك لنفسك!

فإذا فعلت ما ألزمت به من الصبر والاحتمال أثابك سعة الصدر حتى تعفو وتصفح، وربما أثابك من نور الرضا ما ترحم به من ظلمك فتدعو له، فتجاب فيه دعوتك.

وما أحسن حالك إذا رحم بك من ظلمك، فتلك درجة الصديقين الرحماء: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(١).

ومن هذا القبيل الذي ذكره الشيخ أبو الحسن: ما اتفق لإبراهيم بن أدهم ـ رضي الله عنه ـ أنه قال له جندي: أين العمران؟ فأشار إلى المقابر، فظن أنه يهزء به، فضربه فشجه، فطأطأ رأسه، وقال:

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

اضرب رأساً طال ما عصمت الله تعالى.

فقيل للجندي: هذا إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان، فانكب على رجليه يقبلهما، ويعتذر إليه، فقال له إبراهيم بن أدهم: والله ما رفعت يدك من ضربي إلا وأنا أسأل الله لك المغفرة لأني علمت أن الله يثيبني على ما فعلت بي، ويؤاخذك على ما فعلت فاستحييت أن يكون حظي منك الخير وحظك مني الشر.

فقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: ليس هذا عين الكمال، ما فعله الصحابي سعد أحد العشرة هو عين الكمال ادعت عليه امرأة أنه احتاز شيئاً من بستانها، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعمها وأمتها في مكانها فعميت وجاءت يوماً تمشي في بستانها، فوقعت في بئر فماتت، فلو كان ما فعله إبراهيم عين الكمال لكان الصحابي أولى به ولكنه كان سعد أميناً من أمناء الله، نفسه ونفس غيره عنده سواء، فما دعا عليها لأنها آذته، ولكن دعا عليها لأنها آذت صاحب رسول الله ﷺ، وإبراهيم لم يصل إلى هذه المرتبة، فترك الدعاء على الجندي لئلا يكون ذلك انتصاراً لنفسه، وسعد رضي الله عنه قد خلصه الله من نفسه وأبرزه إلى الخلق، يخلص به من يشاء من عباده، والصوفي لا يستقضي الحق لنفسه ولكن يستقضي الحق لربه.

فائدة:

اعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم في بداياتهم أن تسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا، وتتكمل فيهم المزايا، وكيلا يساكنوا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد، ومن آذاك فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك، فقد استرقك بوجود امتنانه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: جبلت القلوب على حب من أحسن إليها.

وقال ﷺ: من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا[(١)] له كل ذلك ليتخلص القلب من إحسان الخلق، ويتعلق بالملك الحق.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك، وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك خير لك من أن تصاب في قلبك، ولعدو تصل به إلى الله، خير لك من حبيب يقطعك عن الله وعد إقبالهم عليك ليلاً وإعراضهم عنك نهاراً ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا؟

وتسليط الخلق على أولياء الله في مبدأ طريقهم سنة الله في أحبائه وأصفيائه، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلاً تصحبه لطائف رحمتك، وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقد تصحبه أنوار محبتك.

ومما يدلك على أن هذه سنة الله في أحبائه وأصفيائه قول الله سبحانه:

﴿ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[(٢)]، وقوله عز وجل:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾[(٣)].

---

(١) رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح بنحوه.
(٢) البقرة: ٢١٤.
(٣) يوسف: ١١٠.

وقوله عز وجل:

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1] وقوله عز وجل:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾[2].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

فمن حالهم في بداياتهم طأطأ إبراهيم رأسه حين ضربه الجندي وقال: اضرب رأساً طال ما عصت الله تعالى.

وقوله: فرحت من عمري مرتين.

مرة كنت في مسجد فأصابني البطن فكنت أقوم وأقعد فجاء صاحب المسجد وأمرني أن أخرج فلم أستطع لقوة الضعف، فأخذ برجلي يجرني حتى أخرجني!!.

والمرة الثانية: ركبنا في سفينة وكان هناك مضحاك، فكان يقول كنا نأخذ العلج في بلاد الروم هكذا ويمد يده إلى لحيتي فيهزها فأعجبني ذلك إذ لم ير في السفين من هو أحقر مني.

وهذا شأنهم في بداياتهم علماً منهم بوجود البقايا فيهم فخافوا أن ينتصروا فينتصروا لأنفسهم، فيسقطون من عين الله تعالى، فرجعوا إلى وجود الحلم كافين أيديهم عن الانتصار، لعلمهم بآفات الانتصار للنفس، وشرعة الحق سبحانه وعادته في أصفيائه كثرة الأعداء والنصرة منه لهم عليهم.

---

(١) القصص: ٦٢٥.

(٢) الحج: ٣٩، ٤٠.

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

آذاني إنسان مرة فضقت ذرعاً بذلك فنمت فرأيت قائلاً يقول لي: «من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يبالي بهم».

ويجب أن تعلم أن النفوس شأنها استحلاء الإقامة في مواطن العز والرفعة، فلو تركها الحق سبحانه وما تريد لهلكت، فأزعجها عن ذلك بما يسلط عليهم من أذى المؤذين ومعارضة الحاسدين.

وقال بعض العارفين: الصيحة من العدو سوط الله يضرب به القلوب، إذا ساكنت غيره لولا ذلك لرقد القلب في ظل العز والجاه، وهو حجاب عن الله عظيم.

وصدق رضي الله عنه.

وهذا الصنع من حسن نظر الله تعالى لأوليائه وأحبائه، وإظهار لآثار ولايته فيهم لقوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

فإذا تمت أنوارهم وتطهرت من البقايا أسرارهم حكمهم في العباد وإذلالهم، فحينئذ يكون العبد المجتبى سيفاً من سيوف الله تعالى ينتصر الله به لنفسه.

من هذا الباب دعا سعد على المرأة التي ادعت عليه كذباً وقال؛ اللهم اعم بصرها وأمتها في مكانها، فاستجيب له، ولما دخل على عثمان بن عفان رضي الله عنه الدار لطم إنسان وجه زوجته، فقال له عثمان رضي الله عنه: قطع الله يديك ورجليك وأدخلك في النار.

فرأى ذلك الرجل بالشام وقد قطعت يداه ورجلاه، وهو يقول: دعوة عثمان استجيبت في اثنتين وبقيت الثالثة، ولذلك قد تلتبس أحوال الرجال على عموم العباد فلا تفضل ولياً ظلم فصفح على ولي ظلم

فانتصر أو دعا، فقد يكون صفح من صفح لعلمه بالبقايا في نفسه، ودعاء الداعي لعلمه بتطهيره من البقايا فدعا انتصاراً لربه.

وأما صبره فكان رضي الله عنه من الثابتين في مركز الصبر، ، وكان به أمراض عديدة لو وضع بعضها على الجبال لذابت: كان به برد الكلى، وكان به الحصى، وكان به اثنا عشر باسوراً وهو يجلس للناس، ولا يقطع الجلوس لهم، ولا يتأوه في حين جلوسه، ولا يعلم الجالس عنده أن به شيئاً من الأمراض، ولم تكن الأمراض أورثته صفرة في الوجه، ولا تغيراً في البدن حتى كان يقول: لا تنظروا إلى حمرة وجهي فحمرة وجهي من قلبي.

ودخل عليه إنسان فوجد ألماً به، فقال ذلك الرجل: عافاك الله يا سيدي فسكت الشيخ رضي الله عنه ولم يجاوبه، ثم مكث ذلك الرجل ساعة، وقال: الله يعافيك يا سيدي، فقال الشيخ: وأنا سألت الله العافية، أنا قد سألته العافية والذي أنا فيه هو عين العافية.

رسول الله ﷺ قد سأل العافية وقد قال رسول الله ﷺ: ما زالت أكلة خيبر تعتادني فالآن قد قطعت أبهري[١].

عمر رضي الله عنه قد سأل الله تعالى العافية وبعد ذلك مات مطعوناً.

عثمان رضي الله عنه قد سأل الله العافية وبعد ذلك مات مذبوحاً.

على رضي الله عنه قد سأل الله العافية وبعد ذلك مات مقتولاً.

فإذا سألت الله العافية فاسأله العافية من حيث يعلمها لك أنها عافية.

---

(١) الأبهر: عرق في الظهر، يقال هو الوريد في العنق، وقال أبو عبيد: «الأبهر: عرق مستبطن في الصلب والقلب متصل به فإذا انقطع لم تكن معه حياة» اهـ.

وكان رضي الله عنه يقول: الصبر مشتق من الأصبار وهو الغرض الذي يرمى عليه بالسهام فالصابر من نصب نفسه غرضاً لسهام القضاء.

وكان هجيراه يسأل الله اللطف قل أن يفتر عن ذكر ذلك.

ودخلت عليه يوماً فوجدت ألماً به فقلت يا سيدي أظنك ضعيفاً فقال رضي الله عنه الضعيف من لا إيمان له ولا تقوى.

واعلم أن الصبر على ثلاثة أقسام:

صبر على الواجبات، وصبر على المحرمات، وصبر في البليات.

وصبر الأكابر على كتم الأسرار، وفقد الركون إلى الآثار، وعدم الوقوف مع الأنوار.

صبرهم على حمل الأذى، والثبوت تحت مجاري القضاء.

صبرهم على حمل أثقال العباد، والصبر مع الله فيما أراد.

صبرهم على القيام بأحكام العبودية، والثبوت لمجاري أحكام الربوبية.

صبرهم على مكارم الأخلاق، والقيام مع الله بشرط الوفاق.

صبرهم على جمع الهمم عليه، والرجوع في كل أمرهم إليه.

صبرهم على الجلوس للخلق، والدلالة على الملك الحق.

وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه يقول: والله ما جلست للخلق حتى هددت بالسلب.

وقيل لي: لئن لم تجلس للناس لنسلبنك ما وهبناك.

وأما سداد طريقته فكان رضي الله عنه شديد التحرز من حقوق

العباد، مسرعاً للوفاء بها حتى أنه يوفي قبل استحقاقه، ويحمل أصحابه على التخلص من حقوق العباد.

إذا كان عليه دين أحسن القضاء، وإذا كان له حق أحسن الاقتضاء، منقطعاً عن أبناء الدنيا والتردد إليهم، لا يرفع قدمه لأحد منهم ولا يبعث إليهم، ولا يكاتبهم إذا طلب منه أن يكتب إليهم، قال لطالب ذلك: أنا أطلب لك ذلك من الله، فإن رضي الطالب بذلك نجح مسعاه، ولطف به مولاه متبتلاً إلى الجلوس للخلق، لا تأتيه ليلاً ولا نهاراً إلا وجدته.

ولقد أتيته يوماً واستأذنت عليه، فقيل لي: اصبر قليلاً، فتشوشت من ذلك، وقلت: قد يكون بلغ الشيخ عني ما أوجب تغيره.

فبعد ساعة أذن لي فدخلت، فقال الشيخ رضي الله عنه: اعذرني، كانت ابنة الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه عندي فكرهت أن أقطع كلامها، والله ما أعد نفسي إلا خادماً من خدامهم!.

وكان ينهى أن يعوق المريد إذا جاءه ويقول: المريد يأتي بشعلة همته، فإذا قيل له: قف ساعة: طفيت ما جاء به.

وكان لا يدل المريد على المتاعب والمشقات ولا يلزمه ذلك.

وكان يقول عن شيخه أبي الحسن: ليس الرجل من دلك على تعبك، إنما الرجل من دلك على راحتك.

ومبنى طريقته رضي الله عنه على الجمع على الله، وعدم التفرقة، وملازمة الخلوة والذكر.

ولكل مريد معه سبيل يحمل كل واحد على السبيل التي تصلح له.

وكان لا يحب المريد الذي لا سبب له.

وكان يدل المريدين على الانجماع في حبه، ولا يلزم المريد أن لا يرى غيره.

وكان يقول عن شيخه رضي الله عنه: اصحبوني ولا أمنعكم أن تصحبوا غيري، فإن وجدتم منهلاً أعذب من هذا المنهل فردوا.

وكان إذا دخل المريد في أوراد بنفسه وهواه أخرجه عنها.

وكان إذا مدح بقصيدة أو أبيات يجيز المادح بإقباله، وربما واجهه بنواله.

وكان مكرماً للفقهاء، ولأهل العلم وطلبته، إذا جاءوه!

وكان يقول لأصحابه إذا جاء رئيس أو ذو وجاهة عرفوني به.

وكان أزهد الناس في ولاة الأمور، فإذا جاءوه أكرمهم وربما مشى لهم خطوات.

وكان شديد التعظيم لشيخه أبي الحسن رضي الله عنه، حتى أنك كنت تشهد منه أنه لا ثبات منه لنفسه معه.

وكان ينشد إذا ذكر الشيخ رضي الله عنه هذه الأبيات:

لي سادة من عزهم أقدامهم فوق الجباه
إن لم أكن منهم فلي في حبهم عز وجاه

وكان من شأنه أن ما عنى به لا يأكله.

وكان يكره أن يعلم بطعام أو هدية قبل إتيانها.

وكان لا يدعو للمحسن بحضرته، بل إذا غاب دعا له بظهر الغيب.

وكان إذا أهدى له شيء يسير تلقاه ببشاشة وقبول، وإذا أهدى إليه شيء كثير تلقاه بالعز.

وكان لا يثني على مريد ولا يرفع له علماً بين إخوانه خشية عليه أن يحسد.

وكانت صلاته موجزة في تمام، وكان يقول صلاة الأبدال خفيفة.

وكان إذا تلا تقول الكون كله مستمع له وصلى قيام رمضان سنة، فقال: قرأت القرآن في هذه السنة كأنما أقرأه على رسول الله ﷺ، ثم جاء رمضان الثاني، فقال: قرأته في هذه السنة: كأنما أقرأه على جبريل عليه السلام، ثم جاءت السنة الثالثة فقال: قرأته في هذه السنة كأنما أقرأه على الله عز وجل.

وكان إذا كانت ليلة القدر أخبر بها أصحابه، ودعا فيها بمقدار ما يدعو كل ليلة ثلاث مرات.

وكان يقول: أوقاتنا كلها والحمد لله ليلة قدر(١).

---

(١) كانت هناك محاولات طريفة من بعض العلماء والصالحين لتحديد ليلة القدر: فمثلاً قال بعضهم: إن عدد كلمات سورة القدر ثلاثون كلمة كعدد أيام رمضان، وكلمة «هي» التي تشير إلى ليلة القدر في قوله تعالى في السورة نفسها «سلام هي» هذه الكلمة تمام سبعة وعشرين. هذه محاولة.

ومحاولة أخرى هي:

السورة ثلاث مرات، وثلاث في تسع بسبع وعشرين.

أما الشيخ أحمد زروق رضي الله تعالى عنه فإنه يقول فيها:

إنها لا تفارق جمعة من أوتار آخر الشهر، وقد روي هذا أيضاً عن ابن العربي.

هذه محاولات، أما الثابت اليقين فهو: أن القرآن لم يعينها تعيناً واضحاً، وأن الرسول ﷺ لم يحددها تحديداً تاماً.

ولقد قال أسلافنا رضي الله عنهم:

أخفى الرب أموراً في أمور لحكم:

وأنشدنا بعض إخواننا لبعض أهل الطريق في المعنى:

لولا شهود جمالكم في ذاتي ما كنت أرضي ساعة بحياتي
ما ليلة القدر المعظم شأنها إلا إذا عمرت بكم أوقاتي
أن المحب إذا تمكن في الهوى والحب لم يحتج إلى ميقات

وجاء الفقيه مكين الدين الأسمر رضي الله عنه سنة، فقال له: يا سيدي رأيت ليلة القدر، ولكن ليس كما أراها كل سنة، رأيتها هذه السنة لا نور لها، فقال له الشيخ رضي الله عنه: نورك طمس نورها يا مكين الدين.

ولقد كنت مع الشيخ مكين الدين هذا بالجامع الغربي من الإسكندرية في العشر الأواخر من رمضان ليلة ست وعشرين، فقال الشيخ مكين الدين: أنا الساعة أرى ملائكة صاعدة وهابطة في تهيئة وتعبية، أرأيت تأهب أهل العرس بليلة قبله؟ كذلك رأيتهم، فلما كانت الليلة الثانية، وهي ليلة سبع وعشرين، وكانت ليلة جمعة، قال: أنا الساعة أرى ملائكة معها أطباق من نور، الطبق يوازي مأذنة الجامع، وفوق ذلك ودون ذلك، وهذه هي ليلة القدر، فلما كانت الليلة الثالثة،

= ليلة القدر في الليالي لتحيى جميعها ـ وساعة الإجابة في الجمعة ليدعو في جميعها، والصلاة الوسطى في الصلوات ليحافظ على الكل ـ والاسم الأعظم في أسمائه ليدعى بالجميع، ورضاه في طاعته ليحرص العبد على جميع الطاعات، وغضبه في معاصيه، لينزجر عن الكل، والولي في المؤمنين ليحسن الظن بكل منهم، ومجيء الساعة في الأوقات للخوف منها دائماً، وأجل الإنسان عنه ليكون دائماً عل أهبه.

ويعقب الشيخ أحمد الصاوي على ذلك في حاشيته على الجلالين فيقول:

«فعلى هذا يحصل ثوابها لمن قامها، ولو لم يعلمها، نعم: العالم بها أكمل. هذا الأظهر.

ولقد رأينا في عصرنا الحاضر عن تجربة أكثر من واحد يعلمون بليلة القدر، بعضهم يعلمها قبل إتيانها، وبعضهم يعلمها في ليلتها، وفضل الله أوسع من ذلك وأعظم.

وهي ليلة ثامن وعشرين، قال: رأيت هذه الليلة كالمتغيظة وهي تقول؛ هب أن لليلة القدر حقاً يرعى، أما لي حق يرعى؟!

وكان الشيخ مكين الدين ـ رضي الله عنه ـ من أرباب البصائر ومن النافذين إلى الله عز وجل، كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول عنه: بينكم رجل يقال له عبد الله بن منصور، أسمر اللون، أبيض القلب، والله إنه ليكاشفني، وأنا مع أهلي، وعلى فراشي!

ومرة أخرى قال الشيخ أبو الحسن أيضاً فيه: ما سلكت غيباً من غيوب الله إلا وعمامته تحت قدمي.

ولقد أخبرني الشيخ مكين الدين هـذا، قال؛ دخلت مسجد النبي ﷺ بالإسكندرية[1] «بالديماس» فوجدت النبي المدفون هناك قائماً يصلي، عليه عباءة مخططة، فقال لي: تقدم فصل.

فقلت له: تقدم أنت وصل، قال: تقدم أنت وصل، فإنكم من أمة نبي لا ينبغي لنا التقدم عليه!

قال: فقلت له: بحق هذا النبي إلا ما تقدمت فصليت.

قال: فأنا أقول بحق هذا النبي إلا وهو قد وضع فمه على فمي جلالاً للفظة النبي كيلا يبرز في الهواء!.

قال فتقدمت فصليت.

وأخبرني الشيخ مكين الدين الأسمر أيضاً، قال: بت بالقرافة ليلة الجمعة، فلما قام الزوار قمت معهم، وهم يتلون إلى أن انتهوا في التلاوة إلى سورة يوسف عليه السلام، ومنها إلى قوله عز وجل: ﴿وَجَآءَ

---

(١) هو نبي الله: «دانيال» من أنبياء بني إسرائيل.

﴿إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ فرأيت القبر قد انشق وطلع منه إنسان طويل، خفيف شعر اللحية صغير الرأس آدم اللون، وهو يقول من أخبركم بقصتنا؟ هكذا كانت قصتنا.

ولقد كنت يوماً مضطجعاً وأنا ساكن مطمئن وأجد في قلبي انزعاجاً على بغته وباعثاً يبعثني على الاجتماع بالشيخ مكين الدين الأسمر رضي الله عنه فقمت مسرعاً فدققت الباب فخرج، فلما وقع بصره علي قال: أنت ما تجيء حتى تسير الناس خلفك، وتبسم، قلت؛ يا سيدي قد جئت، فدخل وأخرج لي وعاء، وقال هذا الوعاء اذهب به إلى الشيخ أبي العباس وقل له: قد كتبت فيه آيات من القرآن ومحوتها بماء زمزم وشيء من العسل، فذهبت بذلك للشيخ أبي العباس رضي الله عنه فقال: ما هذا؟ قلت أرسله إليكم الفقيه مكين الدين الأسمر، فأدلى فيه إصبعاً واحداً وقال: هذا بحسب البركة وفرغ الوعاء وملأه عسلاً، وقال اذهب به إلى الفقيه فذهبت بذلك إليه ثم عدت إليه بعد ذلك فقال لي: رأيت البارحة ملائكة أتوني بأوعية من زجاج مملوءة شراباً، وهم يقولون خذ هذا عوض ما أهديت للشيخ أبي العباس رضي الله عنهم أجمعين.

وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه كثير الرجاء لعباد الله، الغالب عليه شهود وسع الرحمة.

وكان رضي الله عنه يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله حتى أنه ربما دخل عليه مطيع فلا يهتبل(١) به وربما دخل عليه عاص فأكرمه، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكثر بعمله ناظر لفعله وذلك العاصي دخل عليه بكسر معصيته وذلة مخالفته(٢).

---

(١) أي: لا يهتم به.

(٢) ولابن عطاء الله في ذلك حكمة جليلة يقول فيها: .
«معصية أورثت ذلاً وافتقاراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً»!

وكان شديد الكراهة للوسواس في الطهارة والصلاة، ويثقل عليه شهود من كان ذلك وصفه، سئل يوماً أنا حاضر فقيل له: يا سيدي فلان صاحب علم وصلاح كثير الوسوسة فقال: وأين العلم والصلاح يا فلان؟ العلم هو الذي ينطبع في القلب كالبياض في الأبيض والسواد في الأسود.

□ □ □

الباب السادس

تبيان معنى آيات كتاب الله تعالى وإظهار فحواها

يا كافي يا شافي يا مغني

قال الله سبحانه:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1].

قال الشيخ رضي الله عنه: علم الله عجز خلقه عن حمده، فحمد نفسه بنفسه في أزله، فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده، فقال: الحمد لله رب العالمين، أي قولوا الحمد لله رب العـالمين، الحمد الذي حمد به نفسه بنفسه هو له لا ينبغي أن يكون لغيره، فعلى هذا تكون الألف واللام عهديتين.

وسمعته يقول في قوله عز وجل:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2].

إيان نعبد شريعة، وإياك نستعين حقيقة.

إياك نعبد إسلام، وإياك نستعين إحسان.

---

(١) الفاتحة: ٢.

(٢) الفاتحة: ٥.

إياك نعبد عبادة، وإياك نستعين عبودية.

إياك نعبد فرق، وإياك نستعين جمع.

واعلم رحمك الله بإقباله عليك بوده، وجعلك من الراعين لعهده، أن الله سبحانه طلب من العباد أن يعبدوه، واقتضى منهم أن يسجلوا بذلك على أنفسهم نطقاً كما قاموا به علماً.

واقتضى منهم أن يفردوه.

واقتضى منهم أن تنتظم العبادة جميع جوارحهم الظاهرة وحقائق وجدانهم الباطنة.

واقتضى منهم الرجعى إليه من دعوى القيومية في العبادة بصدق التبري من الحول والقوة.

فلما قام العبد لله بالعبادة عملاً، اقتضى الحق أن يتعرف بها نطقاً: ليكون ذلك معاهدة بينه وبين الحق عز وجل، حتى إذا انفلتت نفسه عن القيام بالعبادة وثقلت عليها ملامة التكليف، قامت الحجة على العبد بما أعطى الله سبحانه من الاعتراف بالعبادة له وأنه لا يعبد غيره لقوله ﴿إياك نعبد﴾، واقتضى من العباد أن تستوعب العبادة جميع جوارحهم الظاهرة وعوالمهم الباطنة بإتيانه بالصيغة هكذا: ﴿نعبد﴾ وإعراضه عن التعبير بالهمزة المفردة بالمتكلم، لأن النون إنما تكون للواحد المعظم نفسه، أو العظيم في نفسه، وليس هذا موضع هذين المعنيين، إذ العبد لا يبتدىء بين يدي الله بوصف عظمة، فلم يبق إلا أن يكون للواحد ومعه غيره، وذلك ما أشرنا إليه من الجوارح الظاهرة والحقائق الباطنة.

وأما أنه اقتضى منهم الرجعى إليه من دعوى القيومية في العبادة لأنه لما قال: ﴿إياك نعبد﴾ فأضاف العبادة إليهم، واقتضى منهم أن

يعترفوا بذلك قياماً بدائرة الفرق التي عليها يترتب التكليف، أردف ذلك بقوله ﴿وإياك نستعين﴾ كيلا يدعي العباد معه أنهم قاموا بالعبادة بأنفسهم، فأراد منهم أن يوفوا الحقيقة حقها والشريعة حقها، فلذلك جمع بين الأمرين: القيام بالعبادة لربوبيته، والتبري من الحول والقوة مع إلّهيته.

ثم قال سبحانه وتعالى:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[1].

فقال الشيخ رضي الله عنه بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل.

وهذا الجواب ذكره ابن عطية في تفسيره وبسطه الشيخ رضي الله عنه فقال:

عموم المؤمنين يقولون ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾: أي: بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين.

والصالحون يقولون ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، معناه نسألك التثبيت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء.

والشهداء يقولون: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم درجات الشهداء وفاتهم درجات الصديقية.

والصديقون يقولون: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أي بالتثبيت فيما هو

(١) الفاتحة: ٦.

حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم درجات الصديقية وفاتهم درجات القطبية.

والقطب يقول: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، أي بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد بما ليس بحاصل، فإنه قد حصل له رتبة القطبانية وفاته علم إذا شاء الله أن يطلعه عليه أطلعه.

وقال في قوله عز وجل:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(1).

كل موضع ذكر فيه المصلون في معرض المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة إما بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها قال الله سبحانه:

﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾(2).

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(3).

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(4).

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(5).

﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾(6).

ولما ذكر المصلين بالغفلة قال:

﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾(7).

---

(1) البقرة: ٣.
(2) إبراهيم: ٤٠.
(3) الإسراء: ٧٨.
(4) التوبة: ١٨.
(5) فاطر: ٢٩.
(6) الحج: ٣٥.
(7) الماعون: ٤، ٥.

ولم يقل فويل للمقيمين الصلاة.

والإقامة هو أنه إذا صلى المؤمن صلاة فتقبلت منه خلق الله من صلاته صورة في ملكوته راكعة ساجدة إلى يوم القيامة وثواب ذلك لصاحب الصلاة[1].

وقال في قوله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾[2].

«بقرة كل إنسان نفسه، والله أمرك بذبحها»[3].

وقال في قوله عز وجل:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[4].

قيل: إنما وقع التفصيل في العبارة تأديباً من الله لنا فأضاف المحاسن إليه وأضاف المساوىء إلينا وإن كان فعل العبد كله خلق الله تعالى: حسنه وسيئه، كما قال:

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾[5].

---

(١) إقامة الصلاة: أداؤها، كما يحب الله ورسوله، وهو أن يتجرد فيها لله سبحانه وتعالى تجريداً كاملاً واقفاً بين يديه مستشعراً عظمته وجلاله وجماله، وهذا النوع من الصلاة هو المأمور به، وهو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، وهو الذي يفزع إليه الإنسان إذا حزبه أمر أو أحزنه كما كان يفعل الرسول ﷺ، فييسر الله ويقضي الحاجة.

(٢) البقرة: ٦٧.

(٣) إن أبا العباس رضي الله عنه يقول بالمعنى الأصلي للآية الكريمة، وباب الإشارات فيه متسع، ولا ضير ما دام المعنى الأصلي يقره المفسر، وسيشير المؤلف إلى ذلك بعد.

(٤) النساء: ٧٩.

(٥) الكهف: ٨٢.

فأضاف ذلك إلى الله وقال في السفينة:

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾[1].

ولم يقل فأراد ربك أن يعيبها أدباً في التعبير، وكما قال إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[2].

فأضاف المرض لنفسه، والشفاء لله تعالى.

ومنهم من قال؛ إن ذلك داخل في مضمون القول، وإن هذا التفصيل حكاه الله عنهم، والتقدير: فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً في قولهم:

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

ورد عليهم بقوله:

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

وقال رضي الله عنه في قوله سبحانه:

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾[3].

يولج المعصية في الطاعة ويولج الطاعة في المعصية[4]، يطيع

---

(١) الكهف: ٧٩.

(٢) الشعراء: ٨٠.

(٣) الحج: ٦١. لقمان: ٢٩. فاطر: ٢٣. الحديد: ٦.

(٤) نعود فنقول: إن المعنى اللغوي العادي للآية الكريمة، يقربه أبو العباس رضي الله عنه ويعتمده، وهناك إشارات تفيض بها الآية الكريمة لا تتعارض مع المعنى العادي، ولا =

العبد الطاعة فيعجب بها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يفعلها ويطلب من الله العوض عليها، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات، ويذنب الذنب فيلجأ إلى الله فيه ويعتذر منه ويستصغر نفسه ويعظم من لم يفعله، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات، فأيهما الطاعة وأيهما المعصية؟!

وقال رضي الله عنه: الفتى من كسر الأصنام، قال الله تعالى:

﴿ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾(١).

وقال رضي الله عنه في قوله عز وجل:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾(٢).

الولي لا يزال مضطراً.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن العامة اضطرارهم بمثيرات الأسباب، فإذا زالت زال اضطرارهم، وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله دائم: لأن الاضطرار تعطيه حقيقة العبد إذ هو ممكن، وكل ممكن مضطر إلى ممد يمده، ومدد يمده، وكما أن الحق سبحانه هو الغني أبداً، ولا يزايل العبد هذا الاضطرار لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو دخل الجنة، فهو محتاج إلى الله فيها، غير أنه غمس اضطراره في المنة التي أفرغت عليه ملابسها، وهذا هو حكم الحقائق: أن لا يختلف حكمها ولا في الغيب ولا في الشهادة ولا في الدنيا ولا في الآخرة.

= تنقضه، وفضل الله في هذه الإشارات واسع، وهذا الذي يقوله يصدق على كل ما يأتي من باب الإشارة في الآية الكريمة أو الأحاديث النبوية الشريفة. وهو الذي سينبه عليه ابن عطاء الله بعد قليل.

(٣) الأنبياء: ٦٠.

(٤) النمل: ٦٢.

فالعلم صفته الكشف أي علم كان وفي أي وقت كان، والإرادة صفتها التخصيص أي إرادة كانت، وفي أي وقت كانت، ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره.

وقد عاتب الله قوماً اضطروا إليه عند وجود أسباب ألجأتهم إلى الاضطرار، فلما زالت زال اضطرارهم، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾(١) الآية.

وقال سبحانه:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(٣).

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى.

ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجدانهم، سلط الحق عليهم الأسباب المثيرة للاضطرار، ليعرفوا قهر ربوبيته وعظمة إلٰهيته وكبريائه.

---

(١) الإسراء: ٦٧، وتمامها: ﴿وكان الإنسان كفوراً﴾.
(٢) يونس: ١٢.
(٣) الأنعام: ٦٣، ٦٤.

ومن الدليل على فخامة رتبة الاضطرار أن الحق سبحانه أوقف الإجابة عليه فقال:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[1].

وإذا أراد الله سبحانه أن يعطي عبداً شيئاً وهبه الاضطرار إليه فيه، فيطلب باضطرار، فيعطى، وإذا أراد الله أن يمنع عبداً أمراً منعه الاضطرار إليه فيه، ثم منعه إياه وقامت حجة الله على العبد: لو اضطررت إلينا لأعطيناك، فلا يخاف عليك أن تضطر وتطلب فلا تعطي، بل يخاف عليك أن تحرم الاضطرار، فتحرم الطلب، أو تطلب بغير اضطرار فتحرم العطاء.

وقال في قوله عز وجل: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

ثم قال بعد ذلك:

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[3].

فذكر بعض الناس في هذا تأويلاً لا يرضى، ولا ينبغي أن يلتفت إليه، وهو أنه كان حبها لله وحده، فلما ولدت انقسم حبها، وليس الأمر كما قال هـذا القائـل، لأنها صديقة كمـا أخبر الله عنهـا: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾[4].

---

(١) النمل: ٦٢.

(٢) آل عمران: ٣٧.

(٣) مريم: ٢٥.

(٤) المائدة: ٧٥.

والصديق والصديقة لا ينتقلان من حالة إلا إلى أكمل منها. ولكنها كانت في بدايتها متعرفاً إليها بخرق العادات وسقوط الأسباب، فلما تكمل يقينها أرجعت إلى الأسباب فالحالة الثانية أتم من الحالة الأولى.

وقال رضي الله عنه: الفتوة: الإيمان والهداية قال الله تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾(1).

وقال رضي الله عنه في قوله سبحانه حاكياً عن الشيطان:

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾(2).

ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم، لأن فوق: التوحيد، وتحت: الإسلام، والشيطان لا يمكنه أن يأتي المؤمن من توحيد ولا من إسلام.

وقال رضي الله عنه في قوله سبحانه:

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾(3).

قال سمي خليلاً لأنه خالل سره محبة الله تعالى، قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني ... ولذا سمي الخليل خليلاً
فإذا ما نطقت كنت كلامي ... وإذا ما صمت كنت العليلا

وقال رضي الله عنه في قوله تعالى:

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾(4).

---

(1) الكهف: ١٣.
(2) الأعراف: ١٧.
(3) النساء: ١٣٥.
(4) النجم: ٣٧.

قال: «وفى» بمقتضى قوله:

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾.

وقال رضي الله عنه في قوله عز وجل:

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(١).

قال من طاعاتهم ومن أعمالهم التي قاموا لله تعالى بها في ليلهم أن يشهدوها من أنفسهم.

ودليل ما قال الشيخ رضي الله عنه أن الله عز وجل وصفهم قبل ذلك بقوله:

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾(٢).

ثم قال:

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

فلم يتقدم منهم في ليلهم ذنوب يكون استغفارهم منها.

وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا سلم من صلاته استغفر الله ثلاثاً.

وقال الواسطي:

العبادات إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الأعواض عليها.

وقال رضي الله عنه في قوله تعالى:

---

(١) الذاريات: ١٨.

(٢) الذاريات: ١٧.

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(١) .

أي من طاعتهم وأعمالهم، ومثل ذلك:

﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(٢) .

وقال رضي الله عنه في قوله عز وجل:

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ .

ولم يقل بنبيه ولا برسوله وهو نبيه ورسوله.

وإنما كان كذلك لأنه أراد أن يفتح باب السريان للأتباع فأعلمنا بأن الإسراء من بساط العبودية، فالنبي ﷺ كان له كمال العبودية، فكان له كمال الإسراء، أسرى بروحه وجسمه وظاهره وباطنه.

والأولياء لهم قسط من العبودية، فلهم قسط من الإسراء، يسرى بأرواحهم لا بأشباحهم.

وسمعته رضي الله عنه يقول في قوله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾(٣) .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ في هذه الدار وفي تلك الدار، في الدنيا في جنات العلوم وأنهار المعارف، وفي الآخرة في الجنة التي وعدوا بها، في مقعد صدق في هذه الدار وفي تلك الدار، عند مليك

---

(١) يونس: ٥٨.
(٢) الزخرف: ٣٢.
(٣) القمر: ٥٤، ٥٥.

مقتدر في هذه الدار وفي تلك الدار.

وبسط كلام الشيخ رضي الله عنه هو:

أن نعيم الجنة الكائن فيها يكون رقائقه معجلة للمتقين في هذه الدار، فما كان لهم في الجنة حساً يكون لهم في هذه الدار معنى.

ومثل هذه الآية قوله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾[1].

أي في هذه الدار وفي تلك الدار، في الدنيا في نعيم الشهود وفي الآخرة في نعيم الرؤية.

وكذلك قوله:

﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾.

أي في هذه الدار وفي تلك الدار، في هذه الدار في جحيم القطيعة وفي تلك الدار في جحيم العقوبة، وقوله:

﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾،

أي في هذه الدار وفي تلك الدار، في هذه الدار في مقعد صدق العبودية وفي تلك الدار في مقعد صدق الخصوصية.

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

في هذه الدار وفي تلك الدار، في هذه الدار لهم عندية الأمداد وفي تلك الدار لهم عندية الأشهاد.

وقال رضي الله عنه في قوله تعالى:

---

(١) الانفطار: ١٣، والمطففين: ٢٢.

﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾(١).

الحق الذي خلق الله به كل شيء كلمة «كن».

قال الله سبحانه:

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ﴾(٢).

وقال رضي الله عنه في قوله سبحانه:

﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾(٣).

إنما قرن شكرهما بشكره لأنهما أصل في وجودك.

وقال رضي الله عنه في قوله تعالى:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾(٤).

يقال للولي: وما تلك بيمينك أيها الولي.

قال: هي دنياي، أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمي، وغنمه أعضاؤه، ولي فيها مآرب أخرى.

فيقال له ألقها فناء عنها.

فألقاها.

---

(١) يونس: ٥.
(٢) الأنعام: ٧٣.
(٣) لقمان: ١٤.
(٤) طه: ١٧ ـ ٢١.

فيكشف له عن حقيقتها فإذا هي حية تسعى.

ثم يقال له:

﴿خذها ولا تخف﴾.

فلا يضره أخذها: لأنه أخذها بإذن الله كما ألقاها بإذن الله، فأخذها من الوجه الذي به ألقاها، فأطاع الله في أخذها كما أطاعه في إلقائها.

وقال رضي الله عنه في قوله سبحانه:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾(1).

إنما قال للرحمن ولم يقل للقهار ولا للعزيز، لأن تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة مظهران من مظاهر القهر والسطوة، فلو قال للقهار أو للعزيز لم يطق ذلك العباد وتفطرت قلوبهم، فرفق بهم أن قال؛

﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾.

وهكذا قوله:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾(2).

ولم يقل إلى القهار ولا إلى العزيز لأن الحشر وهو المطلع شديد فلاطفهم برحمانيته في ظهور سلطان قهره.

وقال رضي الله عنه وقد سئل عن قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(3).

---

(1) الفرقان: ٢٥، ٢٦. (2) مريم: ٥٨. (3) آل عمران: ١٠٢.

فقال له القائل: من أين للعبد أن يتقي الله حق تقاته، ومن أين له أن لا يموت إلا وهو مسلم؟

فقال الشيخ رضي الله عنه قيل أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.

فكانوا قد خوطبوا أولاً أن يتقوا الله حق تقاته، وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ثم خفف عنهم بقوله:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

قال الشيخ رضي الله عنه ويمكن الجمع بين الآيتين:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

أي في جانب الأعمال وقوله:

﴿اتقوا الله حق تقاته﴾.

أي في جانب التوحيد، وقوله:

﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

أي لاتتعاطوا من الأعمال إلا أعمالاً إذا متم عليها متم مسلمين.

وقال رضي الله عنه صليت خلف الشيخ صلاة الصبح فقرأ بحم عسق حتى انتهى إلى قوله تعالى:

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا ﴾.

فخطر لي أنها الحسنات.

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾.

فخطر لي أنها العلوم.

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾.

علوماً وحسنات.

﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾.

لا علم ولا حسنة.

فلما سلم الشيخ من الصلاة استدعاني وقال لقد وجدت فهمك في الصلاة يهب لمن يشاء أناثاً الحسنات، ويهب لمن يشاء الذكور العلوم، أو يزوجهم ذكراناً وأناثاً علوماً وحسنات، ويجعل من يشاء عقيماً لا علم ولا حسنة.

فعجبت من اطلاع الشيخ على ذلك.

فقال: أتعجب من اطلاعي على فهمك في الصلاة، قد فهم فلان كذا، وفهم فلان كذا، حتى عد أفهام الجماعة الذين خلفه.

وقال رضي الله عنه في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾(1).

فقوم فهموا من هذا الخطاب ينهم أمروا بعداوة الشيطان، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقوم فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو أي وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه.

قيل لبعضهم: كيف صنعك مع الشيطان؟ فقال: وما الشيطان، نحن قوم صرفنا هممنا إلى الله، فكفانا من دونه.

وقال رضي الله عنه قرأت مرة ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى:

---

(1) فاطر: ٦.

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾.

ففكرت في معنى هذه الآية، فكشف لي عن اللوح المحفوظ، فإذا مكتوب فيه لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم روحاً وعقلاً، ثم رددناه أسفل سافلين نفساً وهوى.

وقال في قوله سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ ﴾[1].

همت به هم إرادة وهم بها هم ميل لا هم إرادة.

وقال رضي الله عنه في قوله تعالى:

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ ﴾[2].

فقال عن شيخه أبي الحسن رضي الله عنه: ذكر توبة من لا يذنب لئلا يستوحش من أذنب لأنه ذكر النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار ولم يذنبوا، ثم قال:

وعن الثلاثة الذين خلفوا.

فذكر من لم يذنب ليؤنس من قد أذنب، فلو قال أولاً لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا لتفطرت أكبادهم.

وقال رضي الله عنه:

التقوى في كتاب الله على أقسام: تقوى النار، قال الله سبحانه:

---

(١) يوسف آية: ٢٤ ـ ويفسر بعضهم الآية الكريمة فيقول: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، وهو تفسير تسيغه اللغة، ونتيجته: أنه لم يهم بها لأنه رأى برهان ربه.

(٢) التوبة: ١١٧.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾[1].

وتقوى اليوم:

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[2].

وتقوى الربوبية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾[3].

وتقوى الألوهية:

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾[4].

وتقوى الآنية:

﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[5].

وقال رضي الله عنه في قوله عز وجل:

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾[6].

نزلت في اليهود.

ومن كان من فقراء هذا الزمان مؤثراً للسماع بهواه. أكلاً مما حرمه مولاه، فهي نزغة يهودية، لأن القوال يذكر العشق وما هو بعاشق، والمحبة وما هو بمحب، والوجد وما هو متواجد، فالقوال يقول الكذب

---

(١) آل عمران: ١٣١.
(٢) البقرة: ٢٨١.
(٣) النساء: ١.
(٤) النساء: ١.
(٥) البقرة: ١٩٧.
(٦) المائدة: ٤٢.

والمستمع سماع له ومن أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى إلى السماع فهو يصدق عليه قول الله تعالى:

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾.

وقال رضي الله عنه:

عبر بعض الصحابة على بعض اليهود فسمعهم يقرءون التوراة، فتخشعوا، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال: اقرأ.

قال وما أقرأ، قال اقرأ:

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾(1).

فعوتبوا إذ تخشعوا من غيره، وهم إنما تخشعوا من التوراة وهي كلام الله، فما ظنك بمن أعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهي والغناء؟

وقال رضي الله عنه وقد سأله سائل يا سيدي لم قال عيسى عليه السلام:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(2).

ولم يقل: الغفور الرحيم.

فقال الشيخ رضي الله عنه: إنما عدل عن قوله إنك أنت الغفور الرحيم إلى قوله:

﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

---

(1) العنكبوت: ٥١.

(2) المائدة: ١١٨.

لأنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم لكان شفاعة من عيسى عليه السلام لهم في المغفرة ولا شفاعة في كافر، ولأنه عبد من دون الله فاستحى من الشفاعة عنده وقد عبد معه.

وقال رضي الله عنه في قوله تعالى:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾(1).

في هذه الآية مدح لسيد المرسلين ﷺ، أي أن هذا القرآن لا تثبت له الجبال لو أنزل عليها وأنت يا محمد ثبت لنزوله بالقوة الربانية التي أودعناها فيك، وفيها ذم للكافرين أي أن هذا القرآن لو أنزل على جبل لخشع وتصدع وأنتم ما خشعتم ولا تصدعتم.

فائدة:

اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله تعالى ولكلام رسوله ﷺ بالمعاني الغريبة كما مضى من فهم الشيخ رضي الله عنه: يهب لمن يشاء أناثاً الحسنات، ويهب لمن يشاء الذكور العلوم، أو يزوجهم ذكراناً وأناثاً علوماً وحسنات، ويجعل من يشاء عقيماً لا علم ولا حسنة، وكما مضى أيضاً من قوله عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

فقال الشيخ: بقرة كل إنسان نفسه، والله أمرك بذبحها، وكما سيأتي إن شاء الله في تفسير الأحاديث. فذلك ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت له الآية ودلت عليه في عرف اللسان، وثم إفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح على

---

(1) الحشر: ٢١.

قلبه، وقد جاء أنه عليه الصلاة والسلام قال:

(لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع).

فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل أو معارضة: هذا إحالة لكلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ.

فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما أفهمهم، وربما فهموا من اللفظ ضد ما قصده واضعه، كما أخبرنا الشيخ الإمام مفتي الأنام تقي الدين محمد بن علي القشيري رحمه الله قال:

كان ببغداد فقيه يقال له الجوزي، يقرىء اثني عشر علماً فخرج يوماً قاصداً لمدرسته، فسمع منشداً ينشد:

إذا العشرون من شعبان ولت ... فواصل شرب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار ... فقد ضاق الزمان على الصغار

فخرج هائماً على وجهه حتى مكة، ولم يزل مجاوراً بها حتى مات. وقرىء على الشيخ مكين الدين الأسمر رضي الله عنه قول القائل:

لو كان لي مسعد بالراح يسعدني ... لما انتظرت لشرب الراح إفطاراً
الراح شيء عجيب أنت شاربه ... فاشرب ولو حملتك الراح أوزاراً
يا من يلوم على صهباء صافية ... خذ الجنان ودعني أسكن النارا

فقال إنسان هناك لا يجوز قراءة هذه الأبيات، فقال الشيخ مكين الدين الأسمر للقارىء اقرأ هذا رجل محجوب!

ويكفيك في هذا أن ثلاثة سمعوا منادياً يقول «يا سعتر بري» ففهم عن الله مخاطبة خوطب بها في سره.

سمع الواحد اسع تر بري.

وسمع الآخر الساعة ترى بري.

وسمع الآخر ما أوسع بري.

فالمسموع واحد، واختلفت أفهام السامعين، كما قال سبحانه:

﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾.

وقال سبحانه:

﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾[1].

فأما الذي سمع: اسمع تر بري، فمريد دل على النهوض إلى الله بالأعمال ليستقبل الطريق بالجد، فقيل له: اسع إلينا بصدق المعاملة تر برنا بوجود المواصلة.

وأما الثاني فكان سالكاً إلى الله طاولته الأوقات فخاف أن تفوته الوصلة فقيل له ترويحاً على قلبه لما أحرقته نار الشغف، الساعة ترى بري.

وأما الآخر، فعارف كشف له عن وسع الكرم فخوطب من حيث أشهد فسمع: ما أوسع بري.

وقال الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه:

دعانا بعض الفقراء إلى دعوة بزقاق القناديل بمصر، فاجتمع بها جماعة من المشايخ، فقدم الطعام، وعجزت الأوعية[2]، وهناك وعاء زجاج جديد قد اتخذ للبول ولم يستعمل بعد، فغرف فيه رب المنزل

---

(١) البقرة: ٦٠.

(٢) أي لم تكن الأوعية كافية.

الطعام، فالجماعة يأكلون، وإذا الوعاء يقول: منذ أكرمني الله بأكل هؤلاء السادة مني لا أرضى لنفسي أن أكون بعد ذلك محلاً للأذى، ثم انكسر نصفين.

قال الشيخ محيي الدين: فقلت للجمع، سمعتم ما قال الوعاء؟

قالوا: نعم.

قلت: ما سمعتم؟

فأعادوا القول الذي تقدم.

قال: فقلت قال قولاً غير ذلك.

قالوا وما هو؟

قلت: قال كذلك قلوبكم، قد أكرمها الله بالإيمان فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلاً لنجاسة المعصية وحب الدنيا، جعلنا الله وإياكم من أولي الفهم عنه والتلقي منه بمنه وكرمه.

الباب السابع

تفسير الأحاديث النبوية
وأسرار أهل الخصوصية



قال رضي الله عنه في قوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل. وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[1].

فقال الشيخ رضي الله عنه:

الإمام العادل هو القلب.

ورجل قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه، أي ورجل قلبه معلق بالعرش فإن العرش مسجد قلوب المؤمنين.

ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه أي خالياً من النفس والهوى.

ورجل تصدق بصدقة أي فأخفاها عن نفسه وهواه.

---

(١) رواه مالك والترمذي وأحمد والشيخان والنسائي ومسلم.

وكذلك قال في قوله عز وجل: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾[1] أي من النفس والهوى.

فاعلم أن هؤلاء السبعة جازاهم الحق سبحانه من حيث معاملتهم إياه.

أما الإمام العادل فإنه عدل في عباد الله فآوى المظلوم إلى ظل عدله فأواه الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الشاب الذي نشأ في عبادة الله فإنه أوى إلى الله معرضاً عن هواه آوياً إلى كنف مولاه فصنع الحق معه ذلك في الآخرة جزاء كما صنع هو ذلك مع الله في الدنيا معاملة.

وأما الرجل الذي قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه فإنه آثر طاعة الله وغلب عليه حب الله فلذلك صار قلبه متعلقاً بالمسجد لا يحب البراح عنه، لأنه يجد فيه روح القربة وحلاوة الخدمة، فآوى إلى الله مؤثراً لربوبيته، فآواه الله وأظله بظله يوم لا ظل إلا ظله جزاء لما سبق من معاملته.

وأما الرجلان اللذان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، فإنهما تواصلا بروح الله وتألفا بمحبة الله وكان ذلك منهما انحياشاً[2] إلى الله فأواهما الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الرجل الذي دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال إني أخاف الله، فإنه صلا نار مخالفة الهوى مخافة من المولى وخالف بواعث الطبع المعارضة للتقوى، فلما خاف من الله هرب إليه ههنا معاملة آواه الله إليه في الآخرة مواصلة، فأظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

(١) مريم: ٣.
(٢) أي: ميلا ولجوءاً إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما الرجل الذي ذكر الله خالياً ففاضت عيناه فإنه لم تفض عيناه إلا من القروح التي أحرقت قلبه إما حياء من الله أو شوقاً إليه أو خوفاً من ربوبيته أو لشهود التقصير معه، فلما فعل ذلك حيث لا يراه أحد إلا الله الواحد الأحد كان ذلك منه معاملة لله وانحياشاً إليه بالاعتذار إليه أو بالشوق إليه فآوى إلى الله فأظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الرجل الذل تصدق بصدقة فأخفـاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه فإنه قد آثر الله على نفسه ببذل الدنيا إيثاراً لحب الله على ما تحبه نفسه، لأن شأن النفس حب الدنيا وعدم البذل لها فلا يبذلها إلا من آثر الله عليها، ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«والصدقة برهان»(١).

أي برهان يدل على أن العبد آثر مولاه على نفسه وهواه، فلما مال هذا العبد إلى الله بالمعاملة من الله عليه بأن أظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وتشترك الأقسام السبعة في معنى واحد، فلذلك جوزوا جزاء واحداً.

اشتركت في أن كلاً من هؤلاء السبعة صلا حر مخالفة الهوى في الدنيا، فلم يذقه الله حر الآخرة، وقد قال ﷺ حاكياً عن الله تعالى:

«لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين: إن أمنته في الدنيا أخفته في الآخرة، وإن أخفته في الدنيا أمنته في الآخرة».

وقال رضي الله عنه في قوله ﷺ:

«يسروا ولا تعسروا».

---

(١) رواه مسلم.

أي دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره، فإن من دلك على الدنيا فقد غرك، ومن دلك على الأعمال فقد أتعبك، ومن دلك على الله فقد نصحك.

وقال في قوله ﷺ:

«رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً لو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا».

فقال رضي الله عنه:

الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء، والأولياء يطالعون مثلها، فلذلك قال الرسول ﷺ:

«رأيت الجنة».

ولم يقل كأني رأيت الجنة.

وقال حارثة لما قال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحت يا حارثة؟

قال أصبحت مؤمناً حقاً.

فقال ﷺ: لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟

قال عزبت[1] نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتنعمون، وكأني أنظر إلى أهل النار في النار يعذبون، وكأني أرى عرش ربي بارزاً، من أجل ذلك أسهرت ليلي وأظمأت نهاري.

فقال له الرسول ﷺ: يا حارثة عرفت فالزم.

---

(١) أي: عزفت وأعرضت كارهة.

ثم قال ﷺ: «عبد نور الله قلبه بنور الإيمان»[1].

فقال حارثة: كأني أنظر ولم يقل رأيت لأن ذلك للأنبياء دونه وكذلك قول حنظلة الأسدي لرسول الله ﷺ تذكرنا بالجنة والنار حتى كأنا نراها رأي عين[2] ولم يقل حتى نراها رأي عين لما قدمناه.

وفي حديث حارثة فوائد عشرة:

الأولى: أنه لما سأل النبي ﷺ حارثة فقال له:

كيف أصبحت يا حارثة؟

لم يقل حارثة: غنياً ولا صحيحاً ولا شيئاً من الأحوال البدنية أو الأمور الدنيوية لأن حارثة علم أن رسول الله ﷺ أجل من أن يسأل عن دنيا، بل فهم عنه أنه إنما سأله كيف حاله مع الله فلذلك قال الصحابي:

أصبحت مؤمناً حقاً.

أما أبناء الدنيا إذا سئلوا فلا يخبرونك إلا عن دنياهم، وربما أخبروك إذا سألتهم عن الضجر بأحكام مولاهم، فالسائل لمن هذا وصفه مشارك له فيما استثاره بسؤاله لجريان سببه منه.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه لرجل أتى من الحج: كيف كان حجكم؟ فقال ذلك الرجل كثير الرخاء كثير الماء، فسعر كذا كذا وسعر كذا كذا، فأعرض الشيخ عنه وقال:

تسألونهم عن حجهم وما وجدوا فيه من الله من علم ونور وفتح

---

(١) رواه البزار بسند ضعيف عن أنس، والطبراني من حديث الحارث بن مالك، وسنده ضعيف أيضاً، وكل منهما يقول الآخر. والمعنى في الجو الإسلامي صحيح.

(٢) رواه مسلم وسيأتي به ابن عطاء الله بعد ذلك.

فيجيبون برخاء الأسعار وكثرة المياه حتى كأنهم لم يسألوا إلا عن ذلك.

الفائدة الثانية: أنه ينبغي للمشايخ أن يتفقدوا أحوال المريدين، ويجوز للمريدين إخبار الأستاذين وإن لزم من ذلك كشف حال المريدين لأن الأستاذ كالطبيب وحال المريد كالعورة والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوي.

الفائدة الثالثة: انظر إلى قوة نور حارثة في قوله: أصبحت مؤمناً حقاً، فلولا أنه منور بنور البصيرة الموجبة لمحض اليقين والتحقق بالسنة ما أخبر بذلك وأبداه وأثبت لنفسه حقيقة الإيمان بين يدي صاحب المحو والإثبات، وإنما أبدى ذلك حارثة لأنه علم أن طواعية رسول الله ﷺ واجبة والرسول قد استخبره عن حاله فلم يسعه الكتم وأبدى ما علم أن الله تفضل به عليه ببركات متابعة رسول الله ﷺ ليفرح له رسول الله ﷺ بمنة الله فيشكر الله عنه ويسأله ثبيت ما أعطاه.

مثل هذا ما ذكره بعض العلماء العارفين قال:

وقعت زلزلة بالمدينة زمن خلافة عمر رضي الله عنه، فقال عمر: ما هذا، ما أسرع ما أحدثتم، والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم؟

فانظر رحمك الله هذه البصيرة التامة كيف أشهدته أن الزلزلة إنما هي من حدث كان وإن ذلك الحدث منهم، وأنه بريء منه، فهل هذا إلا من نور البصيرة الكاملة التي وهبها عمر رضي الله عنه.

وكذلك ضربة لأبي هريرة رضي الله عنهما في صدره حين وجد معه نعلي رسول الله ﷺ وقد أمره أن من لقيه من وراء الحائط يشهد أن لا إلّه إلا الله أن يبشره بالجنة ورجوعهما إلى رسول الله ﷺ، وقول عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، أنت أمرت أبا هريرة أن يأخذ نعليك ويبشر من لقي من وراء الحائط يشهد أن لا إلّه إلا الله؟

قال: نعم.

قال: لا تفعل يا رسول الله خلهم يعملوا.

فقال رسول الله ﷺ: خلهم يعملوا.

وهاتان الواقعتان تعرفانك بعظيم قدر عمر رضي الله عنه، ووفور أخذه من رسول الله ﷺ، واختطافه من نوره، وهذا الحديث مروي في صحيح مسلم وإنما ذكرناه ههنا مختصراً(١).

الفائدة الرابعة: يفهم من هذا الحديث انقسام الإيمان إلى

(١) ونصه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال:
كنا قعوداً حوله رسول الله ﷺ معنا أبو بكر وعمر في نفر، فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا، فابطأ علينا وخشينا أن يقتطع دوننا، وفزعنا فقمنا، فكنت أول من فزع، فخرجت أبتغي رسول الله ﷺ حتى أتيت حائطاً للأنصار لبني النجار، ندرت به هل أجد له باباً، فلم أجد، فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة ـ والربيع الجدول ـ فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، فدخلت على رسول الله ﷺ فقال: أبو هريرة؟.. فقلت: نعم يا رسول الله، قال: ما شأنك؟.. قلت: كنت بين أظهرنا فقمت فأبطأت علينا فخشينا أن تقتطع دوننا ففزعنا، فكنت أول من فزع، فأتيت هذا الحائط فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، وهؤلاء الناس ورائي.. فقال: يا أبا هريرة، وأعطاني نعليه، قال: اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إلا الله مستقيناً بها قلبه فبشره بالجنة، فكان أول من لقيت عمر، فقال؛ ما هاتان النعلان يا أبا هريرة؟ فقلت: هاتان نعلاً رسول الله ﷺ بعثني بهما من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستقيناً بها قلبه بشرته بالجنة، فضرب عمر بيده بين ثديي، فخررت لإستي، فقال: ارجع يا أبا هريرة، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأجهشت بكاء، وركبني عمر فإذا هو على إثري، فقال لي رسول الله ﷺ: مالك يا أبا هريرة، قلت: لقيت عمر فأخبرته بالذي بعثتني به، فضرب بين ثديي ضربة خررت لإستى، قال: ارجع، رسول الله ﷺ: يا عمر، ما حملك على ما فعلت؟.. قال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستقيناً بها قلبه بشره بالجنة، قال؛ نعم، قال: فلا تفعل فإني أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلهم يعملون، قال رسول الله ﷺ: فخلهم..

قسمين: إيمان حقيقي وإيمان رسمي، فلذلك أخبر الصحابي بقوله: أصبحت مؤمناً حقاً، والحديث يشهد له أيضاً.

وروى البخاري يرفعه إلى رسول الله ﷺ إنه قال:

«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً».

وروى أيضاً قال: ﷺ:

«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن توقد نار عظيمة فكان أن يقع فيها خير له من أن يشرك بالله».

وقد جاء في الحديث أيضاً قال ﷺ:

«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»(١).

وقد قال الله سبحانه:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ ﴾(٢).

وهما صنفان: عباد آمنوا بالله على التصديق والإذعان، وعباد آمنوا بالله على الشهود والعيان.

وهذا الإيمان الثاني تارة يسمى إيماناً، وتارة يسمى يقيناً، لأنه إيمان انبسطت أنواره، وظهرت آثاره، واستمكن في القلب عموده، وداوم

---

(١) رواه مسلم، وتمامه: احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا وكذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان. .

(٢) الأنفال: ٤.

السر شهوده، وعنه يكون خالص الولاية، كما أن على القسم الآخر يكون ظاهر الولاية.

وليس يستوي إيمان مؤمن يغلب الهوى، وإيمان مؤمن يغلبه الهوى ولا إيمان مؤمن تعرض له العوارض فيدافعها بإيمانه كإيمان مؤمن غسل قلبه من العوارض فلا ترد عليه لشهوده وعيانه، ولأجل هذا اختلف أهل الطريق في عبدين: أحدهما يرد عليه خاطر الذنب فيجاهد نفسه حتى يذهب ذلك عنه، والآخر لا يخطر له هذا الخاطر أصلاً، أيهما أتم؟

والذي لا شك فيه تفضيل هذا القسم الثاني فإنه أقرب لأحوال أهل المعرفة والأول هو حال أهل المجاهدة.

ولأنه لا يكون القلب على هذه الصفة إلا والنور قد ملأ زواياه فلأجل ذلك لم يجد خاطر الذنب مساغاً.

الفائدة الخامسة: مطالبة رسول الله ﷺ لحارثة بإقامة البرهان على ما أقبته لنفسه، فيدل ذلك أنه ليس كل من ادعى سلمت له، وقد قال الله سبحانه:

﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[1].

﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[2].

فموازين الحقائق شاهدة للعباد أو عليهم، وقد قال سبحانه:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾[3].

فمن ادعى حالاً مع الله أقيم عليه ميزانها فإن شهد له سلمناها له

(١) البقرة: ٩٤.
(٢) النمل: ٦٤.
(٣) الرحمن: ٩.

وإلا فلا، وإذا كانت الدنيا على خساسة قدرها عند الله لا تسلم لك إلا ببينة تقيمها، فمن الأحرى أن لا تسلم لك مراتب الموقنين حتى يثبتها لك برهان أو تسلمها لك حقيقة.

الفائدة السادسة: كان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه يقول؛ لو كان المسؤول أبا بكر رضي الله عنه لم يطالبه الرسول ﷺ بإقامة برهان على ما ادعى: لأن عظم رتبة أبي بكر رضي الله عنه شاهدة له من غير إظهار برهان، فأراد الرسول ﷺ أن يعرفنا الفرق بين رتبة أصحابه، فمنهم من هو كحارثة لما ادعى حقيقة الإيمان طولب ببرهانها، ومنهم من هو كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما يثبت لهما الرسول ﷺ الرتب وإن لم يثبتاها لنفسيهما، ألا ترى الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: أن بقرة في بني اسرائيل ركبها رجل وأجهدها فقالت: سبحان الله، لم أخلق لهذا إنما خلقت للحرث.

فقال الصحابة: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟ فقال الرسول ﷺ: آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر(١)، وهما غائبان.

فانظر هذه المرتبة ما أفخمها، وهذه المنزلة ما أعظمها.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: معنى قوله ﷺ: «آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر».

أي من غير عجب، وأنتم آمنتم متعجبين لأجل ذلك قالوا: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟

وكان أبو العباس يقول: إن الملائكة لما بشرت زوجة إبراهيم عليه السلام بالولد قالت:

---

(١) رواه البخاري بنحوه في أحاديث الأنبياء.

﴿ أَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (١).

فقالت الملائكة لها:

﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ .

أي أمر الله لا يتعجب منه، فلم يسمها الحق صديقة، ومريم لما بشرت بالولد من غير أب فلم تتعجب من ذلك سماها الله صديقة فقال سبحانه:

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾(٢).

الفائدة السابعة: استدلال الصحابي على حقيقة إيمانه بزهده في الدنيا، وكذلك هو الإيمان إذا تحقق به من قام به أورثه الزهد في الدنيا. لأن الإيمان بالله يوجب لك التصديق بلقائه، وعلمك بأن كل آت قريب يوجب لك شهود قرب فيورثك ذلك الزهد في الدنيا، ولأن نور الإيمان يكشف لك عن إعزاز الحق لك فتأنف همتك من الإقبال على الدنيا والتطلع إليها مع أن الحقيقة تقتضي أن الزاهد في الدنيا مثبت لها، فإنه شهد لها بالوجود إذا أثبتها مزهوداً فيها، وإذا شهد لها بالوجود فقد عظمها وهو معنى قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه: والله لقد عظمتها إذ زهدت فيها، ومثل هذا الزاهد فيما زهد فيه فناء الفاني عما فني عنه، فإثبات أنك فانٍ عن الشيء إثبات لذلك الشيء فما لا وجود له لا يتعلق به فناء ولا زهد ولا ترك.

ولنا في هذا المعنى أبيات كتبتها لبعض الأصحاب يسمى حسناً:

---

(١) هود: ٧٢.

(٢) جزء من آية ٧٥ من سورة المائدة وتمامها: ﴿كانا يأكلان الطعام، أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾.

حسن بأن تدع الوجود بأسره حسن فلا يشغلك عنه شاغل
ولئن فهمت لتعلمن بأنه لا ترك إلا للذي هو حاصل
ومتى شهدت سواه فاعلم أنه من وهمك الأدنى وقلبك ذاهل
حسب الإله شهوده لوجوده والله يعلم ما يقول القائل
ولقد أشرت إلى الصريح من الهدى دلت عليه إن فهمت دلائل
وحديث كان وليس شيء غيره يقضي به الآن اللبيب العاقل[1]
لا غير إلا نسبة مثبوتة ليذم ذو ترك ويحمد فاعل

الفائدة الثامنة: قول الصحابي رضي الله عنه: عزبت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها.

العزوب هو ترك الشيء بالتعزز له والإعراض عنه، إذ لو قال: تركت الدنيا لم يلزم من الترك عدم التطلع فرب تارك للشيء وهو له متطلع، فالعزوب إعراض مع كراهة وتحقر ومن كشف الله له عن حقيقة الدنيا فهذا شأنه فيها، وقد قال الرسول ﷺ: «الدنيا جيفة قذرة».

وقال ﷺ للضحاك: ما طعامك؟ قال اللحم واللبن.

قال ثم يعود إلى ماذا؟ قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله.

قال: فإن الله قد جعل ما يخرج من بني آدم مثلاً للدنيا[2].

فمن كشف له عن حقيقة الدنيا فشهدها جيفة قذرة فحري أن يصرف همته عنها.

---

(١) المراد: الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن عمران بن حصين ونصه: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض..

(٢) رواه أحمد والطبراني وفيه: علي بن زيد بن جدعان مختلف فيه ورواه ابن حبان.

فإن قلت فقد قال الرسول ﷺ: (الدنيا حلوة خضرة)[1].

فاعلم أن الدنيا جيفة قذرة في مرائي البصائر، وحلوة خضرة في مرائي الأبصار.

فإن قلت: فما فائدة الإخبار بأنها حلو خضرة؟ فاعلم أن قوله ﷺ: الدنيا جيفة قذرة للتنفير، وقوله: الدنيا حلوة خضرة للتحذير، أي فلا تغرنكم بحلاوتها وخضرتها فإن حلاوتها في التحقيق مرارة وخضرتها يبس، ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله قال:

«هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها».

الفائدة التاسعة: وقوف الصحابي رضي الله عنه على مستحق رتبته بقوله: وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتنعمون ولم يقل نظرت، وقد تقدم ذلك من أن الانبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مثلها.

الفائدة العاشرة: قوله فمن أجل ذلك أسهرت ليلى وأظمأت نهاري، فحارثة عبد وصل بكرامة الله إلى طاعة الله، ألا تراه كيف قال في الأول: عزبت نفسي عن الدنيا، ثم قال بعد ذلك فمن أجل ذلك أسهرت ليلى وأظمأت نهاري، فسبق عزوب نفسه عن الدنيا معاملته لربه.

وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه يقول: الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، قال الله سبحانه:

---

(١) رواه الترمذي في الفتن والزهد، وابن ماجه في الفتن، والدارمي في الرقاق وأحمد في مسنده.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[١].

ونور الله يرد على القلب فيوجب له الاتصاف بصفة الزهد في الدنيا والإعراض عنها ثم يثبت منه إلى الجوارح، فما وصل منه إلى العين أوجب الاعتبار، وإلى الأذن أوجب حسن الاستماع، وإلى اللسان أورث الذكر، وإلى الأركان أورث الخدمة.

والدليل على أن النور يوجب عزوب الهمة عن الدنيا والنأي عنها قول رسول الله ﷺ:

«إن النور إذا دخل الصدر انشرح وانفسح».

فقيل يا رسول الله فهل لذلك من علامة؟

قال: «التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود»[٢].

وأما حديث حنظلة الأسدي فقد رواه مسلم في صحيحه، قال: لقي حنظلة أبا بكر رضي الله عنه فقال نافق حنظلة.

فقال أبو بكر رضي الله عنه وما شأن حنظلة؟

قال: نكون عند رسول الله ﷺ فيذكرنا الجنة والنار حتى كأنهما رأي عين، فإذا خرجنا من عنده عافسنا الضيعات والزوجات[٣] نسينا كثيراً.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: إنا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة ثم أتيا رسول الله ﷺ فقال حنظلة: يا رسول الله نافق حنظلة.

---

(١) الشورى: ١٣.

(٢) رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير بنحوه، وعبد الرزاق.

(٣) أي اجتهدنا في شؤون حياتنا ومع أهلينا فخالطناهم ولاعبناهم وعالجنا أمورهم.

فقال رسول الله ﷺ: وما شأن حنظلة؟

فقال: نكون عندك يا رسول الله فتذكرنا الجنة والنار حتى كأنهما رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات نسينا كثيراً.

فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده يا حنظلة لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم، ولكن ساعة وساعة.

ففي هذا الحديث ثمان فوائد:

الأولى: قول حنظلة نافق حنظلة.

النفاق: مأخوذ من نافقاء اليربوع[1] وهو أن يجعل لبيته بابين متى طولب من أحدهما خرج من الآخر، كذلك المنافق يظهر بظاهر الإيمان وله مسرب من الكفر باطن إذا عاتبه أهل الكفر على ما أظهر من الإيمان فتح مسرباً من باطن كفره ليسلم من عتبهم، وإذا ظهرت عليه ريبة أهل النفاق فعوتب عليها تصون من ذلك بظاهر الإيمان الذي أظهره، ولذلك أخبر الله عنهم بقوله:

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[2].

فلما رأى حنظلة أنه يكون عند رسول الله ﷺ على حال فإذا خرج وحاول أسباب الدنيا تغير حاله فلم يبق على نحو ما كان عليه عند رسول الله ﷺ خاف أن يكون ذلك نفاقاً لاختلاف حالتيه فشكا ذلك إلى رسول

---

(١) اليربوع أو الجربوع أو الدرص أو ذو الرميح: حيوان صغير على هيئة الجرذ الصغير وفي حجمه تقريباً..

(٢) البقرة: ١٤.

الله ﷺ وحمله الإيمان على أن أظهر ذلك ليتطلب الشفاء منه، ويشكو داءه لمن يجد الشفاء عنده، فلما شكا ذلك لأبي بكر رضي الله عنه، قال له أبو بكر: إنا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة، ولم يجبه أبو بكر رضي الله عنه، لأن رسول الله ﷺ كان بين أظهرهم، فلم ير أبو بكر أن يجيب حنظلة، ولو أن حنظلة أتى أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لأجابه.

الفائدة الثانية: يستفاد من حديث حنظلة أن من حمله الصدق على إظهار ما به حصل له الشفاء إما بأن يقال أن ما ظننته داء ليس بداء، وإما أن يدل من الدواء على ما يزيل الداء فحنظلة قيل له إن ما ظننته داء ليس بداء.

الفائدة الثالثة: قول حنظلة لرسول الله ﷺ تذكرنا بالجنة والنار حتى كأنا رأي عين، ولم يقل حتى نراهما رأي عين لما قدمناه من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مثلها فلذلك قال حنظلة حتى كأنا رأي عين، ولم يقل حتى نراهما رأي عين، كما قال حارثة، وكأني أنظر إلى أهل الجنة ولم يقل نظرت إلى أهل الجنة وقد تقدم هذا من قبل.

الفائدة الرابعة: ينبغي أن يقلل الدخول في أسباب الدنيا ما أمكن، فهذا الصحابي يقول: فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات فنسينا كثيراً وقد قال رسول الله ﷺ:

«إن قليلاً من الدنيا يلهي عن كثير من الآخرة».

وقال ﷺ: «ما طلعت شمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان: يأيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».

الفائدة الخامسة: قوله ﷺ:

«لو تدومون على ما تكونون عليه عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم».

فيه إشارة إلى أن الدوام على تلك الحالة عزيز، وأن عدم دوام العبد على تلك الحالة لا يوجب معتبة: لما طبع عليه البشر من الغفلة، فكان الدوام على تلك الحالة كالمعسور.

الفائدة السادسة: كان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه، يقول: لم يقل رسول الله ﷺ إن ذلك محال أن يكون، أعني ما رتب على تقدير الدوام وهو قوله: «لصافحتكم الملائكة في طرفكم وعلى فرشكم» فقد يكون من أولياء الله من يهبه الله ذلك.

الفائدة السابعة: إنما خص الرسول ﷺ الفرش والطريق لأن الفرش محل الشهوات والطرق محل الغفلات فإذا صافحتهم الملائكة في طرقهم وفرشهم فمن الأحرى أن تصافحهم في محل طاعاتهم ومواطن أذكارهم.

الفائدة الثامنة: اقتضت حكمة الله سبحانه أن لا يستوي وقت كينونتهم عنده ووقت ذكرهم بما سواهما حتى يعرف عظيم قدر رتبة محاضرته ﷺ وعزازة الذكر وجلالة منصبهما.

وقال رضي الله عنه: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر يقرأ ويخفي صوته وسمع عمر يقرأ ويرفع صوته، فقال لأبي بكر: لم أخفضت صوتك؟ فقال قد أسمعت من ناجيت.

وقال لعمر: لم رفعت صوتك؟ فقال لأوقظ الوسنان وأطرد الشيطان، فقال لأبي بكر؛ ارفع قليلاً، وقال لعمر: اخفض قليلاً.

قال الشيخ رضي الله عنه: أراد أن يخرج كلاً منهما عن إرادته

لنفسه لمراد رسول الله ﷺ له.

وقال رضي الله عنه في قول رسول الله ﷺ:

«أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

أي ولا أفتخر بالسيادة وإنما أفتخر بالعبودية لله سبحانه.

وكان كثيراً ما ينشد:

يا عمرو نادي عبد زهراء يعرفه السامع والرائي
لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

وقال: كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول:

المؤمن في الدنيا أسير ولا فكاك للأسير إلا بإحدى ثلاث: إما بالحيلة، وإما بالفدية، وأما بالعناية.

وما ذكره الشيخ مأخوذ من قول رسول الله ﷺ:

«الدنيا سجن المؤمن»(١).

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه في تفسير هذا الحديث: وشأن المسجون التحديق بعينيه والإصغاء بأذنيه متى يدعى فيجيب.

وقال رضي الله عنه: الأنبياء إلى أممهم عطية ونبينا ﷺ هدية، وفرق بين العطية والهدية، لان العطية للمحتاجين والهدية للمحبوبين، قال رسول الله ﷺ:

«إنما أنا رحمة مهداة»(٢).

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه.
(٢) ابن سعد والحكيم عن أبي صالح مرسلاً، والحاكم عن أبي هريرة وصححه.

وقال في قوله ﷺ: «السلطان ظل الله في الأرض»[1] هذا إذا كان عادلاً، فأما إذا كان جائراً فهو ظل النفس والهوى.

وقال رضي الله عنه: مات رجل من أهل الصفة فوجد في شملته ديناران فقال ﷺ: «كيتان من نار».

قال الشيخ: وقد مات على عهد رسول الله ﷺ كثير من الصحابة وتركوا أموالاً فما قال رسول الله ﷺ فيهم مثل ما قال في هذا، لأنهم لم يبطنوا خلاف ما أظهروا، وهذا الذي كان من أهل الصفة أظهر الفاقة، وكان عنده هذان الديناران، فلما أظهر خلاف ما أبطن قال الرسول ﷺ: «كيتان من نار».

وقال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»[2].

فقال رضي الله عنه: بأي طريق يحشر مع النبيين؟ وبأي طريق يحشر مع الصالحين؟

يحشر مع الأنبياء: فإن الأنبياء شأنهم أداء الأمانة، وبذل النصيحة، فيحشر مع الأنبياء بهذا الوصف، وهذا التاجر أدى الأمانة وبذل النصيحة.

ويحشر مع الصديقين: لأن الصديق شأنه الصفاء في الظاهر والباطن، قد استوى ظاهره وباطنه، والتاجر الصدوق كذلك، فيحشر مع الصديقين بهذا.

ويحشر مع الشهداء: فإن الشهيد شأنه الجهاد، والتاجر الصدوق

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي في الشعب.
(٢) رواه ابن ماجه والحاكم والترمذي.

يجاهد نفسه وشيطانه وهواه، فيحشر مع الشهداء بهذا الوصف.

ويحشر مع الصالحين: فإن الصالح شأنه أخذ الحلال وترك الحرام فيحشر مع الصالحين بهذا الوصف[1].

□ □ □

---

(١) الدنيا المذمومة في العرف الديني هي الشهوات، يقول الله سبحانه:
﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث﴾ ثم قال سبحانه عن كل ذلك: ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا ـ والله عنده حسن المآب﴾.
أما إذا استخدمت الدنيا من أجل الآخرة، فإنها لا تصبح شهوات وإنما تصبح معبراً يعبر به الإنسان ـ في رضا من الله ـ إلى الآخرة، ومن أجل ذلك يقول سبحانه: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ فإذا ما صير الإنسان حياته تجارة وعبادة وغير ذلك. إذا ما صير حياته عبادة بالنية الصادقة في الاتجاه إلى الله فقد استجاب إلى الغاية التي أحبها الله سبحانه وتعالى من الخلق، وما ذكرناه هو نوع من الشرح لكلام الإمام الكبير أبي العباس المرسي رضي الله عنه.

الباب الثامن

تفسيره لكلام أهل الحقائق

وأما بنعمة ربك فحدث

قال رضي الله عنه: قال سهل بن عبد الله:

لا تكونوا من أبناء الدهور ولا من أبناء العد والإحصاء وكونوا من أبناء الأزل أشقي أم سعيد؟

ثم قال رضي الله عنه: يقول أحدهم: صليت كذا وكذا ركعة، صمت كذا وكذا شهراً، ختمت كذا وكذا ختمة، حججت كذا وكذا حجة، فهؤلاء من أبناء العد والإحصاء فهم إلى عد سيآتهم أحوج منهم إلى عد حسناتهم.

وأما أبناء الدهور فيقول أحدهم: لي في طريق الله سبعون سنة، لي في طريق الله ستون سنة.

وكونوا من أبناء الأزل أشقي أم سعيد؟ يعني لاحظوا ما سبق في علم الله ولا تتكلموا على ما لكم من العلم والعمل ولكن ارجعوا إلى وجود الأزل.

وقال رضي الله عنه: قال بشر الحافي رضي الله عنه:

منذ أربعين سنة أشتهي الشواء فما صفا لي ثمنه.

فقال الشيخ رضي الله عنه من ظن أن هذا الشيخ مكث أربعين سنة ما وجد درهماً حلالاً يشتري به شواء فقد أخطأ، من أين له في الأربعين سنة ما يأكل وما يلبس وإنما المعنى في ذلك أن هؤلاء قوم أصحاب مراتب لا يأكلون ولا يشربون ولا يدخلون في شيء ولا يخرجون من شيء إلا بإذن من الله وإشارة، فلو أذن له في أكل الشواء لصفا له ثمنه.

وقال رضي الله عنه: قوت القوم على أربعة أوجه: مباح، وحلال، وطيب، وصاف.

فالمباح ما كان مستوى الطرفين ما على أخذه عقاب ولا في تركه ثواب.

والحلال هو ما لم يخطر لك ببال ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال.

والطيب هو ما أخذه العبد بوصف الفناء إذ لا وصف له مع مولاه.

والصافي هو ما عاينه العبد من المنبع يعني من عين قدرة الله سبحانه وتعالى.

وقال رضي الله عنه قال الجنيد: أدركت سبعين عارفاً كلهم يعبدون الله على ظن ووهم حتى أخي أبي يزيد لو أدرك صبياننا لأسلم على يديه.

فقال الشيخ معنى قوله: يعبدون الله على ظن ووهم لا يريد بذلك ظناً في المعرفة ووهماً فيها، وكيف تجتمع المعرفة والظن والوهم وإنما المراد أنهم وصلوا إلى مقامات توهموا أن ليس وراءها للموقنين مقام، فقال الجنيد: لو أدرك صبياً من صبياننا لأسلم على يديه أي لبين له أن فوق ذلك المقام مقام وفوق ذلك مقام إلى ما لا آخر له، ومعنى لأسلم

على يديه أي لانقاد له فالإسلام هو الانقياد.

وقال رضي الله عنه في قول أبي يزيد: خضت بحراً وقفت الأنبياء بساحله.

إنما يشكو أبو يزيد بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء عليهم السلام.

ومراده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا من الجانب الآخر على ساحل الفرق يدعون الخلق إلى الخوض أي فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا وهذا الذي فسر الشيخ به كلام أبي يزيد هو اللائق بمقام أبي يزيد وقد قدمنا عنه أنه قال: جميع ما أخذ الأولياء مما أخذ الأنبياء كزق مملوء عسلاً ثم رشحت منه رشاحة فما في باطن الزق للأنبياء وتلك الرشاحة هي للأولياء.

والمشهور عن أبي يزيد التعظيم التام لمراسم الشريعة، والقيام بكمال الأدب حتى أنه حكي عنه أنه وصف له رجل بالولاية فأتى إلى زيارته فقعد في المسجد ينتظره فخرج ذلك الرجل وتنخم في حائط المسجد، فخرج أبو يزيد ولم يجتمع به وقال هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة فكيف يؤمن على أسرار الله وما جاء عن الأكابر أولي الاستقامة مع الله سبحانه من أقوال وأفعال يشكل ظاهرها أولناها لهم لما علمناه من استقامتهم وحسن طريقتهم، فقد قال ﷺ:

«ولا تظنن بكلمة برزت من امرىء مسلم سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً».

وقال رضي الله عنه: كان الحارث بن أسد المحاسبي إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه إصبعه، فسأل الشيخ سائلاً فقال: يا سيدي قد جاء أن الصديق قدم إليه لبن فأكل منه فوجد كدرته في قلبه.

فقال من أين لكم هذا اللبن؟

فقال له غلام: كنت تكهنت لقوم في الجاهلية فأعطوني ثمن كهانتي.

فتقايأه أبو بكر رضي الله عنه ثم قال:

«والله لو لم يخرج إلا بمصاريني لأخرجته»(١).

فلم يكن على يد الصديق عرق يتحرك عليه إذا قدم له طعام فيه شبهة، والصديق أولى بكل مزية من سائر الأمة وقد وزن بالأمة فرجحها.

فقال الشيخ رضي الله عنه: الصديق رضي الله عنه كالـوكيل المفوض إليه، مطهر من البقايا فلا يحتاج إلى إشارة، والحارث بن أسد بقيت عليه البقايا فلذلك ألزم الإشارة حتى لا يدخل في شيء بنفسه وهواه وأبو بكر رضي الله عنه طهر من النفس والهوى فلا يحتاج إلى إشارة.

واعلم أن من حسن اختيار الله لأبي بكر أن تناول من ذلك اللبن حتى تكلف طرحه بعد شربه فيثيبه الله على ذلك، وأيضاً ليجعله قدوة للعباد فيقتدي به من أكل طعاماً فيه شبهة ولم يعلم أن الأولى له قيئه.

وليس لقائل أن يقول: قد ضمنه بأكله وقد تناوله وهو غير آثم إذ هو غير عالم، فإن أبا بكر ما سأل عن اللبن إلا حتى وجد له كدرة في قلبه، دل ذلك على أن الحرام أو الشبهة قد يؤثر في القلب كدرة أو قسوة وإن لم يعلم به متناوله وقت تناوله.

وهكذا هم أهل التخصيص إن وقع منهم أمر مثل هذا ونحوه فهو

---

(١) رواه البخاري.

من حسن اختيار الله لهم حتى يفتح بهم السبيل للعباد كما كان من حسن اختيار الله لآدم أكله من الشجرة بعد أن نهي عنها حتى يتوب من الفعل فيكون قدوة للتائبين، وحتى يتعرف إليه بحلمه فيعلم أنه أكرم الأكرمين، وبوقفه على وجود ستره ولطفه، فيعلمه أنه اللطيف بعباده المؤمنين، وليكون أكل الشجرة سبباً في النزول، والنزول سبباً في الخلافة فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: أكرم بها معصية أورثت الخلافة.

وقال والله لقد أنزل آدم إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقد بسطنا القول في هذا الموضوع في كتاب التنوير[1] فلا نعيده.

وقال رضي الله عنه إنما بدأ القشيري في رسالته بالفضيل بن عياض وإبراهيم بن آدم لأنهما كانا قد تقدم لهما زمن قطيعة ثم أقبلا فأقبل الله عليهما فبدأ بذكرهما بسطا الرجاء المريدين والذين كانت

---

(١) قال ابن عطاء الله في كتابه التنوير:
فائدة جليلة: أعلم أن أكله عليه السلام للشجرة لم يكن عتاداً ولا خلافاً، فإما أن يكون:
نسي الأمر، فتعاطى الأكل، وهو له غير ذاكر، وهو قول بعضهم، ويحمل عليه قوله تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ أو إن كان تناوله ذاكراً للأمر، فهو إنما تناوله لأنه قيل له:
﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ فلحبه في الله، وشغفه به أحب ما يؤديه إلى الخلود في جواره، والبقاء عنده، أو ما يؤديه إلى الملكية، لأن آدم ﷺ عاين قرب الملكية من الله فأحب أن يأكل من الشجرة لينال رتبة الملكية التي هي أفضل، أو التي هي في ظنه كذلك على اختلاف أهل العلم وأهل المعرفة أيضاً أيهما أفضل؟ الملكية أم النبوة؟ لاسيما وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾.
قال آدم عليه السلام: ما ظننت أن أحداً يحلف بالله كاذباً، فكان كما قال الله تعالى: ﴿فدلاهما بغرور﴾... الخ. التنوير ص ٧٤ ـ ٧٥.

تقدمت منهم الزلات وسبقت منهم المخالفات ثم رجعوا إلى استقراع أبواب العنايات إذ لو بدأ بالجنيد وسهل بن عبد الله التستري وعتبة الغلام وأمثالهم ممن نشأ في طريق الله لقال القائل ومن يدرك هؤلاء، هؤلاء لم تسبق منهم زلات ولم تتقدم منهم مخالفات.

وقال رضي الله عنه في الحكاية المشهورة عن سمنون المحب أنه كان ينشد:

وليس لي في سواك حظ   فكيفما ما شئت فاختبرني

فابتلي بعلة الأسر وهو احتباس البول فتجلد يوماً فزاد الألم فتجلد الثاني فزاد الألم فتجلد ثالثاً ورابعاً فزاد الألم فهو في صبيحة اليوم الرابع وإذا بإنسان من أصحابه قد أتاه وقال يا سيدي سمعت البارحة صوتك عند دجلة وأنت تستغيث إلى الله وتسأله رفع ما نزل بك فجاءه ثان وثالث ورابع ولم يكن هو سأل فعلم أنها إشارة له من الله بالسؤال فصار يدور على صبيان المكاتب ويقول ادعوا لعمكم الكذاب.

فقال الشيخ رضي الله عنه رحم الله سمنونا عوض ما قال «فكيفما ما شئت فاختبرني» كان يقول فكيفما شئت فاعف عني فطلب العفو أولى من طلب الاختبار.

وقال رضي الله عنه في الحكاية المشهورة التي ذكرها الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته قال الجنيد دخلت على السري فوجدته متغيراً فقلت: ما بالك يا أستاذ متغيراً؟ قال دخل علي شاب آنفاً فقال لي: ما التوبة؟

فقلت له: أن لا تنسى ذنبك، فقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك، فماذا تقول أنت يا أبا القاسم؟

قال فقلت القول عندي ما قال الشاب، لأني إذا كنت في حال الجفاء ثم نقلني إلى حال الصفاء فذكر الجفاء وقت الصفاء جفاء.

قال الشيخ رضي الله عنه كلام السري أتم من كلامهما لأن كلام السرى يدل على مبادىء المقامات وكذلك القدوة يلزم بالكلام على مقامات العباد بداياتها ونهاياتها، وإنما تأتي النهايات من البدايات.

والجنيد لم يكن في ذلك الوقت بمقام أن يكون قدوة وكذلك الشاب فتكلما على أحوال أهل الارتقاء في نهاياتهم فكلامهما يخص حالهما وكلام السري مهيع[1] مورد للسالكين هذا معنى كلام الشيخ رضي الله عنه.

وقال رضي الله عنه في قول بعضهم: لا يكون الصوفي صوفياً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً عشرين سنة.

ليس معنى ذلك أن لا يقع منه ذنب عشرين سنة ولكن معناه أنه إذا أذنب الذنب استغفر الله منه، والملك الموكل يكتب السيئات لا يكتب السيئة حتى ينتظر العبد لعل أن يرجع أو يتوب وكلما أراد أن يكتبها قال له ملك اليمين امكث فعسى أن يتوب إلى أن يبلغ عدداً إما السبع وإما العشر (الشك مني) فحينئذ يكتبها سيئة فلذلك جاء صاحب اليمين أميراً على صاحب الشمال.

□ □ □

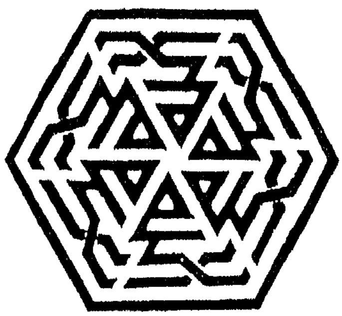
---

(١) المهيع الطريق الواسع المنبسط.



الباب التاسع

الكلام في الحقائق والمقامات
والكشف عن الأمور والمعضلات



قال رضي الله عنه: الشوق على قسمين شوق على الغيبة لا يسكن إلا بلقاء الحبيب وهو شوق النفوس.

وشوق الأرواح على الحضور والمعاينة.

فإذا رفعك إلى محل المحاضرة والشهود المسلوب عن العلل فذاك مقام التعريف إيماناً حقيقياً وذاك ميدان تنزل أسرار الأزل.

وإذا أنزلك إلى محل المثابرة والجهاد فذاك مقام التكليف المقيد بالعلل وهو الإسلام الحقيقي وذلك ميدان تجلي حقائق الأبدية.

والمحقق من لا يبالي بأي صفة يكون، لأن صفتك تميل لا أنت، والصفة من العين للعين وهو ظهورك، والاسم للسان وهو نطقك، والاسم حقيقة الصفة، والصفة حقيقة الوجود، والأسرار متنزلة عن الوجودية للصديقية، والحقائق متجلية عن الصفات بالولاية لأهل العلوم الظاهرة عن الاسم بالدليل لأهل السعاية، وإليه الإشارة بقوله ﷺ لأبي جحيفة:

يا أبا جحيفة، سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء فالعالم يدلك بالعلم من الأسماء ونهايته الجنة والحكيم المقرب يحملك

باليقين وبالحقائق من الصفات ونهايته منازل القربة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ والكبير يدلك بالأسرار من الوجود على طريق الصفاء والنزاهة ونهايته إلى الله.

وتجتمع المراتب الثلاثة في الكبير فجمل قوماً بالعلم وقوماً بالحقائق وقوماً بالأسرار وهم خلفاء الأنبياء وأبدال الرسل وهم البصراء.

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾.

أي على معاينة، يعاين لكل صنف طريقهم فيحملهم عليها وهي النيابة وأما هو فقد انفرد بحالة لا تعرف لعظيم قربه.

وكان ينشد رضي الله عنه:

وغنى لي منى قلبي فغنيت كما غنى
وكنا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا

وقال رضي الله عنه:

أوقات العبد أربعة لا خامس لها النعمة والبلية والطاعة والمعصية.

ولله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية.

فمن كان وقته الطاعة فسبيله شهود المنة من الله تعالى إذ هداه لها ووفقه للقيام بها.

ومن كان وقته المعصية فسبيله الاستغفار والتوبة.

ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله.

ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر، والرضا رضى النفس عن الشهوات، والصبر مشتق من الأصبار وهو الغرض للسهام،

وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضاً لسهام القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر.

والصبر ثبات القلب بين يدي الرب، قال رسول الله ﷺ:

«من أعطي فشكر، وابتلي فصبر، وظلم فغفر، وظلم فاستغفر.

ثم سكت فقالوا: ماذا له يا رسول الله؟

قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾[1].

أي لهم الأمن في الآخرة وهم مهتدون في الدنيا.

وقال رضي الله عنه: الناس على قسمين قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله، قال الله سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾[2].

ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه فسار يطوي مهامه[3] نفسه وبيداء[4] طبعه إلى أن وصل إلى حضرة ربه يصدق على هذا قوله سبحانه:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[5].

ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد، ويشهد لذلك قوله تعالى:

---

(١) رواه ابن مردويه.
(٢) الشورى: ١٣.
(٣) مهامه جمع مهمة وهو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس.
(٤) البيداء: الصحراء الواسعة سميت بذلك لأنها تبيد من يحلها.
(٥) العنكبوت: ٦٩.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾(1) .

فالأول حال السالكين.

والثاني حال المجذوبين.

فمن كان مبدؤه المعاملة فنهايته المواصلة.

ومن كان مبدؤه المواصلة رد إلى وجود المعاملة.

ولا تظن أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طوتها عناية الله له، فسلكها مسرعاً إلى الله عجلاً.

وكثيراً ما تسمع عند مراجعات المنتسبين للطريق أن السالك أتم من المجذوب: لأن السالك عرف الطريق وما توصل إليه، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء منهم على أن المجذوب لا طريق له.

وليس الأمر كما زعموا فإن المجذوب طويت الطريق له، ولم تطو عنه، ومن طويت له الطريق لم تفته ولم تغب عنه، وإنما فاته متاعبها وطول أمدها، والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا.

وقال رضي الله عنه: العارف لا دنيا له لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه.

وقال رضي الله عنه: الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا.

وقال رضي الله عنه: الزاهد غريب في الدنيا لأن الآخرة وطنه، والعارف غريب في الآخرة فإنه عند الله.

---

(1) رواه مسلم وابن ماجه والترمذي والطبراني بنحوه

فإن قلت: ما معنى الغربة في كلام الشيخ هنا وما معناها في الحديث الوارد: «بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بـدأ، فطوبى للغرباء»؟[1].

فاعلم أن الغربة المذكورة في الحديث معناها قلة من يعين على القيام بالحق، فيكون القائم به غريباً لفقدان المساعد وعدم المعاضد، فلا ينهض القائم حينئذ إلا قوة إيمانه، ووفور إيقانه، فلذلك قال ﷺ:

«بدأ الدين غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء».

يريد ﷺ أنهم قاموا بأمر الله في بلاده وعباده حيث تقاعدت همم الناس عن القيام به.

وأما الغربة في كلام الشيخ رضي الله عنه فمعناها أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة فتبقى الآخرة موطن قلبه ومعشش روحه فيكون غريباً في الدنيا إذ ليست وطناً لقلبه عاين الدار الآخرة فأخذ قلبه فيما عاين من ثوابها ونوالها، وفيما شاهد من عقوبتها ونكالها، فاستغرب في هذه الدار.

وأما العارف فإنه غريب في الآخرة فإنه كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيما هنالك فصار غريباً في الآخرة لأن سره مع الله بلا أين، فهؤلاء العباد تصير الحضرة معشش قلوبهم، إليها يأوون وفيها يسكنون فإن تنزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين، فلم ينزلوا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة ولا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، بل كانوا في ذلك كله بآداب الله وآداب رسله وأنبيائه متأدبين، وبما اقتضى منهم مولاهم عاملين.

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه والترمذي والطبراني بنحوه.

وقال رضي الله عنه:

الخوف على قسمين: خوف العامة، وخوف الخاصة.

فخوف العامة على أجسادهم من النار.

وخوف الخاصة على خلعهم التي كساهم مولاهم أن تدنس بالمخالفة.

ومعنى كلام الشيخ هذا أن العامة لم تنفذ بصائرهم إلى شهود خلع الحق عليهم من إيمان وإسلام ومعرفة وتوحيد ومحبة وعلموا أن الله تعالى قد توعد أهل المعصية بعقوبته فخافوا الوقوع في المعصية لئلا يكون ذلك سبب وقوع العقوبة بهم فكان خوفهم إشفاقاً على نفوسهم من عقوبة الله.

وأما أهل الخصوصية فأعطاهم الحق من نوره ما أشهدهم به ما كساهم من خلع مننه فعملوا على صيانتها ليقدمواعليه بها لم تدنس ولم تتغير، طاهرة نقية، مشرقة بهية، وفهموا معنى قوله تعالى: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾(١).

فطهروا ملابس إيمانهم وإيقانهم من دنس غفلتهم وعصيانهم، وفهموا أيضاً قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ﴾(٢).

فعبروا الدنيا وقد رفعوا ملابس المنن خشية أن تدنس بأوساخها كي يقدموا عليه بخلعة التي أنعم بها عليهم، ونهضوا له بالوفاء فيما اقتضى

(١) المدثر: ٤.

(٢) الأعراف: ٢٦.

منهم وبالأمانة والصيانة فيما استأمنهم.

وكان بعض العارفين ينشد:

قالوا غداً العيد ماذا أنت لابسه | فقلت خلعة ساق حبه جرعا
فقر وصبر هما ثوباي تحتهما | قلب يرى ألفة الأعياد والجمعا
العيد لي مأتم إن غبت يا أملي | والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب بها | يوم التزاور في الثوب الذي خلعا

وقال رضي الله عنه:

العامة إذا خوفوا خافوا، وإذا رجوا رجوا.

والخاصة متى خوفوا رجوا، ومتى رجوا خافوا.

ومعنى كلام الشيخ أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر فإذا خافوا إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لأهل الله.

وأهل الله إذا خافوا رجوا: عالمين أن من وراء خوفهم وما به خوفوا أوصاف المرجو الذي لا ينبغي أن يقنط من رحمته، ولا أن ييأس من مننه، فاحتلوا على أوصاف كرمه، علماً منهم أنه ما خوفهم إلا ليجمعهم عليه، وليردهم بذلك إليه.

وإذا رجوا خافوا يخافون غيب مشيئته التي هي من وراء رجاءهم. وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختباراً لعقولهم هل نقف مع ظاهر الرجاء أو تنفذ إلى خوف ما بطن في مشيئته، فلذلك استثار الرجاء خوفهم، وحكمهم في القبض والبسط كما قال الشيخ في الخوف والرجاء غير أن البسط مزلة أقدام الرجال، فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة لجئهم.

قال بعضهم: فتح لي باب من البسط فانبسطت فحجبت عن

مقامي ثلاثين سنة.

وكان الشيخ رضي الله عنه ينشد:

واقطع السير إليه السير إليه زميلا[1] فـإذا مـا نـلت منـه وصـولا

فاقرع الباب قليلا قليلا.

غيره:

واحـذر البسط ونـادي بـالحبيب من على بعد تنادي من قـريب

فقوله واحذر البسط لما قدمناه فإن من رزق من الأنوار البسط فإنه يخشى على العبد أن يبغيه وجوده، قال الله سبحانه:

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2].

والقبض أقرب إلى جود السلامة لأنه وطن العبد، إذ هو في أسر قبضة الله وإحاطة الحق محيطة به، ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه؟ والبسط خروج عن حكم وقته، والقبض هو الأليق بهذه الدار إذ هي وطن التكليف وإبهام الخاتمة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى[3].

---

(١) من زمل يزمل عدا وأسرع معتمداً في أحد شقيه رافعاً جنبه الآخر.

(٢) الشورى: ٢٧.

(٣) قال القشيري في «الرسالة القشيرية» عن القبض والبسط:
وهما حالتان بعد ترقي العبد عن حالة الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف، والبسط للعارف: بمنزلة الرجاء للمستأنف.
ومن الفصل بين القبض والخوف، والبسط والرجاء: أن الخوف إنما يكون من شيء في المستقبل: إما أن يخاف فوت محبوب: أو هجوم محذور - وكذلك الرجاء: إما ان يكون بتأميل محبوب في المستقبل، أو بتطلع زوال محذور وكفاية مكروه في المستأنف، وأما القبض: فلمعنى حاصل في الوقت، وكذلك البسط، فصاحب الخوف=

وأخبرني بعض الصوفية قال: رأى شيخنا شيخه في المنام بعد موته مقبوضاً فقال له: يا أستاذ مالك مقبوضاً؟ فقال له: يا بني القبض والبسط مقامان من لم يوفهما في الدنيا وفي بهما في الآخرة.

وكان هذا الشيخ الغالب عليه في حياته البسط.

وقوله ونادى بالحبيب من على بعد، أي من شهود استحقاق الإجابة أو من على بعد من دعواك لأوصاف الربوبية، أو من على بعد لوجود شهود الإساءة.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: ما طلبت من الله حاجة إلا وقدمت إساءتي أمامي.

فإن قلت: فحديث الثلاثة الذين دخلوا الغار فانحطت عليهم صخرة فسدت باب الغار فقالوا ليذكر كل واحد منكم أرجى عمل عمله لله، فذكر أحدهم بره بوالديه، والآخر عفافه عن ابنة عمه مع حبه إياها والتمكن منها، وذكر الآخر تثميره لأجرة أجير استأجره فلما وجده دفع ذلك كله إليه، فكشف الله عنهم ما نزل بهم وزالت الصخرة عن فم الغار فخرجوا، هذا معنى الحديث مختصراً رواه مسلم في صحيحه[1].

فاعلم أن هؤلاء لم يذكروا طاعاتهم إلا وقد شهدوها فضلاً من الله عليهم فتوسلوا بنعمة إلى نعمة كما أخبر الله عن زكرياء.

﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

= والرجاء تعلق قلبه في حالتيه بآجله، وصاحب القبض والبسط أخذ وقته بوارد غلب عليه في عاجله..

ثم قال: وقد عد أهل التحقيق حالتي القبض والبسط من جملة ما استعاذوا منه، لأنهما بالإضافة إلى ما فوقهما من استهلال الغد واندراجه في الحقيقة: فقر وضرا

(١) ورواه البخاري في صحيحه.

فتوسل إلى الله بسابق حسن عوائده فيه.

وسألت امرأة بعض الملوك فقالت: إنك قد أحسنت إلينا عام أول ونحن محتاجون لإحسانك إلينا هذا العام فقال أهلاً بمن توسل لإحساننا بإحساننا وأعطاها وأجزل لها العطاء.

ومن فتح له هذا الباب جاز له الإخبار بطاعته ووجود معاملته لأنه حينئذ متحدث بنعم الله سبحانه.

وقد كان بعض السلف يصبح فيقول: صليت البارحة كذا كذا ركعة، تلوت البارحة كذا كذا سورة، فيقال له أما تخشى من الرياء؟ فيقول ويحكم وهل رأيتم من يرائي بفعل غيره.

وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له لم لا تكتم ذلك؟ فيقول: ألم يقل الله سبحانه:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (١). وأنتم تقولون لا تحدث.

وقال رضي الله عنه: كان الإنسان بعد ان لم يكن، وسيفنى بعد أن كان، ومن كلا طرفيه عدم فهو عدم.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن الكائنات لا تثبت لها رتبة الوجود المطلق لأن الوجود المطلق إنما هو لله، وله الأحدية فيه، وإنما للعوالم الوجود من حيث ما أثبت لها.

واعلم أن من الوجود له من غيره فالعدم وصفه في نفسه، وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: الصوفي من يرى الخلق في طي سره كالهباء في الهواء لا موجودين ولا معدومين حسبما هم في علم رب العالمين.

---

(١) الضحى: ١١.

وقال أيضاً رضي الله عنه وقد تقدم: وأنا لا نرى أحداً من الخلق، هل في الوجود أحد سوى الملك الحق، وإن كان ولا بد فكالهباء في الهواء إن فتشته لم تجده شيئاً.

وفي كتاب الحكم من[1] كلامنا، العوالم ثابتة بإثباتـه ممحوة لأحدية ذاته.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كان لي صاحب كثيراً ما يأتيني بالتوحيد فقلت له إن أردت التي لا لوم فيها فليكن الفرق على لسانك موجوداً، والجمع في باطنك مشهوداً.

وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال والظل لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم، وإذا أثبت ظليه الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر، إذ الشيء إنما يشفع بمثله ويضم إلى شكله، كذلك أيضاً من شهد ظليه الآثار لم تعقه عن الله، فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا يعوق السفن عن التسيار، ومن ههنا يتبين لك أيضاً أن الحجاب ليس أمراً وجودياً بينك وبين الله، ولو كانت بينك وبينه حجاب وجودي للزم أن يكون أقرب إليك منه ولا شيء أقرب إليك من الله فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب، فما حجبك عن الله وجود موجود معه إذ لا موجود معه، وإنما حجبك عنه توهم موجود معه، وذلك كرجل بات في مكان وأراد البروز فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئير أسد فمنعه ذلك عن البروز فلما أصبح لم يجد هناك أسداً وإنما هو الريح انضغط في تلك الكوة فما حجبه وجود أسد، وإنما حجبه توهم الأسد.

---

(١) كتاب «الحكم» من أشهر كتب ابن عطاء الله السكندري وهو ـ كما يدل سياق العبارة ـ أسبق في التأليف من «لطائف المنن» الذي هو موضوع التحقيق.

وسمعته يقول: لو عذب الله الخلائق أجمع لم ينهلك من عذابهم شيء، ولو نعمهم أجمع لم ينهلك من نعيمهم شيء، فكأنك في الوجود وحدك ثم أنشد:

أنت المخاطب أيها الإنسان فاصغ إلي يلح لك البرهان

وسمعته يقول: دخلت على الشيخ أبي الحسن وفي نفسي أن آكل الخشن وألبس الخشن.

فقال لي الشيخ: يا أبا العباس اعرف الله وكن كيف شئت.

ودخل على الشيخ أبي الحسن فقير وعليه لباس من شعر، فلما فرغ الشيخ من كلامه دنا من الشيخ وأمسك بملبسه وقال:

يا سيدي ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك.

فأمسك الشيخ ملبسه فوجد فيه خشونة فقال:

ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك، ولباسي يقول أنا غني عنكم فلا تعطوني ولباسك يقول أنا فقير إليكم فاعطوني.

وهكذا طريق الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن رضي الله عنها وطريقة أصحابهما الإعراض عن لبس زي ينادي على سر اللابس بالإفشاء ويفصح عن طريقه بالإبداء ومن لبس الزي فقد ادعى.

ولا تفهم رحمك الله أنا نعيب بهذا القول على من لبس زي الفقراء، بل قصدنا أنه لا يلزم كل من كان له نصيب مما للقوم أن يلبس ملابس الفقراء، فلا حرج على اللابس، ولا على غير اللابس، إذا كانا من المحسنين.

﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾(١).

(١) التوبة: ٩١.

وأما لبس اللباس اللين وأكل الطعام الشهي وشرب الماء البارد فليس القصد إليه بالذي يوجب العتب من الله إذا كان معه الشكر لله.

وقد قال الشيخ أبو الحسن: يا بني برد الماء فإنك إذا شربت الماء السخن فقلت الحمد لله تقولها بكزازة وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك بالحمد لله.

والأصل في هذا قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(١).

ألا ترى كيف تولى إلى الظل قصداً لشكر الله تعالى على ما ناله من النعمة.

وسمعته يقول: اختلف الناس في اشتقاق الصوفي: فمنهم من قال أنه منسوب إلى الصوف لأنه لباس الصالحين.

وقيل هو منسوب إلى الصفة يعني صفة مسجد رسول الله ﷺ التي ينسب إليها أهل الصفة وهو نسب على غير قياس.

ثم قال: وأحسن ما قيل فيه أنه منسوب لفعل الله به، أي صافاه الله فصوفي فسمى صوفياً ثم أنشد رضي الله عنه:

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا   وكلهم قال قولاً غير معروف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتى   صافا فصوفي حتى سمي الصوفي

وسمعته يقول: الصوفي مركب من حروف أربعة الصاد والواو والفاء والياء.

---

(١) القصص: ٢٤.

فالصاد صبره وصدقه وصفاؤه.
والواو وجده ووده ووفاؤه.
والفاء فقده وفقره وفناؤه.
والياء ياء النسبة.

إذا تكمل فيه ذلك أضيف إلى حضرة مولاه.

وسئل رضي الله عنه عن قول عيسى عليه السلام: يا بني اسرائيل بحق أقول لكم: لا يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين.

فقال رضي الله عنه: أنا والله ممن ولد مرتين، الإيلاد الأول: إيلاد الطبيعة، والايلاد الثاني: إيلاد الروح في سماء المعارف.

وسمعته رضي الله عنه يقول ولن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته.

ومعنى كلام الشيخ رضي الله عنه: لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله أي انقطاع لا انقطاع ملل يغلب عليه التفويض إلى الله وشهود حسن الاختيار منه فيلقى القياد إليه ويترك نفسه سلماً بين يديه فلا يختار مع مولاه شيئاً لعلمه بما في الاختيار مع الله من الآفات وفي هذا المعنى من قصيدة ذكرناها في كتاب التنوير.

وكن عبده والق القياد لحكمه ... وإياك تدبيراً فما هو نافع
أتحكم تدبيراً وغيرك حاكم ... أأنت لأحكام الإله تنازع
فمحو إرادات وكل مشيئة ... هو الغرض الأقصى فهل أنت سامع
كذلك سار الأولون فأدركوا ... على أثرهم فليمش من هو تابع

وقال رضي الله عنه:

اعلم أن الله خلق هذا الآدمي وقسمه على ثلاثة أجزاء:

فلسانه جزء.

وجوارحه جزء.

وقلبه جزء.

وجعل على كل جزء حفيظاً فقال سبحانه تعالى:

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾(1).

وقال سبحانه:

﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾(2).

وتولى حفظ القلب بنفسه فقال عز وجل:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾(3).

---

(1) ق: ١٨.

(2) يونس: ٦١.

(3) البقرة: ٢٣٥.

المراد بالتدبير المنهي عنه: هو اعتقاد الإنسان أن له دخلاً في النتيجة لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ولله عاقبة الأمور﴾، والإنسان المؤمن يحكم الأمر إحكاماً تاماً كما كان يفعل رسول الله ﷺ في جميع أموره: في الدعوة، وفي الغزوات، وفي العمل على الانتصار والفوز، إنه صلوات الله وسلامه عليه كان يحكم أمر ذلك إحكاماً تاماً، لا يدع صغيرة ولا كبيرة للمصادفة أو للحظ، ثم هو صلوات الله وسلامه عليه يدع أمر النتيجة لله سبحان وتعالى ويرضى بها، ثم ينطلق منها مباشرة: ـ فوزاً كانت أو غيره ـ إلى ما تستلزمه من عمل يترتب عليها. يبدأ صلوات الله وسلامه عليه في إحكامه وفي تصريف أوضاعه بحسب الحكمة الدقيقة ثم يترك النتائج إلى الله سبحانه وتعالى وهكذا، وأئمة الصوفية جميعاً، ومنهم أبو الحسن الشاذلي وأبو العباس المرسي وابن عطاء الله السكندري ـ رضي الله عنهم جميعاً وجزاهم عن الخير أحسن الجزاء ـ يسيرون على هذا النسق لأنهم يتخذون رسول الله ﷺ أسوة حسنة استجابة لقوله تعالى:

وسلط على الجوارح الشيطان.

واقتضى من كل جزء وفاء ما ألزم به.

فوفاء القلب أن لا يشتغل بهم دنيا ولا بمكر ولا حسد.

ووفاء اللسان أن لا يغتاب ولا يكذب ولا يتحدث فيما لا يعنيه.

ووفاء الجوارح أن لا يسارع بها إلى معصية ولا يؤذي أحداً من المسلمين.

فمن وقع من قلبه فهو منافق.

ومن وقع من لسانه فهو كافر.

ومن وقع من جوارحه فهو عاص.

وقال رضي الله عنه: صلاح العبد في ثلاثة أشياء: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الدنيا، فمن عرف الله خاف منه، ومن عرف نفسه تواضع لعباد الله، ومن عرف الدنيا زهد فيها.

وقال رضي الله عنه: قال لي شيخي لا تصحب إلا من تكون فيه أربع خصال الجود من القلة، والصفح عن المظلمة، والصبر على البلية، والرضا بالقضية.

وقال رضي الله عنه: من اشترى زيتاً من بياع فلما فرغ قال له زدني فزاده خيطاً فدينه أرق من ذلك الخيط ومن اشترى فحما فلما فرغ قال له زدني فزاده فحمة فقلبه أسود من تلك الفحمة.

وقال رضي الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام قوم غلبت حسناتهم

= ﴿لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

سيآتهم فهم في الجنة قطعاً، وقوم تساوت حسناتهم وسيآتهم فلا يدخلون النار قطعاً، وقوم غلبت سيآتهم حسناتهم فلا يخلدون في النار قطعاً.

وقال رضي الله عنه: الدخول في الجنة بالإيمان والخلود فيها بالنية والدرجات فيها بالأعمال، والدخول في النار بالشرك والخلود فيها بالنية والدركات فيها بالأعمال.

وقال رضي الله عنه: لا يدخل على الله إلا من بابين: إما من باب الفناء الأكبر وهو الموت الطبيعي، وإما من باب الفناء الذي تعنيه هذه الطائفة.

وقال رضي الله عنه: الكائنات على أربعة أقسام جسم كثيف، وجسم لطيف، وروح شفاف، وسر غريب.

فالجسم الكثيف بمجرده جماد.
والجسم اللطيف بمجرده جان.
والروح الشفاف بمجرده ملك.
والسر الغريب هو المعنى المسجود له.

فالآدمي بظاهر صورته جماد، وبوجود نفسه وتخيلها وتشكلها جان، وبوجود روحه ملك، وأعطي زائداً على ذلك السر الغريب، فلذلك استحق أن يكون خليفة.

وقال رضي الله عنه: ليس العجب ممن تاه في نصف ميل أربعين سنة، إنما العجب ممن تاه في مقدار شبر الستين والسبعين سنة وهي البطن.

وقال رضي الله عنه: الأدنى يشرف على الأعلى ولا يحيط به والأعلى يحيط بالأدنى.

فالأولياء لهم الإشراف على مقامات الأنبياء وما لهم الإحاطة بمقاماتهم والأنبياء يحيطون بمقامات الأولياء.

وقال رضي الله عنه في قول بعض السلف لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً: أي لو كشف الغطاء للنفس لم أزدد يقيناً فيما طالعه القلب.

وقال رضي الله عنه:

جميع أسماء الله إذا أسقطت منها حرفاً ذهبت دلالته على الله كالعليم والقادر والرحيم وغير ذلك من أسماء الله الحسنى إلا اسمه الله فإنك إذا أسقطت الألف بقي لله، فإذا سقطت اللام الأولى بقي له، فإذا أسقطت اللام الثانية بقي هو وهو النهاية في الإشارة وأنشد ابن منصور الحلاج:

أحرف أربع بها هام قلبي ... وتلاشت بها همومي وفكري
ألف ألف الخلائق بالصنـ ... ـع ثم لام على الملامة تجري
ثم لام زيادة في المعالي ... قم هاء بها أهيم أتدري

وقال رضي الله عنه: كشف لي عن أرواح الصديقين صاعدة نحو الملأ الأعلى فإذا قائل يقول لي يا علي:

وما جبنت خيلي ولكن تذكرت ... مرابطها من بر يعص وميصراً

أي أنها ما فرت جبناً من الخلق ولكنها تذكرت أوطان التعرف.

وقال رضي الله عنه: الوحي إلقاء معنى في خفاء.

وقال رضي الله عنه: جميع أسماء الله للتخلق إلا اسمه الله فإنه للتعلق.

ومعنى كلام الشيخ هذا أنك إذا ناديته يا حليم خاطبك من اسمه الحليم أنا الحليم فكن عبداً حليماً، وإذا ناديته باسمه الكريم خاطبك من اسمه الكريم أنا الكريم فكن عبداً كريماً وكذلك سائر أسمائه إلا اسمه الله فإنه للتعلق فحسب إذ مضمونه الألوهية والألوهية لا يتخلق بها أصلاً.

وقال رضي الله عنه: السماء عندنا كالسقف، والأرض كالبيت، وليس الرجل عندنا من يحصره هذا البيت.

وقال رضي الله عنه: نحن في الدنيا بأبداننا مع وجود أرواحنا وسنكون في الآخرة بأرواحنا مع وجود أبداننا.

وسمعته يقول: الفرق بين معصية المؤمن ومعصية الفاجر من ثلاثة أوجه:

المؤمن لا يعزم عليها قبل فعلها، ولا يفرح بها وقت الفعل، ولا يصر عليها بعد فعلها، والفاجر ليس كذلك.

وقال رضي الله عنه لبعض أصحابه:

ليكن ذكرك الله. فإن هذا الاسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمرة فبساطه العلم وثمرته النور.

ثم النور ليس مقصوداً لنفسه وإنما ليقع به الكشف والعيان.

وجاءه رجل فقال له: يا سيدي، هذا فتى.

فقال له الشيخ: أنت فتى؟ قال: نعم.

فقال له الشيخ: تدري ما الفتوة، ليست الفتوة الماء والملح، إنما

الفتوة الإيمان والهداية قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[1].

والفتى كما قال الله سبحانه عن إبراهيم: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[2].

فسمي فتى لأنه كسر الأصنام فمن كسر الأصنام فهو الفتى.

الخليل عليه السلام وجد أصناماً حسية فكسرها وأنت لك أصنام معنوية فإن كسرتها كنت فتى، ولك أصنام خمسة النفس والهوى والشيطان والشهوة والدنيا فإن كسرتها فأنت الفتى.

وافهم ههنا لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي.

وسئل رضي الله عنه فقيل له: يا سيدي لم بدا صاحب الرسالة بإبراهيم ابن أدهم دون غيره وربما كان غيره متقدماً عليه في التاريخ؟

فقال الشيخ رضي الله عنه: لأن إبراهيم بن أدهم كان من ملوك الدنيا فأصبح وهو كذلك فجاء وقت الظهر وهو من كبار الأولياء فبدا به صاحب الرسالة ليعلم أن فضل الله ليس بعمل.

وقال رضي الله عنه:

عبد هو في الحال بالحال.

وعبد هو في الحال بالمحول.

فالذي هو في الحال بالحال هو عبد الحال.

والذي هو في الحال بالمحول عبد المحول.

وأمارة من هو في الحال بالحال أن يتأسف عليها إذا فقدها ويفرح

(١) الكهف: ١٣.
(٢) الأنبياء: ٦٠.

بها إذا وجدها.

والذي هو في الحال بالمحول لا يفرح بها إذا وجدها ولا يحزن عليها إذا فقدها.

ومعنى كلام الشيخ هذا أن من تحقق بالله ملك الأشياء ولم تملكه فيصير الحال تحت قهر تصريفه، وإنما يكون ذلك للرجل لرسوخه في العلم بالله، والعلم حاكم على الحال وبه يوزن، والحال إنما هو فرع من فروع العلم، والعلم قار ثابت، والحال لا بقاء لها، لذلك قالوا:

لو لم تحل ما سميت حالاً ... وكلما حال فقد زالا
انظر إلى الظل إذا ما انتهى ... يأخذ في النقص إذا طالا

والأكابر ملكهم الله أحوالهم، وجعلهم حاكمين عليها، ومن هنا لما قيل للجنيد ما لنا نرى المشايخ يتحركون في السماع وأنت لا تتحرك، فقال رضي الله عنه.

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾(١).

وقيل لبعضهم مالك لا تتحرك في السماع فقال: إنه إذا كان في الجمع كبير احتشمت منه فأمسكت على وجدي فإذا خلوت وحدي أرسلت على وجدي فتواجدت.

فانظر كيف كان زمام حاله معه يمسكها إذا شاء ويطلقها إذا شاء، وإذا اتسع القلب بمعرفة الله غرقت فيه الواردات، وإنما يبدو أثر الحال على من ضاق عن وسعها، والعارف له وسع المعرفة، فإن ورد الوارد عليه غرق في وسع معرفته، وهل رأيت بحراً فاض بمطر سحاب، ولهذا جهلت أحوال الأكابر أرباب المقامات، واشتهر أهل الأحوال لظهور آثار

(١) النمل: ٨٨.

المواهب عليهم لضعفهم عن كتمها ولضيفهم عن وسعها، فربما كان صاحب الحال أحظى بإقبال الخلق من صاحب المقام، وبينه وبينه مثل ما بين السماء والأرض.

وكلما تمكن الرجل في العلوم الإلّهية والمعارف الربانية استغرب في هذا العالم فيقتل من يعرفه ويفقد من يحيط به فيصفه.

وقال رضي الله عنه: كل سوء أدب يثمر لك أدباً فهو أدب.

وقال رضي الله عنه: المؤمن لا يرضى عن نفسه بالخير إذا كان فيه لأن فوق الخير خيرات أتراه يرضى بالشر؟

وقال رضي الله عنه: كان الجنيد قطباً في العلم، وكان سهل بن عبد الله التستري قطباً في المقام، وكان أبو يزيد البسطامي قطباً في الحال.

وقال رضي الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف.

ومعنى كلام الشيخ هذا أن اللطف إذا ورد على العبد فإن كان في الدائرة النفسانية تلقته النفس بالبشاشة والفرح، وإن كان في الدائرة المعنوية تلقته الروح بالمحبة والمقة[1]، فيقع الميل ويكون عن الميل السكون، ويقع مع السكون الأنس بالمسكون إليه، والله لا يحب لك أن تسكن لغيره ولا أن تأنس بشيء دونه، فلذلك قال الشيخ رضي الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف أي السكون إليه والإقامة عنده.

وهذا كما تقدم عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه أنه دخل على بعض الرجال فقال له: كيف حالك؟ فقال له الشيخ: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار.

---

(١) المقة: المحبة.

فقال له الشيخ: أما شكواي من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه وأما شكواك أنت من برد الرضا والتسليم فكيف؟ فقال: أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى، نعم العبد برخ لولا أنه يسكن إلى نسيم الأسحار ومن عرفني لا يسكن لغيري.

وكان عندنا بالإسكندرية امرأة عارفة بالله أخبرتني أنها سمعت قائلاً يقول لها أعوذ بك من النور وفتنته، ومن الغيب وتلفته.

وأخبرتني أيضاً قالت: كنت أمشي بالإسكندرية وإذا بناس في لهوهم وطربهم فقلت في نفسي: هؤلاء في فرح ومسرة وحلم الله من ورائهم ونحن في ملاقاة النوازل وقهر الأحكام.

قالت: فإذا قائل يقول لي ليس أهل الحضرة والأدب كأهل اللهو والطرب.

وأخبرتني أيضاً قالت: إذا كنت في حضرة أو موقف وأرادني زوجي ليقضي إربه مني لا أمنعه ولا يستطيع ذلك كلما أراد مني أمراً عجز عنه قالت حتى يضيق خلقه ويقول ما هذه إلا حسرة هذه الشابة في حسنها بين يدي ولا تمتنع مني ولا أصل إليها، فأقول له في ذلك الوقت: من هو الرجل فينا ومن هو المرأة.

قالت: وإذا كان وقت ستر أمكنه مني ما يريد.

وقال الواسطي استحلاء الطاعات سموم قاتلة وصدق رضي الله عنه.

وأقل ما في ذلك أنك إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائماً فيها متطلباً لحلاوتها فيفوتك صدق الإخلاص في نهوضك لها وتحب

دوامها لا قياماً بالوفاء ولكن لما وجدت فيها من الحلاوة والمتعة، فتكون في الظاهر قائماً لله وفي الباطن إنما قمت لحظ نفسك ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاء تعجلته في الدنيا فتأتي يوم القيامة ولا جزاء لك.

وقال رضي الله عنه لما قرأت عليه كتاب الحقائق للسلمي فقال فيه انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة، فقال الشيخ رضي الله عنه عن الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه ولا حيرة عند المحققين فيما فيه الحيرة عند المؤمنين.

وقال رضي الله عنه الناس على ثلاثة أقسام عبد هو بشهود ما منه إلى الله، وعبد هو بشهود ما من الله إليه، وعبد هو بشهود ما من الله إلى الله.

ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره وإساءته فيقوم مقام المتعذرين بين يدي الله تعالى وتلازمه الأحزان وتحالفه الأشجان فيستولي عليه الكمد كما بدت منه سيئة أو كشف له من نفسه عن أوصاف سوء.

وعبد آخر الغالب عليه شهود ما من الله إليه من الفضل والإحسان والجود والامتنان فهذا تلازمه المسرة بالله والفرح بنعمة الله، قال الله سبحانه:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(١).

فالأول: حال العباد والزهاد.

---

(١) يونس آية: ٥٨.

والثاني: حال أهل العناية والوداد.

الأول: شأن أهل التكليف.

والثاني: شأن أهل التعريف.

الأول: حال أهل اليقظة.

والثاني: حال أهل المعرفة.

فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: العارف من عرف شدائد الزمان في الألطاف الجارية من الله عليه، وعرف إساءة نفسه في إحسان الله إليه: فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون.

وقال أيضاً: قليل العمل مع شهود المنة من الله خير من كثير العمل مع رؤية التقصير من النفس.

قال بعض أهل المعرفة لا يخلو شهود التقصير من الشرك في التقدير.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: قرأت ليلة من الليالي ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

فقيل لي: شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك، ينسيك ألطافه الحسنة، ويذكرك أفعالك السيئة، ويقلل عنك ذات اليمين، ويكثر عليك ذات الشمال، ليعدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله إلى سوء الظن بالله ورسوله.

فاحذر هذا الباب فقد أخذ منه كثير من الزهاد والعباد وأهل الجد والاجتهاد.

ولذلك قل أن تجد الزاهد والعابد إلا مكموداً حزيناً لأنه علم أن الله طالبه بالعبودية وحمله أعباءها وألزمه ما أشفقت السموات والأرض والجبال من حمله.

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(١).

فعاين الزهاد ثقل ما حملوا ولم ينفذوا إلى شهود لطف الله الحامل للأثقال عن عباده المتوكلين عليه، فلذلك لزمهم الكمد، واستولى عليهم الحزن.

وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حملوا من التكاليف أمراً عظيماً وعلموا ضعفهم عن حمله وعن القيام به متى وكلوا إلى نفوسهم، قال الله سبحانه: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾(٢) وعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله حمل عنهم ما حملهم قال الله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(٣) فرجعوا إليه بصدق الرجعى فحمل عنهم الأثقال فساروا إلى الله محمولين في محفات المنن تروح عليهم نفحات اللطف.

والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأثقال التكاليف، تلازمهم المشقات، وتطول بهم المسافات، فإن شاء أدركهم بلطفه فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم إلى شهود سابق توفيقه لهم فطابت لهم الأوقات وأشرقت فيهم العنايات.

وأما القسم الثالث: وهم الذين مع الله بشهود ما من الله إلى الله:

---

(١) الأحزاب: ٧٢.
(٢) النساء: ٢٨.
(٣) الطلاق: ٣.

هؤلاء هم أهل التوحيد والداخلون في ميادين التفريد.

فأما أهل القسم الأول وهم الذين عليهم شهود ما منهم إلى الله فلم يخرجوا عن باطن الشرك وإن خرجوا عن ظاهره لأنهم أقبلوا على نفوسهم موبخين لها شاهدين لتقصيرهم وإساءتهم فلو لم يشهدوا الفعل لها أو منها ما توجهوا إليها بالتوبيخ إذا قصرت، فلذلك قال العارف الذي سبق قوله: لا يخلو شهود التقصير من الشرك في التقدير.

فإن قلت إذا كان توبيخ النفس وذمها يستلزم دقيقة الشرك فكيف نصنع والله قد ذم النفس وأمرنا بتوبيخها إذا قصرت ووبخها هو إذا كانت كذلك؟

فالجواب إن ذمها لازم لأن الله أمرك بذمها من غير أن تشهد لها قدرة أو تضيف لها فعلاً تراها هي الفاعلة له.

وأما القسم الثاني وهو الذي يشهد ما من الله إليه فهو وإن كان خيراً من القسم الأول لكنه ما سلم من إثبات لنفسه إذا رأى نفسه مهداة إليها هدايا الحق، فلولا إثباته لنفسه ما شهد فلأجل هذين المعنيين أثر أهل الله القسم الثالث وهو أن يكونوا بشهود ما من الله إلى الله فافهم.

وقال رضي الله عنه: العارف إذا خوف خاف، قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾(١).

يريد الشيخ رضي الله عنه أن العارف لا يقطعه فضل الله عن شهود عدله ولا يحجبه شهود لطفه عن خوف ما بطن في مشيئته.

ويجب أن تعلم أن أهل المعرفة في نهاياتهم ربما التبس حالهم بأهل البدايات في بداياتهم.

---

(١) الشعراء: ٢١.

فإن المريد في مبدأ إرادته تؤثر فيه المخاوف لعدم استيلاء سلطان الحقيقة عليه فإذا تحقق فناؤه لم تؤثر فيه الواردات ولم يدخل تحت حكم العادات، فإذا رد إلى حالة البقاء أثرت الأشياء فيه كحاله في بدايته.

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾(١).

فتجد المريد يخوف فيخاف والعارف يخوف فيخاف وليسا وإن استويا في الظاهر بسواء.

فخوف المريد لأجل حجبته، وخوف العارف لكمال معرفته.

ومن هنا لانفضل عبداً واثقاً بلطفه ومنته على خائف من غيب مشيئته.

وكذلك لا نفضل عبداً وقف مع ظاهر الوعد على عبد رد إلى وجود الأزلية فاقتطع عن الوقوف مع الوعد الجميل والنعيم ورد إلى ما سبق في القدم.

وقد جاء أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر ـ وقد رفع يديه إلى السماء: اللهم أن تهلك هذه العصابة لا تعبد، وما زال يناشد ربه حتى سقط الرداء عن منكبيه فقال أبو بكر رضي الله عنه: يكفيك بعض مناشدتك لربك يا رسول الله فإنه منجز لك ما وعدك(٢).

فالرسول ﷺ لكمال علمه بالله كان بشهود المشيئة، وأبو بكر رضي الله عنه كان بشهود الوعد الجميل.

ورسول الله ﷺ علم ما علمه أبو بكر من الوعد الجميل.

كيف، والوعد إنما وصل لأبي بكر على يد رسول الله ﷺ.

---

(١) طه: ٥٥.

(٢) سيرة ابن هشام، والسيرة النبوية لابن كثير.

غير أنه سلك الله به المسلك الأتم من الرجوع إلى مشيئته التي لا تتوقف على شيء ويتوقف عليها كل شيء.

وقال رضي الله عنه: ليس الشأن من تطوى له الأرض فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه، فإذا هو عند ربه.

وقال رضي الله عنه شيخه: خرج الزهاد والعباد من هذه الدار وقلوبهم مقفلة عن الله.

وقال رضي الله عنه عن شيخه: من لم يتغلغل في هذه العلوم مات مصراً على الكبائر وهو لا يعلم.

وسمعته يقول عن شيخه أبي الحسن رضي الله عنه: كل شيء نهاك الله عنه فهو شجرة آدم إلا أنه لما أكل من الشجرة نزل إلى الأرض للخلافة، وأنت إذا أكلت من شجرة النهي تنزل لماذا، إنما تنزل إلى أرض القطيعة.

وقال رضي الله عنه: كان ببلاد المغرب ولي من الأولياء يتكلم على الناس وكان بادنا فجلس يوماً يتكلم على الناس فقال رجل مكشوف الرأس كبيره هذا رجل يزهدنا في الدنيا وهو كالدب فكوشف به الشيخ فقال من فوق المنبر يا أبا رويس ما سمنني إلا حبه ثم أنشد:

وقائل لست بالمحب ولو ... كنت محباً لذبت مذ زمن
أجبته والفؤاد في حرق ... لم تذق الحب كيف تعرفني
أحب قلبي وما درى بدني ... ولو دري ما أقام في السمن

وقال رضي الله عنه: عزم إنسان على الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه فأتى إليه وأصحابه معه فلما أكلنا وعزمنا على الخروج ولم نشرب،

فقال الشيخ: يا بخلاء من بخل الصوفي أن يأكل ولا يشرب، ثم قال قال رسول الله ﷺ: من سقا مؤمناً شربة ماء مع وجود الماء كان كمن أعتق سبعين من ولد اسماعيل.

ثم قال الشيخ: إذا أكلتم طعام إنسان فاشربوا عنده حتى ينال هذا الأجر العظيم.

وقال رضي الله عنه: دخلت يوماً على الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه فقال لي:

إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تسأل أحداً شيئاً، وإن أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله.

فقلت في نفسي: كان النبي ﷺ يقبل الهدية، وقال ما أتاك من غير مسألة فخذه.

فقال الشيخ: كأنك تقول كان النبي ﷺ يقبل الهدية[1]، وقال ما أتاك من غير مسألة[2] فخذه، النبي ﷺ قال الله في حقه:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾[3].

متى أوحى الله إليك؟ إن كنت مقتدياً به في الأخذ فكن مقتدياً به كيف يأخذ، كان ﷺ لا يأخذ شيئاً إلا ليثبت من يعطيه ويعوضه عليه، فإن تطهرت نفسك وتقدست هكذا فاقبل وإلا فلا.

وقال لبعض أصحابه لم تنقطع عني؟ قال يا سيدي استغنيت بك.

فقال الشيخ رضي الله عنه: ما استغنى أحد بأحد ما استغنى أبو

(١) رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي.

(٢) رواه البخاري.

(٣) الأنبياء: ٤٥.

بكر برسول الله ﷺ ولم ينقطع عنه يوماً واحداً.

وقال رضي الله عنه: إن الله لما خلق الأرض اضطربت فأرساها بالجبال فقال عز وجل: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ (1) كذلك لما خلق الله النفس اضطربت فأرساها بجبال العقل فأي عبد توفر عقله واتسع نوره نزلت عليه السكينة من ربه فسكنت نفسه عن الاضطراب، ووثقت بولي الأسباب فكانت مطمئنة أي ساكنة لأقداره، ممدودة بتأييده وأنواره، حائدة عن التدبير والمنازعة للمقادير اطمأنت لمولاها لعلمها أنه يراها.

أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد.

فاستحقت أن يقال لها:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ (2).

وقال رضي الله عنه عن شيخه: الوقت ليل، والشأن في الليل الخمود والسكون حتى تطلع شمس المعرفة أو قمر التوحيد أو نجوم العلم فيستضاء بها.

وقال رضي الله عنه يقول الله عز وجل:

ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له.

وقال رضي الله عنه: الأكوان كلها عبيد مسخرة، وأنت عبد الحضرة.

وسمعته يقول: حقيقة النية عدم غير المنوي.

---

(1) النازعات: ٣١.

(2) الفجر: ٢٧ : ٣٠.

وسمعته يقول قال عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء فمن ينزل به ولا في الأرض فمن يصعد به، تأدبوا بآداب الروحانيين، وتخلقوا بأخلاق النبيين أنبع لكم العلم من قلوبكم ما يغمركم ويغطيكم.

وقال رضي الله عنه: نحن إذا أتانا مريد له شيء من الدنيا لا نقول له اخرج عن دنياك وتعال ولكن ندعه حتى ترسخ فيه أنوار المعرفة فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه، ومثل ذلك مثل قوم ركبوا سفينة فقال لهم رئيسها: غداً تهب ريح شديدة لا ينجيكم منها إلا أن ترموا بعض أمتعتكم فارموا بها الآن فلا يسمح أحد قوله، فإذا هبت العواصف كان الكيس من يرمي متاعه بنفسه كذلك إذا هبت عواصف اليقين يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه.

وكان يحكى عن الشيخ عبد الرزاق ـ الولي الكبير رضي الله عنه ـ أن رجلاً من أهل المهدية أتاه فقال له الشيخ: أرى عليك أثر نعمة فمن أين أنت وما قصتك؟ قال يا سيدي كنت من أكابر المهدية وأعيانها وأكثر أهلها مالاً وعزاً، فورد علينا رجل يدعي أنه من الدالين على الله فجئت إليه وأنا متطلع محترق على الوصول إلى الله فقال لي إنك لا تصل إلى هذا الأمر حتى تخرج عن مالك كله، وحتى تطلق نساءك بتاتاً وحتى تغير زيك، ففعلت ذلك فما ازداد قلبي إلا قسوة فضاق صدري وحرت في أمري ولم أطق أن أقيم بالمهدية وقد ذهب ما كنت فيه من المال والجاه ولم أتعوض عن ذلك بشيء في باطني فجئت إلى هنا قاصداً للحج.

فقال الشيخ عبد الرزاق: دعوى على غير بصيرة قاتلهم الله امكث عندنا فلما جاء أوان الحج أرسله الشيخ مع بعض أهل الإسكندرية فحج ثم رجع إلى الشيخ بالإسكندرية فلما جاء أوان السفر إلى المغرب، قال له الشيخ: اذهب إلى بلدتك فإذا وصلت إليها فإن الناس يسمعون بك

ويخرجون إليك مسرعين ويعرضون عليك الملابس والمراكب فخذ أفضلها ملبساً وأحسنها مركباً وادخل إلى المهدية فما حمل إليك من الدنيا فاقبله وسيعيد الله ما كان لك وأكثر منه وتجد زوجاتك قد طلقهن أزواجهن وتنال من العز والرفعة والغنى أكثر مما كنت فيه فإذا تكمل لك ذلك كله فتح الله عيني قلبك.

قال فسافر من عند الشيخ وأتى ساحل المهدية فسمع الناس أن فلاناً أتى من المشرق وليس في البلدة إلا من له عليه يد ومعروف فخرجوا يهرعون إليه بالملابس السنية والمراكب البهية فلبس أحسنها ملبساً وركب أفضلها مركباً ودخل المهدية فأهديت له الهدايا وحملت إليه التحف والأموال ووجد زوجاته قد طلقن وانقضت عدتهم فراجعهن فتكمل له جميع ما وعده به الشيخ في ذلك اليوم ثم فتح الله عيني قلبه.

وتكلم يوماً في فضائل أبي بكر رضي الله عنه فقال:

قال رسول الله ﷺ ما فضلكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره ثم قال:

ما هو هذا الشيء الذي وقر في صدره؟

فقال بعض الحاضرين: المراقبة.

فقال الشيخ: هذا كلام هو قشور.

من هو دون الصديق في الرتبة إذا وجد المراقبة يستغفر الله منها كما يستغفر العاصي من المعصية وذلك أنه إذا أضاف المراقبة لنفسه كأنه يقول أنت الرقيب وأنا الرقيب: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقال رضي الله عنه يوصي بعض أصحابه لما عزم على الحج.

إذا وصلت إلى البيت فلا يكونن همك البيت وليكن همك رب

البيت ولا تكن ممن يعبد الأصنام والأوثان.

وقال من عرف الله لم يسكن إلى الله لأن في السكون إلى الله ضرب من الأمن ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

ومثل هذا ما قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: قيل لي لا تأمنن مكري في شيء وإن أمنتك فإن علمي لا يحيط به محيط وهكذا كانوا.

وكان يقول: إن الولي في فنائه لا بد أن تبقى معه لطيفة علمية عليها يترتب التكليف، وذلك كما يكون الإنسان في البيت المظلم فهو عالم بوجوده وإن كان غير مشاهد له.

وكان يقول: والله ما جلست حتى جعلت الطيران في الهواء والمشي على الماء وطي الأرض تحت سجادتي.

وقال رضي الله عنه وقد قرأت عليه الرعاية للمحاسبي: كل ما في هذا الكتاب يغني عنه كلمتان: أعبد الله بشرط العلم ترضى عن نفسك بشيء، ثم لم يأذن في قراءته بعد.

وسئل عن بعض المشايخ الكائنين في وقته فقال: ضيق الله عليه بالورع، ونحن وسع الله علينا بالمعرفة.

وكان يقول في قول بعض أهل الطريق:

العارف وسعته المعرفة، والورع ضيق عليه الورع.

لا تظنن أن قولهم العارف وسعته المعرفة أنه يأكل حراماً أو ما فيه شبهة، ولكن العارف ذو بصيرة منيرة يكشف له ما غطي عن الورع فيمد يده إلى ذلك الطعام لعلمه بحله وسلامته من الشبهة على ما أشهدته بصيرته، والورع مستور ذلك عنه، فلذلك ربما مد العارف يده إلى ما

قبض المتورع يده عنه.

وكان رضي الله عنه يقول: من اشتاق إلى لقاء ظالم فهو ظالم.

وكان رضي الله عنه يفضل الغني الشاكر على الفقير الصابر وهو مذهب ابن عطاء ومذهب أبي عبد الله محمد الترمذي الحكيم، ويقول:

الشكر صفة أهل الجنة في الجنة، والصبر ليس كذلك.

وسمعته يقول: القبض على قسمين: قبض له سبب وقبض لا سبب له فالقبض الذي له سبب يكون للعموم والخصوص، والقبض الذي لا سبب له لا يكون إلا لأهل التخصيص.

وكان رضي الله عنه يقول:

الشكر انفتاح القلب لشهود منة الرب.

يقال: شكر، ومقلوبه كشر، يقال كشرت الدابة إذا كشفت عن أنيابها.

وقال بعض العارفين لو علم الشيطان أن طريقاً يوصل إلى الله أفضل من الشكر لوقف فيها ألا تراه كيف قال:

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾(١).

ولم يقل ولا تجد أكثرهم صابرين ولا خائفين ولا راجين.

ولما اجتمعت بالسلطان الملك المنصور بالإسكندرية راجين رحمة الله قلت له:

---

(١) الأعراف: ١٧.

يجب عليكم الشكر لله فإن الله تعالى قد قرن دولتكم بالرخاء فانشرحت قلوب الرعية بكم والرخاء أمر لا تستطيع الملوك تكسبه ولا استجلابه كما يتكسبون العدل والجود والعطاء.

فقال: وما هو الشكر؟

قلت: الشكر على ثلاثة أقسام: شكر اللسان، وشكر الأركان، وشكر الجنان، فشكر اللسان التحدث بنعم الله قال الله سبحانه:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1].

وشكر الأركان بالعمل بطاعة الله قال الله سبحانه:

﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ ﴾

وشكر الجنان الاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هي من الله قال الله سبحانه:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾[2].

ومن القسم الأول قال رسول الله ﷺ:

«التحدث بنعم الله شكر».

ومن الثاني أنه قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتتكلف ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال:

«أفلا أكون عبداً شكوراً»[3].

ومن الثالث كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «اللهم ما أصبح بي

---

(١) الضحى: ١١.

(٢) النحل: ٥٣.

(٣) متفق عليه.

من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك» وهذه الأحاديث لم أستحضرها وقت مخاطبتي له.

فقال؛ وما الذي يصير به الشاكر شاكراً؟

قلت له: إذا كان ذا علم فبالتبيين والإرشاد، وإذا كان ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد عنهم.

وقال رضي الله عنه: إن لله ملكاً يملأ ثلث الكون، وإن لله ملكاً يملأ ثلثي الكون، وإن لله ملكاً يملأ الكون كله، وإن لله ملكاً لو وضع قدمه في الأرض لم يجد أين يضع الثانية.

ثم قال: يقول القائل إذا كان يملأ الكون كله فأين يكون الذي يملأ ثلث الكون، فقال رضي الله عنه جواباً عن ذلك: اللطائف لا تتزاحم، كمثل سراج أدخلته بيتاً فملأ البيت نوره ولو أتيت بعد ذلك بألف سراج لوسع ذلك البيت أنوارها.

وسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: يا أبا بكر أتريد أن أدعوك لأمر؟ قال وما هو يا رسول الله؟ قال هو ذاك.

وسمعته يقول:

قال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر أتعلم يوم يوم؟

قال نعم يا رسول الله سألتني عن يوم المقادير، ولقد سمعتك حينئذ وأنت تقول:

أشهد أن لا إلّه إلا الله محمداً رسول الله.

وقال رضي الله عنه:

أبو بكر وعمر خلفاء الرسالة وعثمان وعلي خلفاء النبوة.

وقال رضي الله عنه: العامة إذا رأوا إنساناً ينسب إلى طريق الله جاء من البراري والقفار أقبلوا عليه بالتعظيم والتكريم وكم من ولي لله وبدل بين أظهرهم فلا يلقون إليه بألا وهو الذي يحمل أثقالهم ويدافع الأغيار عنهم فمثلهم في ذلك كمثل حمار الوحش يدخل به البلدة فتطوف الناس به متعجبين لتخاطيط جلده وحسن صورتـه والحمر التي بين أظهرهم وهي التي تحمل أثقالهم لا يلتفتون إليها.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

يا أبا العباس، إذا قال أحد فيك ما ليس فيك فقل:

الله يعلم مني ما يعلم وإلى الله عاقبة الأمور.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

علم الله ما يقال في أوليائه والصديقين فبدأ بنفسه، فقضى على قوم أعرض عنهم فنسبوا إليه الزوجة والولد.

فإن قيل في صديق أنه زنديق، أو قيل في ولي أنه غافل عن الله غوى، فإن ضاق الولي أو الصديق بذلك ذرعاً قيل له: الذي قيل فيك هو وصفك لولا فضلي عليك، وقد قيل في ما لا يستحقه جلالي.

وقال رضي الله عنه: الهالك بهذه الطائفة أكثر من الناجي.

واعلم أن الله تعالى ابتلى هذه الطائفة بالخلق ليرفع بالصبر على آذاهم مقدارهم، ولتكمل بذلك أنوارهم، وليتحقق الميراث فيهم، ليؤذوا كما أوذي من قبلهم فيصبرروا كما صبروا، ولو كان من أتى بهدي أطباق الخلق على تصديقه هو الكمال في حقه لكان الأولى بذلك رسول الله ﷺ، وقد صدقه قوم هداهم الله بفضله، وحرم من ذلك آخرون حجبهم الحق عن ذلك، فانقسم العباد في هذه الطائفة إلى معتقد

ومنتقد، ومصدق ومكذب، وإنما يصدق بعلومهم وأسرارهم من أراد الحق سبحانه أن يلحقه بهم، والمعترف بتخصيص الله وعنايته فيهم قليل، لغلبة الجهل، واستيلاء الغفلة على العباد، وكراهية الخلق أن يكون لأحد عليهم شفوف في منزلة، أو اختصاص بمنة، ألم تسمع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١)؟ ومن أين للعباد أن يعلموا أسرار الحق في أوليائه، وشروق نوره في قلوب أحبائه؟ وسبب هلاك الهالك بهم أن من أظهره الله منهم لا بد وأن يظهره ببواهر المنن، وخوارق العادات، فتستغرب عقول العموم أن يعطي ذلك غير الأنبياء، وأن تظهر الخوارق إلا في أهل العصمة، وهؤلاء لم يعلموا أن كل كرامة لولي هي معجزة لذلك النبي الذي هذا الولي تابع له، فظن هؤلاء أن جريان الكرامة على الولي مساهمة لمقام النبوة، وحاشا لله أن يشترك النبي والولي في مقام، كيف وقد قال أبو يزيد: جميع ما أخذ الأولياء مما هو للأنبياء كزق مليء عسلاً فرشحت منه رشاحة فما انطوى عليه الزق فهو مثل علوم الأنبياء، وتلك الرشاحة هي حظ الأولياء منهم.

واعلم رحمك الله أن من اعتز بعزيز لم يشارك في العز، فأولياء الله اعتزوا بالأنبياء الذين اهتدوا بهداهم واقتفوا سبيلهم فلا يشاركونهم في عزهم، لأن بهم اعتزازهم، ألم تسمع قول المولى تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢)؟فلم يكن إثبات العزة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من عباده يوجب شركة الله في عزه.

وحكمة الله اقتضت عدم اتفاق العباد على الولي، بل انقسم الأمر فيه كما بيناه لما بيناه.

ولأمر آخر وهو أنه لو كان الخلق كلهم مصدقين للولي فاته الصبر

---

(١) الروم: ٦.
(٢) المنافقون: ٨.

على تكذيب المكذبين له، ولو كان الخلق كلهم مكذبين له فإنه الشكر على تصديق المصدقين له، فأراد الله سبحانه بحسن اختياره لأوليائه أن يجعل العباد فيهم على قسمين مصدق ومكذب، ليعبدوا الله فيمن صدقهم بالشكر وفيمن كذبهم بالصبر، والإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر.

واعلم أنه لعزازة قدر الولي عند الله لم يجعله إلا محجوباً عن خلقه وإن ظهر بينهم، لأنه ظهر لهم من حيث ظاهر علمه، ووجود دلالته، وبطن بسر ولايته.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

لكل ولي حجاب وحجابي الأسباب.

فمنهم من حجابه ظهوره بالسطوة والعزة، والنفوس لا تحتمل صحبة من هذا وصفه، وسبب ظهور ذلك الولي بذلك تجلي الحق عليه بصفة ظهر بها، فإذا غلبت عليه شهوداً غلبت عليه ظهوراً، فلا يصحبه ولا يثبت معه إلا من محق الله نفسه وهواه.

ومن هذا الصنف كان شيخنا أبو العباس رضي الله عنه لا تجلس بين يديه إلا والرعب قد ملك قلبك.

ومن خلصه الله من نفسه وهواه فلا يستغرب ظهوره بالعز وأي ملك أعظم من هذا الملك؟ هذا ملك أعوز الملوك وجوده.

أفلا ترى أنه لم يزل في كل قطر وعصر أولياء تذل لهم ملوك الزمان ويعاملونهم بالطاعة والإذعان؟ ومنهم من يكون حجابه كثرة التردد إلى الملوك والأمراء في حوائج عباد الله فيقول القصير الإدراك: لو كان هذا ولياً ما تردد إلى أبناء الدنيا.

وهذا جور من قائله بل انظر تردده إليهم: إن كان لأجل عباد الله، وكشف الضر عنهم، وتوصيل مالا يستطيعون توصيله إليهم، مع الزهد واليأس مما في أيديهم، والتعزز بعز الإيمان وقت مجالستهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فلا حرج على من هذا شأنه لأنه من المحسنين، وقد قال الله سبحانه: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾(١).

وهكذا كان سبيل شيخ شيخنا القطب الكبير أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتي الأنام تقي الدين محمد بن علي القشيري رضي الله عنه يقول: جهل الناس وولاة الأمور بقدر الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه كثرة تردداه إليهم في الشفاعات.

ويجب أن تعلم أن هذا الأمر لا يقدر عليه إلا عبد متخلق بخلق الله، وقد بذل نفسه وأذلها في مرضاة الله، وعلم وسع رحمة الله، فعامل بالرحمة عباد الله ممتثلاً لقول رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»(٢).

ولقد بلغني عن الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه أنه استدعى يهودياً كحالاً ليداوي بعض من عنده، فقال له اليهودي: لا أستطيع أن أعالجه إلا بإذن فإنه جاء مرسوم من القاهرة أن لا يداوي أحد من الأطباء إلا بإذن من رئيس الطب بالقاهرة، فلما خرج اليهودي من عنده قال الشيخ لخدامه هيئوا آلة السفر وسافر لوقته إلى القاهرة وأخذ لهذا الطبيب إذناً وعاد ولم يبت بها ليلة واحدة ثم جاء إلى الإسكندرية، فأرسل إلى ذلك اليهودي فاعتذر له بما اعتذر به أولاً، فأخرج له الشيخ مكتوباً بالإذن

---

(١) التوبة: ٩١.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وأبو داود.

فأكثر اليهودي التعجب من هذا الخلق الكريم.

وقد يكون حجاب الولي كثرة الغنى وانبساط الدنيا عليه.

وقال بعض المشايخ كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد وكان عيشه مما يصيده من البحر وكان الذي يصيده يتصدق ببعضه ويتقوت ببعضه فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب فقال له هذا الشيخ.

إذا دخلت إلى بلد كذا فاذهب إلى أخي فلان فأقرئه مني السلام وتطلب الدعاء منه لي فإنه ولي من أولياء الله تعالى.

قال: فسافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك فتعجبت من ذلك وطلبته فقيل لي: هو عند السلطان فازداد تعجبي فبعد ساعة، وإذا هو أتى في أفخر ملبس ومركب، وكأنما هو ملك في موكبه قال فازداد تعجبي أكثر من الأول، قال فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به ثم قلت لا يمكنني مخالفة الشيخ فاستأذنت فأذن لي فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد والخدم والشارة الحسنة.

فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك.

قال: جئت من عنده؟

قلت: نعم.

قال: إذا رجعت إليه قل له: إلى كم اشتغالك بالدنيا؟ وإلى كم إقبالك عليها؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها؟

فقلت: هذا والله أعجب من الأول.

فلما رجعت إلى الشيخ قال: اجتمعت بأخي فلان؟ قلت: نعم،

قال: فما الذي قال لك؟ قلت: لا شيء، قال: لا بد أن تقول لي، فأعدت عليه ما قال، فبكى طويلاً، وقال: صدق أخي فلان، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده وعلى ظاهره وأنا أخذها من يدي وعندي إليها بقايا التطلع.

ومن حجب أولياء الله قبولهم من الخلق، فإذا قبل الرجل ما يعطى صغر عند الخلق، وهم لا يكبر عندهم إلا من لا يقبل دنياهم، ومن إذا أعطوه رد عليهم وأبى من القبول منهم.

ولعل فاعل ذلك إنما فعله زواقاً وزندقة، واستيلافاً لقلوب العباد عليه، وليتوجه بالتعظيم إليه، ولتنطلق الألسنة بالثناء عليه،

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: من طلب الحمد من الناس بترك الأخذ منهم فإنما يعبد نفسه وهواه وليس من الله في شيء.

ومما قد يصد عقول العموم عن أولياء الله وقوع زلة ممن تزيا بزيهم أو انتسب إلى مثل طريقهم، والوقوف مع هذا حرمان ممن وقف معه وقد قال الله سبحانه: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[1].

فمن أين يلزم لما أساء واحد من الجنس، أو ظهر عدم صدقه في طريقه، أن يكون بقية أهل الطريق كذلك.

وقد أنشدنا الشيخ علم الدين الصوفي لنفسه رحمه الله تعالى:

استِتَارُ الرجال في كل أرض ... تحت سوء الظنون قدر جليل
ما يضِير الهلالَ في حندس الليـ ... ـل سواد السحاب وهو جميل

وأشد حجاب يحجبه عن معرفة أولياء الله شهود المماثلة، وهو حجاب قد حجب الله به الأولين، قال الله سبحانه حاكياً عنهم:

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴾(١).

وقال سبحانه حاكياً عنهم:

﴿ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ ؟ ﴾(٢).

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾(٣).

وإذا أراد الله أن يعرفك بولي من أوليائه طوى عنك شهود بشريته وأشهدك وجود خصوصيته.

وصية وإرشاد:

إياك أيها الأخ أن تصغي إلى الواقعين في هذه الطائفة والمستهزئين بهم، لئلا تسقط من عين الله، وتستوجب المقت من الله، فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصدق، وإخلاص الوفاء، ومراقبة الأنفاس مع الله، قد سلموا قيادهم إليه، وألقوا أنفسهم سلماً بين يديه، تركوا الانتصار لنفوسهم حياء من ربوبيته، واكتفاء بقيوميته، فقام لهم بأوفى ما يقومون لأنفسهم، وكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق خصوصاً أهل العلم الظاهر، فقل أن تجد منهم من شرح الله صدره للتصديق بولي معين، بل يقول لك: نعم نعلم أن الأولياء موجودون ولكن أين هم؟ فلا يذكر له أحد إلا وأخذ يدفع خصوصية الله فيه، طلق اللسان بالاحتجاج، عارياً عن وجود التصديق، فاحذر من هذا وصفه، وفر منه فرارك من الأسد، جعلنا الله وإياك من المصدقين لأوليائه بمنه.

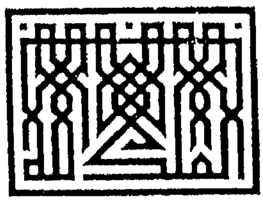
□ □ □

---

(١) المؤمنون: ٣٣. (٢) القمر: ٢٤. (٣) الفرقان: ٧.

الباب العاشر

ما قاله من الشعر
أو قيل في حضرته أو عنه!



قال رضي الله عنه: أطلعني الله على الملائكة وهي ساجدة لآدم عليه السلام فأخذت بقسطي من ذلك، فإذا أنا أقول:

ذاب رسمي وصح صدق فنائي ... وتجلت للسر شمس ضيائي
وتنزلت في العوالم أبدي ... ما انطوى في الصفات بعد صفائي
فصفائي كالشمس يبدو سناها ... ووجودي كالليل يخفي سِوائي
أنا معنى الوجود أصلاً وفصلاً ... من رآني فساجد لبهائي
أي نور لأهله مستبين ... أشهدوني فقد كشفت غطائي

وسئل رضي الله عنه عن الروح والنفس فقال:

إنِ كنتَ سائلنًا عن خالص المنن ... وعن تعلق ذات النفس بالبدن
وعن تشبثها بالخط مذ أُلِفت ... أَدرانها فغدت تشكو من العَطَن
وعن تنزلها في حكمها ولها ... علم يفرقها بالقبح والحسن
وعن بواعثها بالطبع مائلةً ... تهوي بشهوتها في ظلمة الشَّجَن
وعن حقيقتها في أصل معدنها ... لا ينثني وصفها منها إلى وثن
فاسمع هديتَ علوماً عز سالكها ... عن العَيان ولا يغررك ذو لسن
قصداً إلى الحق لا تخفى شواهدها ... قامت حقائقها بالأصل والفَنَن

يا سائلي عن علوم ليس يدركها ذو فكرة بفهوم لا ولا فطِن
لكن بنور على جامع خمدت له العقول وكل الخلق في وسن
خذها إليك بحق لست جاهلهُ والأمر مطلع والحق قيدني
عن الحقيقة خذ علم الأُمور ولا تحجبك صورتها في عالم الوطن
تطور النفس سر لا يحيط به عقل تقيد بالأوهام والدرن
لكنها برزت بالحكم قائمةً حتى تألَّفها السكان بالسكن
وكي يقال عبيد قائمون بما أُلقي من الأُمر قبل الخلق والمحن
والنفس بين نزول في عوالمها كآدم وله حواء في قَرن
والروح بين ترَقٍ في معارجها وهي الموافق التعريف والمنن
مثالها في العلا مرآة معدنها أَلطافها خفيت كالسر في العلن
زيتونة زيتها نور لشاربها مدت هديتها في الكون والكَيَن
والكل أَنت بمعنى لا خفاء به والنور يحجبه كالماء في اللبن
والعبد محتجب في عز مالكه دقَّت معارفه في الدهر والزمن

وكان ينشد رضي الله عنه:

لو عاينت عيناك يوم تزلزلت أَرض النفوس ودكت الأَجبال
لرأَيت شمس الحق يسطع نورها حين التزلزل والرجال رجال

وقال: الأَرض أرض النفس، والجبال جبال العقل، والشمس شمس المعرفة.

وكان ينشد رضي الله عنه:

وقفت على التوبادِ حين رأَيته فكبر للرحمن حين رآني
فقلت له أَين الذين عهدتهم حواليك في أَمن وحفظ زمان
فقال مضوا واستودعوني ديارهم ومن ذا الذي يبقى على الحدثان؟

وكان ينشد رضي الله عنه:

وقد بقينا مذبذبين حيارى   نطلب الوصل ما إليه سبيل
فدواعي الهوى تخف علينا   وخلاف الهوى علينا ثقيل

وكان ينشد رضي الله عنه للسهروردي رضي الله عنه:

أبداً تحن إليكم الأرواح   ووصالكم ريحانُها والراح
وقلوب أهلِ ودادِكم تشتاقكم   وإلى كمال جمالكم ترتاح
يا رحمة للعاشقين تحملوا   ثِقَل المحبة والهوى فضّاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم   وكذا دماء البائحين تباح

وكان ينشد رضي الله عنه:

مرت لنا بمنى والخيف أُوقات   وطيب عيش قطعناه ولذات
لأسلكنَّ ولو أن الأُسود بها   قوافل ورماح الخط غابات

وكان ينشد قول امرىء القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه   وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عيناك إنما   نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

وكان يقول: نحاول ملكاً بالبقاء، أو نموت فنعذر بوجود الفناء.

وكان ينشد من قصيدة ابن العطار:

رفعتْ مقاماتُ الوصال حجابي   حتى احتجبت بكم عن الحُجاب
ولزمت محرابي لزوم مجمع   فرأيت وجه الحق في المحرابَ
وخرقت لوحَ سفينتي لأعيبها   فنجوت من ملك لها غَصاب
وقتلت من نفسي غلاماً قتله   سبب النجاة وأعظم الأسباب
وكشفت عن قلبي جدار حجابه   عن كنزه الباقي بغير ذهاب
ورقيت في السبع السموات العلا   حتى دنوت فكنت مثل القاب

وأنشد بين يديه وأنا حاضر أسمع:

خذ من كلامي ما يلذ جناه	وينم كالمسك العبيق شذاه
ذكر الإله الزم هديت لذكره	فبه القلوب تطيب والأفواه
واجعل حلاك تقاه إن أخا الحجا	يا صاح من كانت حلاه تقاه
ولتعمل الأفكار في ملكوته	مستغرقاً في الكشف عن معناه
ولتخلع النعلين خلع محقق	خلا عن الكونين في مسراه
ولتفن حتى عن فنائك أنه	عين البقاء فعند ذاك تراه
وإذا بدا فاعلم بأنك لست هو	كلا ولا أيضاً تكون سواه
شيئان ما اتحدا ولكن ههنا	سر يضيق نطاقنا عما هو
يا سامعاً ما قد أشرت له ألا	قلب يفكر ما وعت أذناه
أزل الحجاب حسك ينكشف لك	سر ما قد غاب عنك سناه
إن الإله أجل ما متعرف	من لم يره فقد استبان عماه
فبه يراه ذوو البصائر والنهي	ما غاب عنهم لحظة مرآة
أنى يغيب وليس يوجد غيره	لكن شديد ظهوره أخفاه

ولما انتهى في الإنشاد إلى قوله:

وإذا بدا فاعلم بأنك لست هو	كلا ولا أيضاً تكون سواه
شيئان ما اتحدا ولكن ههنا	سر يضيق نطاقنا عما هو

قال الشيخ رضي الله عنه ولا نستطيع أن نبينه أبداً:

وقرأت عليه القصيدة المنسوبة لابن الفرس:

الله ربي لا أريد سواه	هل في وجود الحق إلا الله؟
ذات الإله بها قوام ذواتنا	هل كان يوجد غيره لولاه؟
لا غرو في أنا رأيناه به	فالنور يظهر ذاته فتراه
فالسالكون مشاهدون لصنعه	مستغرقون بفكرهم إياه
والعارفون مشاهدون لذاته	حتى كأن قلوبهم مثواه

يا غائباً والحق فيه حاضر … أتغيب عنه وما شهدت سواه؟
من لم يشاهد بالبصيرة ذاته … فلقد أحاط به حجاب عماه
من لا يرى في كل حال غيره … فمن المحال عليه أن ينساه
من كان في الملكوت يسري فكره … فالفوز بالحسنى ثواب سراه
سبحان من خرق الحجاب لعبده … وهداه منهج قصده فرآه
سبحان من ملأ الوجود أدلة … ليلوح ما أخفى بما أبداه
سبحان من لو لم تلح أنواره … لم تعرف الأضداد والأشباه
مولاي أنت الواحد الصمد الذي … في حضرة الملكوت شاهدناه
مولاي أنسك لم يدع لي وحشة … إلا محا ظلماتها بسناه
مولاي عبدك لا يخاف تعطشاً … أيخافه والحق قد رواه؟
مولاي لا آوي لغيرك إنه … حرم الهدى من لم تكن مأواه
أنت الذي خصصتنا بوجودنا … أنت الذي عرفتنا معناه
لم أفش ما أودعتنيه فإنه … ما ذاق سر الحق من أفشاه
من كان يعلم أنك الفرد الذي … بهر العقول فحسبه وكفاه

فقال الشيخ: كل هذا تحويم وليس هو عين القصد.

ووجدت بخط ابن ناشي قال: كتب إلى سيدي وشيخي أبي العباس المرسي وكان قد ورد سلامه علي فقلت:

ورد السلام من الإمام فسرني … أني مررت بخاطر لم ينسني
إن كنت تعلم يا رسول بأنه … باق على العهد القديم فهنني
شيخي أبو العباس واحد وقته … خضر الزمان ورب عين الأعين
أسفي على وقت لديك قطعته … بالباطن الربي قد ربيتني
ما كنت إلا حائداً فرددتني … وإلى الطريق المستقيم هديتني
وسقيتني ماء الحياة وكنت لي … كالخضر لما أن رويت سقيتني
ولو استطعت قطعت عمري عنده … لأعيش بعد الموت في عيش هني

يا أيها المرسي ببحر معارف سافر إلى المرسي بريح لين
فهو الطريق إلى النبي محمد إن كنت يوماً بالإرادة تعتني
صلي عليه الله ما ذكر اسمه في عالم من عالم متفنن

ومدحه الأديب الفاضل شرف الدين البوصيري بقصيدة منها:

أما المحبة فهي بذل نفوس فتنعمي يا مهجتي بالبوس
بذل المحب لمن أحب دموعه وطوى حشاه على أحر رسيس

ثم مر فيها إلى أن قال:

صدق وقل من لم يقم كقيامه لم ينتفع منه امرؤ بجلوس
قبل الإله تقربي بمديحه وتوجهي لجنابه المحروس
رمت المسير له فأعجزني السرى وأباحني مرآه غير بئوس
أكرم بيوم الأربعاء زيارة فكأنه عندي كألف خميس
كل اتصالات السعيد سعيدة بمثابة التثليث والتسديس

ثم مر فيها إلى أن قال:

شرفاً لشاذلة ومرسية سرت لهما الرئاسة من أجل رئيس
ما أن نسبت إليهما شيخيهما إلا جلوتهما جلاء عروس

وكنت في مبدأ الشبيبة عملت فيه قصيدة، وأنشدت بين يديه، فلما فرغ من إنشادها قال: أيدك الله بروح القدس وهي هذه:

برزت سلمى بأثناء الخيم فأرتنا البدر من تحت اللمم
وحدا الحادون لما أبصروا وجهها في الليل صبحاً قد ألم
وعذرناهم وماذا عجب أن يرى وجه لسلمى في الظلم؟
كضياء الصبح أو بدر الدجى وجهها أكمل نوراً وأتم
لو رآها البدر أثنى راجعاً خجلاً من وجهها ومحتشم
أو رأتها الشمس لم تطلع ضحى ثم صارت خدن هم وندم

عـذبـت قلبـي بـهـجـران بـه		عـذب العشاق قبلي في القدم
وكستني ثـوب هـم وضنى		صـرت بين الناس فيه كـالعلم
وأبـت إلا صـدوداً دائـمـاً		فـأبـى دمعـي إلا أن ينـم
فسهـرت الليـل أرعى نجمـه		أذكـر الوصل الذي قـد انصرم
كـلمـا رمت لعيني هـجعـة		قـال لي القلب رويداً لا تنم
تـدعي العشق وتـأتي ضده		إنـمـا العشق سـهـاد وسـقـم
لازم البـاب بـذل وأسـى		فهمـا في العشق شـرط يلتـزم
ودع التقصير في خـدمتـه		شمـر الـذيـل ولا تخش الألم
واجتهـد علك أن تنجـو غـدا		مـن عـذاب الله خـلاق الأمم
لا تـقـل لـي إن هـذا زمـن		عـسـر فيـه وجـود مـن سلم
أولـيـاء الله لـم يـنـقـرضـوا		إن حـزب الله غـيـر منهـزم
قـد رأينـا كلهـم في واحـد		ذي بـهـاء ووفـاء وهـمـم
في أبي العباس مجموع الذي		منحـوه مـن علوم وحـكـم
بـأبى العبـاس زاحت كـربـة		عن قلوب الخلق وانجابت ظلم
وبـه شمس الهدى قد ظهرت		وبـه در الـعـلـوم قـد نـظم
أي نـور قـد بـدا لأهـله		أي علم قـد بـدا لمـن فهـم
ولـقـد فـضـله رب الـعـلا		وكـسـاه حـللا مـن الـنـعم
قـل لأقـوام أرادوا شـأوه		أقصـروا إن الإلـه قـد قسم
ليس هـذا الأمـر أمـراً هيناً		فـتـنـالـوه بـجـد وهـمـم
إنمـا هي قسمـة قـد قسمت		أعـطيت أحمد في حـال العدم
نـازعـوا الله تعـالى حـكمـه		إذ أرادوا ستـر ذي النـور الأتم
إن يكونوا أنكروا شمس الضحى		إذ تبـدى النـور منهـا واستتم
فـهـم إخـوان جـهـل وهـوى		وهـم إخـوان هـم ونـدم
وقـديـمـاً قـال فيـه شيخـه		وهو قطب الأرض ذو العلم الأعم

إنـمـا أنت أنـا فـاعـلم بـذا   إن هـذا لـيس أمـراً مكـتـتـم
وحـديث الشيخ عنـه شـائـع   ذائـع مـا بين عـرب وعـجم
لـو بسـطناه لـطال بسـطه   ولـزاد الـشـرح فـيـه وعـظم
إنهم لن يسـتـطيعـوا جـحـده   فتـراهم مـازجي شهـد بسم
فـليـدم غـيـظهـم وحـقـدهـم   وليمـوتـوا كـلهم مـوتـة غـم
دمت في عـز على رغم العـدا   ما رقي القمري في غصن سلم

وحين انتهى في الإنشاد إلى قولنا:

قـد رأينـا كلهـم في واحـد   ذي بـهـاء ووفـاء وهـمـم
في أبي العباس مجموع الـذي   مـنـحـوه مـن عـلوم وحـكـم

قال الشيخ رضي الله عنه: والله لقد قال لي الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه يا أبا العباس فيك ما في الأولياء وليس في الأولياء ما فيك.

ولما انتهى في إنشادها إلى قوله:

وقـديـمـاً قـال فيـه شيخـه   وهو قطب الأرض ذو العلم الأعم
إنـمـا أنت أنـا فـاعـلم بـذا   إن هـذا لـيس أمـراً مكـتـتـم

قال الشيخ رضي الله عنه: والله لقد قال لي الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت.

ومكثت بعد ذلك مدة سنين ثم أتى الشيخ رضي الله عنه من الصعيد فلما اجتمعت به أراني قصيدة عملها فيه إنسان من أهل أخميم وقال أجبه فذهبت فتوقف علي القول، فقلت: عجباً يأمرني الشيخ ويتوقف على القول، هذا والله من عدم صدقي، فلما قلت ذلك فتح الله باب الكلام حتى كأنما سيلاً تدفق إلى أن تكملت قصيدة، فلما قرئت

عليه وقعت منه موقع الرضا حتى كان يمكث المدة من الزمان ويستعيدها، وقال لما قرئت عليه: هذا الفقيه صحبني وبه مرضان وقد عافاه الله منهما: يعني وجعاً في رأسي، والوسوسة في الطهارة، ولا بد أن يجلس ويتحدث في العلمين، وهي هذه:

قف بالديار فقد بدا مغناها ... فلمن تسير وما المراد سواها؟
وأرح قلوصك قد بلغت المنحنى ... فلطال ما جهدت ودام سراها
ولطال ما قطعت مهامه واغتدت ... أرساغها مخضوبة بدماها
تمسي وتصبح لا تمل من السرى ... حتى تشكت أنها ووجاها
رفقاً بها يا أيها الحادي ولا ... تغرى بها فالشوق قد أغراها
يكفي الذي لاقته من يلم السرى ... وكفى بها وجداً بها وكفاها
أو ما تراها كيف تذري دمعها ... حتى تبل من الدموع ثراها
يحدو بها نحو الديار غرامها ... ويقودها نحو الحبيب هواها
فازت بأن وصلت إلى أحبابها ... فتمايلت والشوق حشو حشاها
حنت وأنت إذ رأت وادي النقا ... واستبشرت فيه بنيل مناها
فسرورها كسرور أيام غدا ... فيها أبو العباس شمس ضحاها
تاهت بأحمد إذ أتاها رحمة ... وغدت به بين الورى تتباهى
وتشرفت أوقاتها بمجيئه ... وتحلت الأيام منه حلاها
وغدا يسدد أمر دين محمد ... فيزاح عنها كربها وجلاها
أن تلقه تلق إماما راسخاً ... حبراً منيباً صادقاً أواها
قد كملت فيه الفضائل كلها ... وتجمعت فيه على أخراها
كم سنة ماتت فيحيا رسمها! ... كم بدعة عقدت فحل عراها!
كم من أتاه والمعاصي دأبه ... قد قيدته نفسه بهواها
فأزل عنه ما به فتقشعت ... عنه سحائب ظلمة بدجاها!
كم من قلوب قد أميتت بالهوى ... أحيا بها من بعد ما أحياها!

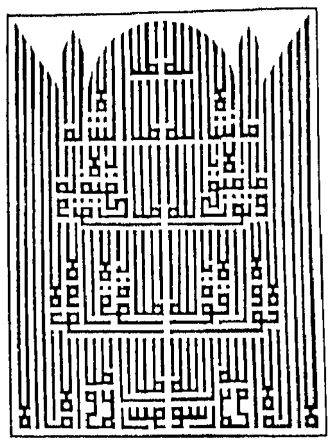
أحييت علم القوم في زمن به   قل المساعد فانجلت ظلماها
وأتيت غوثا للأنام وقبل ذا   ركبت محارم واستبيح حماها
وغدوت ترفل في ثياب معارف   ولبست من حلل التقى أسناها
ما زلت حتى طاوعتك نفوسنا   فأزلت عنها جهلها وعماها
من بعد ما ظفرت بنا وتحكمت   فينا وزلت عن سبيل هداها
ذللتها حتى أتت منقادة   من بعد ما جمحت وعز سقاها
فلذاك أضحى ودها لك خالصاً   بشرى لها في ودها بشراها
فعدوت أعلا همها في جهرها   وكذاك أيضاً انت في نجواها
ما زلتم تهدون أمة أحمد   فبكم تكمل برها وتقاها
قد كان قدماً بالبرية حيرة   حتى أتى قطب الورى فهداها
بالشاذلي تقشعت ظلماؤها   وتنورت بمجيئه أقفاها
كنز التقى علم الهدى بحري الندى   قطب البرية عونها ملجاها
من كان أن خطب ألم حماها   وروى بها عن صرفه ووقاها
كهف تلوذ به البرية كلها   ترجوه في لأواتها ورخاها
حتى توفاه الإلَه فيا لها   من بغية قد حازها وحواها
وخلفته في حاله ومقامه   بالإرث منه فارتقيت علاها
الله أبقى للبرية أحمداً   وأقامه فيها لكي يرعاها
إن الذين تعرضوا لفخاره   طبقت جفوتهم على أقذاها
إن تنكروا الآيات وهي ظواهر   فلقد تبدت واستبان سناها
هم يعلمون بأنه قطب الورى   لكنما غلب النفوس هواها
أو ما ترى قوم النبي محمد   جحدوا ولجوا في الجحود سفاها
مع علمهم أن النبي محمداً   كان الرسول أتى لها بهداها
فأدام غيظهم المليك ولم تزل   في حالة يرضى بها مولاها
تهدى إليك المكرمات بأسرها   وتنال من رتب العلا أقصاها

وكان يعجبه منها:

كم من قلوب قد أميتت بالهوى   أحيا بها من بعد ما أحياها

فكان يستعيد القصيدة إلى هذا البيت، فإذا انتهى في الإنشاد إليه استعاده، جعل الله مدحنا هذا موضوعاً في الميزان، وموجباً للرضوان، بمنه وكرمه.

□ □ □



الباب الحادي عشر

في ذكره ودعائه عقب كلامه
وحزبه للآخذين من علومه وأفهامه



كان من ذكره رضي الله عنه:

لا إله إلا الله الأول الآخر الظاهر الباطن، محمد رسول الله السيد الكامل الفاتح الخاتم.

ومن ذكره أيضاً:

يا الله يا نور يا حق يا مبين: أحيي قلبي بنورك: وأقمني بشهودك، وعرفني الطريق إليك.

ومن ذكره أيضاً:

رب اغفر لي، واجعلني لك عبداً ذائب النفس بأنوارك، مطموس الحس بجلالك، واغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات.

ومن دعائه:

اللهم اغفر لي، واسترني، ولا تفضحني في الدنيا والآخرة، وعلمني وذكرني وفهمني، وأرحني وفرحني وبرني، وفرغني من كل شيء إلا من ذكرك وطاعتك وطاعة رسولك، ومحابك ومحاب رسولك ﷺ.

ومن دعائه عقب كلامه:

اللهم كن بنا رؤوفاً: وعلينا عطوفاً، وخذ بأيدينا إليك أخذ الكرام عليك، اللهم قومنا إذا اعوججنا، وأعنا إذا استقمنا، وخذ بأيدينا إذا عثرنا، وكن لنا حيثما كنا.

ومن دعاء الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه:

اللهم إن الدنيا حقيرة حقير ما فيها، وإن الآخرة كريمة كريم ما فيها، وأنت الذي حقرت الحقير وكرمت الكريم، فأنى يكون كريماً من طلب غيرك؟ أم كيف يكون زاهداً من اختار لدنياه معك؟ فحققني بحقائق الزهد حتى أستغني عن طلب غيرك، وبمعرفتك حتى لا أحتاج إلى طلبك.

إلّهي، كيف يصل إليك من طلبك؟ أم كيف يفوتك من هرب منك؟ فاطلبني برحمتك، ولا تطلبني بنقمتك، يا عزيز يا منتقم، إنك على كل شيء قدير.

ومن دعاء الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه:

اللهم اسلبني عقلاً يحجبني عنك، وعن فهم آياتك، وعن فهم كلام رسولك، وهب لي من العقل الذي خصصت به أنبياءك ورسلك والصديقين من عبادك واهدني بنورك هداية المخصصين بمشيئتك، ووسع لي في النور توسعة كاملة تخصني بها رحمتك، فإن الهدى هداك، وإن الفضل بيدك تؤتيه من تشاء وأنت ذو الفضل العظيم.

ومن دعاء الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه:

يا واسع يا عليم، يا غني يا كريم، يا ذا الفضل العظيم.

اللهم أجلسنا على بساط القرب منك بالفناء من غيرك وبالبقاء

بنورك، أو بالتقريب بالأخذ عما هو لنا إلى ما هو لك من جهة العلم أو العقل، ومن جهة العمل والحال، وهيمنا في برزخ الصنع ناظرين بك إليك، ومنك إلى غيرك، إنك على كل شيء قدير.

ومن دعاء الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه:

يا عزيز يا رحيم، يا حكيم يا غني يا كريم، يا واسع يا عليم، ياذا الفضل العظيم، اجعلني عندك دائماً، وبك قائماً، ومن غيرك سالماً، وفي حبك هائماً، وبعظمتك عالماً، وأسقط البين بيني وبينك حتى لا يكون شيء أقرب إلي منك، ولا تحجبني بك عنك إنك على كل شيء قدير.

ومن دعائه أيضاً رضي الله عنه:

اللهم هب لي من النور الذي رأى به رسولك ﷺ ما كان ويكون، ليكون العبد بوصف سيده لا بوصف نفسه، غنياً بك عن تجديد النظر لشيء من المعلومات، ولا يلحقه عجز عما أراد من المقدورات، ومحيطاً، بذات السر بجميع أنواع الذوات، ومرتباً للبدن مع النفس، وللقلب مع العقل، وللروح مع السر، وللأمر مع البصيرة، والعقل الأول الممد من الروح الأكبر المنفصل عن السر الأعلى.

اللهم ارزقني من كنز لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة، واضربني بها ضرباً تمحق بها من قلبي كل قوة، وأغنني بذلك الرزق عن ملاحظة النفس والخلق، وأخرجني به عن ذل الفقر والتدبير والاختيار وعن الغفلة والشهوة ومشيئة النفس والقهر والاضطرار، إنك على كل شيء قدير.

ومن دعائه رضي الله عنه:

باسم المهيمن العزيز القادر، أجل كل شيء وهو ناصري ق ج ن

ص انصرني فإنك خير الناصرين، وافتح لي فإنك خير الفاتحين، وارزقني فإنك خير الرازقين، واهدني ونجني من القوم الظالمين.

ومن دعائه رضي الله عنه:

يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بيني وبين طاعتك على بساط مشاهدتك، وفرق بيني وبين هم الدنيا وهم الآخرة، ونب عني في أمرهما، واجعل همي أنت، واملأ قلبي بمحبتك، وبهجة بأنوارك، وخشع قلبي بسلطان عظمتك، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك.

وها نحن نثبت حزب سيدنا ومولانا الشيخ الإمام قطب العارفين وعلم المهتدين شهاب الدين أبي العباس أحمد بن عمر المرسي رضي الله عنه وإن كان بعضه من كلام شيخه الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما، وبعده نذكر حزب الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه المسمى حزب النور، وبعده حزب آخر له أيضاً.

وإنما ذكرنا حزب الشيخ أبي العباس الذي رواه عن شيخه، وحزبي الشيخ أبي الحسن هذين حزب النور والذي بعده، لأن هذه الأحزاب الثلاثة لم تشتهر شهرة حزبي الشيخ أبي الحسن حزب البحر وحزب وإذا جاءك، فلذلك أفردنا هذه الثلاثة بالذكر وتركنا ذكر ذينك الحزبين فإنهما سارا مسير الشمس والقمر، وأشيد ذكرهما في البدو والحضر.

فأما حزب الشيخ أبي العباس رضي الله عنه فهو هذا، وهو ورد شيخه بعد العشاء الآخرة، وحزب وإذا جاءك بعد الصبح، وحزب البحر بعد العصر هكذا رتبها الشيخ أبو العباس رضي الله عنه.

وهذا مبدأ الحزب:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾، آمين.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١).

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٢).

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾(٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾(٤).

---

(١) البقرة: ٢٥٥.
(٢) البقرة: ٢٨٥ ـ ٢٨٦.
(٣) آل عمران: ١ ـ ٤.
(٤) المدثر: ١ ـ ٧.

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١).

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾(٢).

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾(٣).

سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم.

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾(٤).

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(١)

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.
(٢) الرحمن: ١ ـ ٨.
(٣) الرحمن: ٧٨.
(٤) الحديد: ١ ـ ٦.
(١) الحشر: ٢٢ ـ ٢٤.

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣
وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾.

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا
وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾.

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن
شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ
ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾.

اللهم يا من هو كذلك، وعلى ما وصفه به عباد الله المخلصون من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين والعلماء الموقنين والأولياء المقربين من أهل سماواته وأرضه وسائر الخلق أجمعين، أسألك بها، وبالآيات والأسماء كلها، وبالعظيم منها، وبالأم[١] والسيدة[٢] وبخواتم سورة البقرة، وبالمبادىء والخواتيم، وبآمين على الموافقة، وبحاء الرحمة وميم الملك ودال الدوام.

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى
ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ
يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[٤].

الأم هنا هي الفاتحة.

(٢) سيدة آي القرآن: آية الكرسي.

(٣) الفتح: ٢٩.

احون، قاف، أدم، حم، هاء، أمين.

كهيعص.

اغفر لي وارحمني برحمتك التي رحمت بها أنبياءك ورسلك ولا تجعلني بدعائك رب شقياً.

وإني خفت وأخاف أن أخاف ثم لا أهتدي إليك سبيلاً فاهدني إليك وأمني بك من كل خوف ومخوف في الدين والدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير.

اللهم يا بديع السموات والأرض، يا قيوم الدارين، ويا قيوم بكل شيء، يا حي يا قيوم يا إلّهنا لا إله إلا أنت، كن لنا ولياً ونصيراً، وأميناً، وأمنا بك من كل شيء حتى لا نخاف إلا أنت، واجعلنا في جوارك، واحجبنا بالذي حجبت به أولياءك، فترى ولا يراك أحد من خلقك، واصبب علينا من الخير أكمله وأجمله، واصرف عنا من الشر أصغره وأكبره.

﴿طسٓ، حمٓ ۝ عٓسٓقٓ، مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾.

اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك والمحبة لك، والشوق إليك، والأنس بك، والرضا عنك، والطاعة لأمرك على مشاهدتك، ناظرين منك إليك، وناطقين بك عنك، لا إله إلا أنت سبحانك. ربنا ظلمنا أنفسنا وقد تبنا إليك قولاً وعقداً فتب علينا جوداً وعطفاً واستعملنا بعمل ترضاه، وأصلح لنا في ذرياتنا إنا تبنا إليك وإنا من المسلمين.

يا غفور يا ودود، يا بر يا رحيم، اغفر لنا ذنوبنا، وقربنا بودك، وصلنا بتوحيدك، وارحمنا بطاعتك، ولا تعاقبنا بالفترة ولا بالوقفة مع كل شيء دونك، واحملنا على سبيل القصد، واعصمنا من جائرها، إنك

على كل شيء قدير.

اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيننا وبين الصدق والنية والإخلاص والخشوع والهيبة والحياء والمراقبة والنور واليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والستر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم في القرآن، وخصنا منك بالمحبة والاصطفائية والتخصيص والتولية، وكن لنا سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً ويداً ومؤيداً، وأتنا العلم اللدني، والعمل الصالح، والرزق الهني الذي لا حجاب به في الدنيا ولا حساب ولا سؤال، ولا عقاب عليه في الآخرة، على بساط علم التوحيد والشرع، سالمين من الهواء والشهوة والطبع، وأدخلنا مدخل صدق، وأخرجنا مخرج صدق، واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً.

يا الله، يا علي يا عظيم يا حليم يا عليم يا سميع يا بصير يا مريد يا قدير يا حي يا قيوم يا رحمن يا رحيم يا من هو هو هو يا هو، أسألك بعظمتك التي ملأت أركان عرشك، وبقدرتك التي قدرت بها على خلقك، وبرحمتك التي وسعت كل شيء، وبعلمك المحيط بكل شيء، وبإرادتك التي لا ينازعها شيء، وبسمعك وبصرك القريبين من كل شيء، يا من هو أقرب إلي من كل شيء، قد قل حيائي، وعظم افترائي، وبعد منائي، واقترب شقائي، وأنت البصير بمحنتي وحيرتي وشهوتي وسوءتي، تعلم ضلالتي وعمايتي وفاقتي وما قبح من صفاتي، آمنت بك وبأسمائك وصفاتك وبمحمد رسولك، فمن ذا الذي يرحمني غيرك، ومن ذا الذي يسعدني سواك، فارحمني وأرني سبيل الرشد واهدني إليه سبيلاً، وأرني سبيل الغي وجنبني إياه سبيلاً، وأصحبني منك الحق والنور والحكم والفصل والبيان واحرسني بنورك.

يا الله يا نور يا حق يا مبين، افتح قلبي بنورك، وعلمني من

علمك، وفهمني عنك، وأسمعني منك، وبصرني بك، إنك على كل شيء قدير.

اللهم إني أصبحت وأنا أريد الخير وأكره الشر، وسبحان الله والحمد لله ولا إلٓه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فاهدني بنورك لنورك فيما يرد علي منك، وفيما يصدر مني إليك، وفيما يجري بيني وبين خلقك، وضيق علي بقربك، واحجبني بحجب عزتك وعن حجبك، وكن أنت حجابي حتى لا يقع شيء مني إلا عليك، وسخر لي أمر هذا الرزق، واعصمني من الحرص والتعب في طلبه، ومن شغل القلب وتعلق الهم به، ومن الذل للخلق، بسببه، ومن التفكير والتدبير في تحصيله، ومن الشح والبخل بعد حصوله، وما يعرض في النفس من ذلك، وتخلقه بقدرتك على وفق إرادتك وعلمك، ومن ضرورات الحاجات إلى خلقك، فاجعله اللهم سبباً لإقامة العبودية، ومشاهدة لأحكام الربوبية، وهب لي خفية من خفياتك، ونوراً من أنوارك، وذكراً من أذكارك، وسراً من أسرارك، وطاعة من طاعات أنبيائك، وصحبة لملائكتك وتول أمري بذاتك، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك، واجعلني حسنة من حسناتك، ورحمة بين عبادك تهدي بها من تشاء إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، ألا إلى الله تصير الأمور.

اللهم اهدني لنورك وأعطني من فضلك وامنعني من كل عدو هو لك ومن كل شيء يشغلني عنك، وهب لي لساناً لا يفتر عن ذكرك. وقلباً يسمع بالحق منك، وروحاً يكرم بالنظر إليك، وسراً ممتعاً بحقائق قربك، وعقلاً جاثلاً بجلال عظمتك، وزين ما ظهر وما بطن مني بأنواع طاعتك، يا سميع يا عليم يا عزيز يا حكيم.

اللهم كما خلقتني فاهدني، وكما أمتني فأحيني، وكما أطعمتهم

فأطعمني واسقني، ومرضي لا يخفى عليك فاشفني، وقد أحاطت بي خطيئاتي فاغفر لي وهب لي علماً يوافق علمك، وحكماً يصادف حكمك، واجعل لي لسان صدق بين عبادك، واجعلني من ورثة جنتك، ونجني من النار بعفوك، وأدخلني الجنة حالاً ومالاً برحمتك وأرني وجه محمد نبيك، وارفع الحجاب فيما بيني وبينك، واجعل مقامي عندك دائماً بين يديك وناظراً منك إليك، وأسقط البين عني حتى لا يكون شيء بيني وبينك، واكشف لي عن حقيقة الأمر كشفاً لا طلب بعده لعبدك، مع المزيد المضمون بكريم وعدك، إنك على كل شيء قدير.

يا الله يا عزيز يا حكيم إنك قد أيدت من شئت بما شئت كيف شئت على ما شئت، فأيدنا بنصرك بحرمة أوليائك، ووسع صدورنا لمعرفتك عند ملاقاة أعدائك، واجلب لنا من رضيت عنه حتى نخضع له ونذل كما جلبته لمحمد رسولك، واصرف عنا كيد من سخطت عليه كما صرفته عن إبراهيم خليلك، وآتنا أجرنا في الدنيا بالعافية من أسباب النار، ومن ظلم كل جائر جبار، وبسلامة قلوبنا من جميع الأغيار، وبغض لنا الدنيا وحبب لنا الآخرة واجعلنا فيهما من الصالحين إنك على كل شيء قدير.

يا الله يا عظيم يا سميع يا عليم يا بر يا رحيم، عبدك قد أحاط به خطيئاته، وأنت العظيم، وندائي كأنه لم يسمع وأنت السميع، وقد عجزت عن سياسة نفسي وأنت العليم، وأنى لي برحمتها وأنت البر الرحيم، كيف يكون ذنبي عظيماً مع عظمتك؟ أم كيف تجيب من لم يسألك وتترك من سألك؟ أم كيف أسوس نفسي بالبر وضعفي لا يعزب عنك؟ أم كيف أرحمها بشيء وخزائن الرحمة بيديك؟

إلٰهي عظمتك ملأت قلوب أوليائك فصغر لديهم كل شيء فاملأ

قلبي بعظمتك حتى لا يصغر ولا يعظم لديه شيء، واسمع ندائي بخصائص اللطف فإنك السميع من كل شيء.

إلٓهي، ستر عني مكاني منك حتى عصيتك وأنا في قبضتك، واجترحت ما اجترحت فكيف لي الاعتذار إليك.

إلٓهي جذبك لي أطمعني فيك وحجابي عنك آيسني من غيرك فاقطع حجابي حتى أصل إليك واجذبني جذبة لا أرجع بعدها لغيرك.

إلٓهي كم من حسنة ممن لا تحب لا أجر لها، وكم من سيئة ممن تحب لا وزر لها فاجعل سيآتي سيآت من أحببت، ولا تجعل حسناتي حسنات من أبغضت فإن كرم الكريم مع السيئات أتم منه مع الحسنات، فأشهدني كرمك على بساط رحمتك، ورضني بقضائك، وصبرني على طاعتك فيما أجريت علي من أمرك ونهيك، وأوزعني شكر نعمتك، وغطني برداء عافيتك حتى لا أشرك بك غيرك، وامنن علي بالفهم عنك إنك على كل شيء قدير.

إلٓهي معصيتك نادتني بالطاعة، وطاعتك نادتني بالمعصية، ففي أيهما أخافك، وفي أيما أرجوك؟ إن قلت بالمعصية قابلتني بفضلك فلم تدع لي خوفاً، وإن قلت بالطاعة قابلتني بعدلك فلم تدع لي رجاء، فليت شعري كيف أرى إحساني مع إحسانك؟ أم كيف أجهلك فضلك مع عصيانك.

قاف جيم سران مع سرك، وكلاهما دالان على غيرك، فبالسر الجامع الدال عليك لا تدعني لغيرك إنك على كل شيء قدير.

يا الله يا فتاح يا غفار يا منعم يا هادي يا ناصر يا عزيز، هب لي من نور أسمائك ما أتحقق به حقائق ذاتك، وافتح لي واغفر لي وأنعم علي واهدني وانصرني وأعزني، يا معز لا تذلني بتدبير مالك، ولا

تشغلني عنك بمالك، فالكل كلك، والأمر أمرك، والسر سرك، عدمي وجودي، ووجودي عدمي، فالحق حقك، والجعل جعلك، ولا إلّه غيرك، وأنت الله الحق المبين.

يا عالم السر وأخفى، ياذا الكرم والوفاء، علمك قد أحاط بعبدك، وقد شقي في طلبك، فكيف لا يشقى من طلب غيرك، تلطفت بي حتى علمت أن طلبي لك جهل، وطلبي لغيرك كفر، فأجرني من الجهل، واعصمني من الكفر، يا قريب أنت القريب وأنا البعيد، قربك أيأسني من غيرك، وبعدي عنك ردني للطلب لك، فكن لي بفضلك حتى تمحو طلبي بطلبك، يا قوي يا عزيز، إنك على كل شيء قدير.

اللهم لا تعذبنا بإرادتنا، وحب شهواتنا، فنشغل أو نحجب أو نفرح بوجود مرادنا، أو نحزن أو نسخط أو نسلم تسليم النفاق عند الفقد، وأنت أعلم بقلوبنا، فارحمنا بالنعيم الأكبر، والمزيد الأفضل، والفوز الأكمل، وغيبنا وغيب عنا كل شيء، وأشهدنا إياك بالأشهاد، وانصرنا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

يا الله يا قدير يا مريد يا عزيز يا حكيم يا حميد، إنا نسألك بالقدرة العظمى، وبالمشيئة العليا، وبالآيات والأسماء كلها، وبهذا العظيم منها أن تسخر لنا هذا البحر، وكل بحر هو لك في الأرض والسماء، والملك والملكوت، كما سخرت البحر لموسى، وسخرت النار لإبراهيم، وسخرت الجبال والحديد لداود، وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان، وسخر لنا كل شيء يا من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، يا علي يا عظيم، يا حليم يا عليم، أخون قاف آدم حم هاء آمين ا هـ.

وهذا حزب النور للشيخ الولي الصالح سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.

يا الله، يا نور، يا حق، افتح قلبي بنورك، وعلمني من علمك، وفهمني عنك، وأسمعني منك، وبصرني بك، وأقمني بشهودك، وعرفني الطريق إليك، وهونها علي بفضلك، وألبسني التقوى منك، إنك على كل شيء قدير.

اللهم اذكرني، وذكرني، وتب علي، واغفر لي مغفرة أنسى بها كل شيء سواك، وهب لي تقواك، واجعلني ممن يحبك ويخشاك، واجعل لي من كل هم وغم، وضيق، وهوى، وشهوة، وخطرة، وفكرة، وإرادة، ومن كل قضاء، وأمر، فرجا ومخرجاً.

أحاط علمك بجميع المعلومات، وعلت قدرتك على جميع المقدورات، وجلت إرادتك أن يوافقها أو يخالفها شيء من الكائنات.

حسبي الله، وأنا بريء مما سوى الله.

الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم.

لا إله إلا الله: نور عرش الله.
لا إله إلا الله: نور لوح الله.
لا إله إلا الله: نور قلم الله.
لا إله إلا الله: نور رسول الله.
لا إله إلا الله: نور سر ذات رسول الله.
لا إله إلا الله: آدم خليفة الله.
لا إله إلا الله: نوح نجى الله.

لا إله إلا الله: إبراهيم خليل الله.
لا إله إلا الله: موسى كليم الله.
لا إله إلا الله: عيسى روح الله.
لا إله إلا الله: محمد حبيب الله.
لا إله إلا الله: الأنبياء خاصة الله.
لا إله إلا الله: الأولياء أنصار الله.

لا إله إلا الله: الرب الإله، الملك الحق المبين، خالق كل شيء، وهو الواحد القهار، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار.

لا إله إلا الله العلي العظيم.
لا إله إلا الله الحليم الكريم.

سبحان رب السموات السبع ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين.

باسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

حسبي الله، آمنت بالله، ورضيت بالله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أتوب إليك بك منك إليك، ولولا ما شئت ما تبت إليك، فامح من قلبي محبة غيرك، واحفظ جوارحي من مخالفة أمرك.

وتالله لئن لم ترعني بعينك، وتحفظني بقدرتك: لأهلكن نفسي، ولأهلكن أمة من خلقك، ثم لا يعود ضرر ذلك إلا على عبدك.

أعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، بل أنت أجل من أن أثني عليك، وإنما هي أعراض تدل على كرمك، قد منحتها لنا

على لسان رسولك، لنعبدك بها على أقدارنا لا على قدرك، فهل جزاء الإحسان الأول الكامل إلا الإحسان منك؟

يا من به ومنه وإليه يعود كل شيء، أسألك بحرمة الأستاذ، بل بحرمة النبي الهادي، بل رحمة السبعين والثمانية، بل بحرمة أسرار ما منك إلى محمد النبي الأمي بل بحرمة سيدة أي القرآن من كلامك، بل بحرمة السبع المثاني والقرآن العظيم، بل بحرمة كتبك المنزلة، بل بحرمة الاسم الأعظم الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، بل بحرمة قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، اكفني كل غفلة، وشهوة، ومعصية، فيما تقدم، وفيما تأخر، واكفني كل طالب يطلبني بالحق وغير الحق في الدنيا والآخرة، فإنه لك الحجة البالغة، وأنت على كل شيء قدير، واكفني هم الرزق، وخوف الخلق، واسلك بي سبيل الصدق، وانصرني بالحق، واكفني كل هم وغم دون الجنة، واكفنا كل عذاب من فوقنا، أو من تحت أرجلنا، أو يلبسنا شيعاً، أو يذيق بعضنا بأس بعض، واكفنا شر ما تعلق به علمك مما كان ويكون، إنك على كل شيء قدير.

سبحان الملك الخلاق، سبحان الخلاق الرزاق، سبحان الله عما يصفون، عالم الغيب والشهادة، فتعالى عما يشركون، سبحان ذي العزة والجبروت سبحان ذي القدرة والملكوت، سبحان من يحيي ويميت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان القائم القادر، سبحان القادر القاهر، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، سبحان القائم الدائم.

قل: حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون.

أعوذ بالله من جهد البلاء، ومن سوء القضاء، ومن درك الشقاء،

ومن شماتة الأعداء، وأعوذ بالله: ربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

يا من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه: أنصرف بالخوف منك والتوكل عليك، حتى لا أخاف غيرك، ولا أرجو غيرك، ولا يعبد شيئاً سواك.

أشهد أنك على كل شيء قدير، وأنك قد أحطت بكل شيء علماً.

نسألك بهذا الأمر الذي هو أصل الموجودات، وإليه المبدأ والمنتهى، وإليه غاية الغايات: أن تسخر لنا هذا البحر: بحر الدنيا وما فيه ومن فيه، كما سخرت البحر لموسى، وسخرت النار لإبراهيم، وسخرت الجبال والحديد لداود، وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان.

وسخر لي كل بحر، وسخر لي كل جبل، وسخر لي كل حديد، وسخر لي كل ريح، وسخر لي كل شيطان من الجن والإنس، وسخر لي نفسي، وسخر لي كل شيء، يا من بيده ملكوت كل شيء وانصرني باليقين، وأيدني بالروح الأمين.

صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾.

الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، نسألك بهذا الاسم العظيم

الذي حفظت به أولياءك الكرام، إنك أنت الملك العلام، أن تجعلني بالأسوة الحسنة التي كانت في إبراهيم عليه السلام والذين معه إذ قالوا لقومهم: إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً، حتى تؤمنوا بالله وحده.

جل ربي أن يوجد بشيء، أو يفقد بشيء، إنه لن يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم ا هـ.

حزب الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، آمين.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿ الٓمٓ (١) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا
بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ (٣) مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ (٤) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٥) هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ﴾ .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ
مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ
ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ
حِسَابٖ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ
يَشۡفِينِ (٨٠) وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ (٨١) وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ
ٱلدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ
فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (٨٤) وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا
تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ (٨٧) يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ (٨٩) وَأُزۡلِفَتِ
ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴾ .

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (١) لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٢) هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ
عَلِيمٌ (٣) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا
يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ (٤) لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (٥) يُولِجُ ٱلَّيۡلَ
فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .
﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ (٢٢)

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ
ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ
مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾
وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ
فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾
وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ
فَٱرْغَب ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ
يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ
وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ
ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾
إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ
صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ

فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ
وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ
وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ
وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ
فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ
مُّكْرَمُونَ ﴾.

اللهـم إنا نسألك صحبة الخوف، وغلبة الشوق، وثبات العلم، ودوام الفكـر.

ونسألـك سر الأسرار المانع من الإصرار حتى لا يكون لنا مع الذنب أو العيب قرار، واجتبنا واهدنا إلى العمل بهذه الكلمات التي بسطتها لنا على لسان رسولك، وابتليت بهن إبراهيم خليلك فأتمهن ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

فاجعلنـا من المحسنين من ذريته ومن ذرية آدم ونوح، واسلك بنا سبيل أئمة المتقيـن.

بـاسم الله وبالله ومن الله وعلى الله فليتوكل المتوكلـون.

حسبي الله، آمنت بالله، رضيت بالله، توكلت على الله، لا قوة إلا بالله.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

رب اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات، والحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

رب إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً فاغفر لي وتب علي، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

يا الله يا علي يا عظيم، يا حليم يا عليم، يا سميع يا بصير، يا مريد يا قدير، يا حي يا قيوم، يا رحمن يا رحيم، يا من هو هو، يا أول يا آخر، يا ظاهر يا باطن، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام.

اللهم صلني باسمك العظيم الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السماء، وهب لي منه سراً لا تضر معه الذنوب شيئاً، واجعل لي منه وجهاً تقضى به الحوائج للقلب والعقل والروح، والسر والنفس والبدن، ووجهاً ترفع به الحوائج القلب والعقل، والسر والنفس والبدن، ووجهاً ترفع به الحوائج من القلب والعقل، والسر والروح، والبدن والنفس، وأدرج أسمائي تحت أسمائك، وصفاتي تحت صفاتك، وأفعالي تحت أفعالك، درج السلامة: وإسقاط الملامة، وتنزل الكرامة، وظهور الإمامة، وكمل لي ما ابتليت به أئمة الهدى من كلماتك، واغنني حتى تغني بي، وأحيني حتى تحيي بي ما شئت ومن شئت من عبادك،

واجعلني خزانة الأربعين، ومن خلاصة المتقين، واغفر لي فإنه لا ينال عهدك الظالميـن.

﴿ طسٓ، حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ، مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴾.

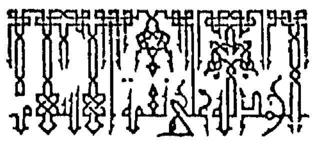
﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾.

﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾.

﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾.

تم الحزب بحمد الله



خاتمة

وأما الخاتمة:

فكنت منذ عشر سنين وأنا بالقاهرة بجامع الحاكم أتى إلي الولي أبو عبد الله الحكيم المرسي، وكان الحكيم هذا يجله الشيخ ويحبه، فقال لي: كنت في سفينة فذكرتك فنسبك بعض من كان فيها إلى بعض المشايخ، فقلت أنا: إنما هو من أصحاب شيخنا أبي العباس المرسي رضي الله عنه، فإن كان الأمر كما قلت لهم فاكتب لي ذلك بخطك، فكتبت له في ذلك الوقت ما أنا أذكره إن شاء الله تعالى، وهذا الكتاب لما كان موضوعاً لمناقب الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله عنه، وهذه اللامعة تتضمن ذكره، وعلو طريقه، والثناء عليه، ناسب أن تكون هذه اللامعة سواراً لزند هذا الكتاب، وياقوته نختم بها عقد هذه الأبواب، ويتبع ذلك وصية كتبت بها إلى إخواننا بالإسكندرية وأنا إذ ذاك بالقاهرة مستهل ربيع الأول الذي هو من سنة أربع وتسعين وستمائة، ثم بعد ذلك قصيدة تضمنت وصايا ومطالبات من الحق تعالى لعبده مختتمة بمدح رسول الله ﷺ، وبها نختم الكتاب إن شاء الله تعالى جعل الله ذلك كله لوجهه الكريم بفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

أما بعد: نحمد الله الواجب حمده، الثابتة علياؤه ومجده، الباهرة آياته، الظاهرة دلالاته، الذي أشرق نوره في قلوب أوليائه فاستنارت به سموات أرواحهم، وأرض نفوسهم وأشباحهم، الله نور السموات والأرض، نور سموات الأرواح بمشاهدته، ونور أرض النفوس بطاعته وخدمته، وجعل قلوبهم مجلاة لذاته ولظهور صفاته، أظهرهم ليظهر فيهم خصوصاً، وهو الظاهر في كل شيء عموماً، ظهر فيهم بأسراره وأنواره، كما ظهر فيهم وفيما عداهم بقوته واقتداره، ألسنتهم بذكره لهجة، وقلوبهم بنوره بهجة، إن نطقوا فعنه، وإن استمعوا فمنه، فكم من لواء ولاية يخفق عليهم وكم من منشور خلافة قد خرج إليهم، أدخلهم إليه مدخل صدق بالفناء عمن سواه، وأخرجهم للخليفة مخرج صدق، باقين بنوره وسناه، فهم برازخ الأنوار، ومعادن الأسرار، وصلهم لما قطعهم، وفرقهم لما جمعهم، وغيبهم عنهم وعلى أسراره أطلعهم، فلو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لوسعهم.

ولا عجب من اتساع أنوارهم، ولا من إحاطة أسرارهم، فإن نور قلوبهم من نور الله، قال صلى الله عليه وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»(١).

وأما إحاطة أسرارهم فلقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾(٢).

فلهم على قدر إرثهم من نبيهم صلوات الله وسلامه عليه التحقق

(١) رواه البخاري في التاريخ والترمذي وابن جرير.
(٢) الفتح: ١٠.

بمقام الفردانية، والدخول إلى حضرة الوحدانية.

وسمعت رحمكم الله أن ودكم على اختلاف مراتبه عندنا مسباره، ولدينا اعتباره، فيميل القلب إليك على حسب ميلك إليه، وإن تزدد من المدد على يد عبد بحسب ما تزيد من الود فيه، كذلك رتبة الإله الحكيم، والقادر العليم.

وبالجملة، فأعيان المطلوبات من الأدب الباطن وامتثال الأمر الظاهر لا تحصرها الوصايا إلا إجمالاً، ويشمل جميع ذلك التقوى، قال الله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾(١).

والوفاء بالعهد: قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾(٢).

والتوبة قال الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾(٣).

والإنابة والاستسلام قال الله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾(٤).

والاستجابة قال الله سبحانه: ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم ﴾(٥).

والاتباع لرسول الله ﷺ قال الله سبحانه: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾(٦).

---

(١) النساء: ١.

(٢) المائدة: ١.

(٣) النور: ٣١.

(٤) الزمر: ٥٤.

(٥) الشورى: ٤٧.

(٦) آل عمران: ٣١.

وشهود كل نعمة من الله سبحانه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾(٩).

وشهود الهدى من الله قال الله سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾(١).

لا جعل الله ما نقوله وما نسمعه حجة علينا، وجعلنا وإياكم من العباد المهتدين بحبه، الباقين على وده، المنعمين بقربه، وأفرغ علينا وعليكم من نور عنايته، وجعلنا من أهل ولايته بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وأزواجه وسلم تسليماً كثيراً.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه ينشد:

وغنى لي منى قلبي وغنيت كما غنى
وكنا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا

والمظهر الأعلى * والبرزخ الأسنى، ومشرق الأنوار * ومعدن الأسرار * من له الفتح والختام * الحائز للمقامات العلية بالتمام * رسول رب العالمين وسيد الأولين والآخرين محمد ﷺ وعلى رله وأصحابه أجمعين، فهو نور الأنوار، وسر الأسرار، إليه تنزل الأسرار الربانية * وعنه تؤخذ المعارف الإلّهية * أخذ أهل الظاهر عنه ظاهرهم، وأخذ أهل الباطن منه باطنهم، وقال ﷺ: العلماء ورثة الأنبياء(٢)، فكل على قدر إرثه، وإرثه على قدر نوره، ونوره على قدر فتحه، وفتحه على قدر صفاء

---

(١) النحل: ٥٣.
(٢) الأعراف: ٤٣.
(٣) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعاً وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما.

قلبه، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربه، ومعرفته بربه على حسب ما سبق له من وجود حبه، غير أن علماء الباطن أحق بالإرث وأولى، وأقرب نسبة وأعلا، لأن علمهم تلزمه الخشية، وتكتنفه العظمة، وحقيقة الإرث أن ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث على الصفة التي كان بها عند الموروث عنه.

فكل صاحب علم لا تصحبه خشية فليس بأهل لأن يكون وارثاً، وقال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» أي العلم بالله، لأن العلم بالله يورث الخشية له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(١).

ولم تزل سلسلة الصلاح والشهادة والولاية والصديقية والقبطانية تمتد من ذلك البرزخ الأعلى المحيط صلوات الله وسلامه عليه إلى وقتنا هذا، ولن تزال كذلك إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾(٢) أي نذهب بولي إلا ونأتي بخير منه أو مثله.

وكل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع * ويكشف له عن قلبه القناع * فهو في هذا الباب لقيط لا أب له، دعي لا نسب له، فإن يكن له نور فالغالب غلبة الحال عليه * والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه * لم ترضه سياسة التأديب والتهذيب * ولم يقده زمام التربية والتدريب.

وشيخنا وإمامنا وقدوتنا في هذا الشأن أوحد وقته، وعلامة زمنه،

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) البقرة: ١٠٦.

علم العارفين * قطب المهدين * مظهر سناء الحقيقة * ومبين معالم الطريقة * العالم بالأسماء والحروف والدوائر * الجامع لعلم الظواهر والسرائر * سيدنا ومولانا شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر الأنصاري المرسي الشاذلي قدس الله روحه * ونور ضريحه * هو الذي اقتبسنا من أنواره * وسلكنا على نهج آثاره * وهو الذي أسرع بأسرارنا حتى لحقت * وفتق ألسنتنا حتى نطقت * غرس غراس المعرفة في قلوبنا فأينعت ثمراتها * وفاحت زهراتها.

وهو الذي بفضل الله وعدنا * وبالكلام في العلمين أشار لنا * لا ننتسب إلا إليه، ولا نعتمد في هذا الشأن إلا عليه * فمن نسبنا إلى غيره بأمرنا جاهل، أو عارف متجاهل * ومن نسب تلميذاً إلى غيره أستاذه فهو كمن نسب ولداً إلى غير أبيه، وهذه الأبوة أحق أن يرعى نسبها ** وأجدر أن يحفظ سببها * إذ تلك الأبوة تفتقر إلى هذه، وهذه لا تفتقر إلى تلك.

وليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه.

وليس شيخك من واجهتك عيانته * إنما شيخك الذي سرت فيك إشارته.

وليس شيخك من دعاك إلى الباب * إنما شيخك الذي رفع بينك وبينه الحجاب.

وليس شيخك من واجهك مقاله * إنما شيخك الذي نهضك حاله.

شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك * حتى تجلت فيها أنوار ربك * نهضك إلى الله فنهضت إليه * وسار بك حتى وصلت إليه * وما زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه * فزج بك في نور الحضرة وقال:

ها أنت وربك * هنا لك محل الولاية من الله * ومواطن الأمداد من الله * وبساط التلقي من الله * ثم إن شاء أبقاه في بحر الفناء غريقاً * وإن شاء أرجعه إلى ساحل البقاء تحققاً وتحقيقاً.

فصاحب الفناء له التلقي من الله * وصاحب البقاء له الإلقاء عنه.

وصاحب البقاء ينوب عن الله * وصاحب الغناء ينوب الله عنه.

وصاحب الفناء قد طمست دائرة حسه * وانفتحت حضرة قدسه * وصاحب البقاء باق بربه في حضرة قدسه.

وصاحب الفناء مدعو إلى الله * وصاحب البقاء داع إلى الله * وهو محل الخلافة والنيابة مع الإذن والتمكين * والرسوخ في اليقين * داع إلى الله على بصيرة من الله، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾(١) أي على معاينة ومطالعة ومشاهدة، لا أدعو إليك وأنا غائب عنك، بل ادعو إليك وأنا ناظر إليك.

وهذا الطريق طريق الأنبياء والمرسلين * وأكابر الصديقين، وهي المقام الأكمل * والمنهج الأفضل، فمن نسبنا إلى غير هذا الإمام مع العلم بنسبتنا فهو مكابر ومعاند، ومن نسبنا إلى غيره مع الجهل بنسبتنا أيضاً فهو عن سبيل الرشد حائد * مخالف لأمر ربه * غير مراقب لقلبه.

ألم تسمع إلى ما قال المولى سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(٢).

فالله سبحانه(٣) يحقق نسبتنا من هذه الطائفة، وأن يتوفانا على

(١) يوسف: ١٠٨.
(٢) الإسراء: ٣٦.
(٣) لعل النص هنا (فالله سبحانه وتعالى نسأل أن يحقق) بدليل ما بعده.

محبتهم * وأن يجعلنا دارجين على مدرجتهم * وأن يزيدنا فيهم ودا * ولا يجعلنا ممن نقض لهم عهداً * بمنه ولطفه.

والحمد لله وكفى * وسلام على عباده الذين اصطفى * والصلاة والسلام على سيد المرسلين * وإمام المتقين * محمد خاتم النبيين * وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأما الوصية المكتوب بها
إلى بعض إخواننا بالإسكندرية
فهي هذه

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سلام الله ورحمته وبركاته على الإخوان المحبين * والأوداء المحبوبين * حفظهم الله وتولاهم * وحرسهم ورعاهم * وأوسع عليهم من فضله * وأفرغ عليهم من عطائه وبذله * وأحل قلوبهم محل المؤانسة والتفهيم * والمفاتحة والتكريم * ورزقهم الطاعة والقبول * والسير إلى الله والوصول * والإذن من الله والدخول * وقدس أرواحهم * وفسح في غيبه مراحهم * وبث لهم من نوره ما يكون لهم هادياً * وأعطاهم من حفظه ما يكون لهم من أغيار الدنيا والآخرة وافياً.

اعلموا رحمكم الله أن العناية الإلّهية وإن كانت غيب فلها شهادة تدل عليها * ودلالة تهدي إليها * فتلمحوا عناية الله فيكم بوقوفكم على حدوده * ورعايتكم لعهوده * ألا وإن من علامة محبة الله للعبد محبة العبد إياه * ومن علامة محبة العبد لله * أن لا يؤثر شيئاً سواه * ومن علامة عدم الإيثار على الله النظر إلى الدنيا بعين الاحتقار. * وإلى

الأكوان ببصر الاعتبار.

والسعيد من أعطاه الله قلباً مفكراً * وبصراً معتبراً * وأذناً تسمع من الله * ونفساً ناشطة إلى خدمة الله * وأحق ما يفتقد العباد من حقوق الله سبحانه الشكر له، والشكر له ظاهر وباطن، فظاهره الموافقة وباطنه شهود النعمة، فما شكره من لم يمتثل أوامرة وحدوده * وما حفظه من ضيع عهوده، فعليكم رحمكم الله بالشكر لنعمه فيكم.

ألا إن أرباب الغفلة والعمى يطلبون من الله مجددات النعم وهم لما أعطاهم غير شاكرين، وكيف يجدد عليك نعمة أنت طالبها وقد ضيعت شكر نعمة طلبتك حتى وصلت إليك، فالطالب لنعم الله أولى ما طلب به الشكر لله، والشكر يطلب لك من المشكور وإن كنت صامتاً * ويستجدي لك ممن شكرته وإن كنت عن الطلب ساكناً * وقد ضمن الله المزيد للشاكرين وما استثنى، فقال عز من قائل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(1).

فإذا كان قد ضمن لهم الزيادة على ما أعطاهم، فكيف لا يديم لهم ما كان منحهم أولاً، ألا إن من أحب بقاء شيء عنده قيده بعقاله * خيفة زواله * فقيدوا نعم الله فيكم بوجود الشكر.

ويستعان على الشكر بالنظر في أيادي المحسن، وكثرة صنائعه، وسوابق مننه ولواحقها * وبداية نعمة وخواتمها * فإنك لم ترم ببصر الإيمان إلا وقع على نعمة سابقة * ومنة منه لاحقة.

ويؤكد ذلك عندك نظرك لمعاملتك معه، وشهودك لمعاملته معك، فإنك إن نظرت ما منه إليك لم تجد إلا فضلاً وإحساناً * وإن نظرت ما

---

(1) إبراهيم: ٧.

منك إليه لم تجد إلا غفلة وعصياناً.

وأصل الخيرات * ومعدن البركات * العمل بطاعة الله * والتجنب لمعصية الله * وعليكم بتصحيح التوبة فإنه ينبني عليها ما بعدها * وتعود بركاتها على ما قبلها * وما من مقام إلا وهو مفتقر إليها، وما زكت الأحوال * ولا قبلت الأعمال * ولا ثبتت مراتب الإنزال * إلا بتصحيح التوبة، وعمومها يدل على خصوصها.

ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فعم جميع المؤمنين بالخطاب بالتوبة فدل ذلك على عظيم قدرها ويستعان على التوبة بالفكرة * ويستعان على التوبة بالفكرة * ويستعان على الفكرة بالخلوة، ويستعان على الخلوة بمعرفة آفات الخلطة.

ومن علامات الوصول إلى الغايات * وجود تصحيح البدايات، ولأن يصحح الله لك مقام التوبة خير لك من أن يطلعك على سبعين ألف غيب ويفقدك إياها.

واذكر الله تعالى بلسانك، وراقبه بقلبك، فما ورد عليك من الله من خير قبلته، وما ورد عليك من ضده دفعته، رجاعاً إلى الله في الدفع والجلب، فإن خامر سرك شيء من ذنب أو عيب أو نظر إلى عمل صالح أو حال جميل فبادر إلى التوبة والاستغفار من الجميع، أما من الذنب والعيب فواجب شرعاً، وأما من العمل الصالح أو الحال الجميل فألقه.

واعتبر باستغفار الرسول ﷺ بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا في معصوم لم يقترف ذنباً قط وتقدس عن ذلك ﷺ، فما ظنك بمن لا يخلو من ذنب في وقت من الأوقات.

واعلموا أن الله قد أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات، فأي

من فاته من الطاعة صنف أو أعوزه من الموافقة جنس فقد فقد من النور بمقدار ذلك فلا تهملوا شيئاً من الطاعات * ولا تستغنوا عن الأوراد بالواردات * ولا ترضوا لأنفسكم بما ترضى به المدعـون من جري الحقائق على ألسنتهم، وخلو أنوارها من قلوبهم، وإن الحق بحكمته جعل الطاعة الجارية على العباد مستقرة لباب الغيب فمن قام بالطاعة والمعاملة بشرط الأدب لم يحتجب الغيب عنه.

وإنما حجاب الغيوب * وجود العيوب * فالتطهر من العيب * يفتح لك باب الغيب * فلا تكن ممن يطالب الله لنفسه ولا يطالب نفسه لله فذلك حال الجاهلين الذين لم يفقهوا عن الله * ولا واجههم المدد من الله.

والمؤمنون ليس كذلك، بل المؤمن من يطالب نفسه لربه ولا يطالب ربه لنفسه * فإن توقف الوقت عليه استنبط أدبه * ولا يستبطىء مطلبه.

وإن ملكوت الله لا يؤذن بالدخول فيه إلا لمن طهر من آفات البشرية، وقام بوفاء العبودية، والتطهر من آفات البشرية، بالتخلق بأخلاق الله، ووجود الفناء عما سوى الله، والتحقق بالعبودية بالامتثال لأوامر الله، والاستسلام لأحكام الله، فإن تصل إلى ذلك، فلك منفسح في الغيب، ومستوطن في الملكوت، وواصلك الأمداد، وقابلك من الله الازدياد.

وتتوصل إلى ذلك بإقلال النظر إلى الظواهر، ورعايتك للسرائر، وأنه لا يشفي السرائر برهان الظواهر، إلا أن يكون معها خالص حب يباشر القلوب، وإشراق نور يذهب بظلمة الذنوب، وإنما طال عليهم الطريق لأنهم لم يسلكوها على منهج حق، ولم يدخلوا فيها مدخل صدق، ولو أنهم فعلوا لم تحتجب عنهم المطالب، وكان ما يطلبونه لهم طالب.

بيان واعتبار وإشراق أنوار

لا تتفقد الوقت بظهور الواردات، ولا بكثرة الطاعات، ولكن انظر إلى ثقتك بالله، وإجلالك لأوامر الله، وترك الاختيار مع الله، فإن وجدت ذلك عندك ولا يوجد واحد منها إلا وجد بقيتها فاعلم أن لله بك عناية أبداها، وودائع أخفاها، واشكره على ما أسدى، واحمده على ما أهدى، واعلموا رحمكم الله أن ودكم على اختلاف مراتبه عندنا مسباره، ولدينا اعتباره، فميل القلب إليك على حسب ميلك إليه، ولن يزاد من المدد لعبد على يد عبد إلا بحسب ما يزيد من الود فيه، كذلك رتبه الإلّه الحكيم، والقادر العليم.

وبالجملة فأعيان المطلوبات من الأدب الباطن وامتثال الأمر الظاهر لا تحصرها الوصايا إلا إجمالاً، ويشمل جميع ذلك التقوى قال الله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ والوفاء بالعهد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ والتوبة قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ والإستجابة لله قال الله عز وجل: ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم ﴾ والاتباع لرسوله ﷺ قال الله سبحانه: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وشهود كل نعمة من الله قال الله عز

وجل: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ لا جعل الله ما نقوله وما نسمعه حجة علينا وإياكم من العباد المهتدين الدائمين على حبه، الباقين على وده، المنعمين بقربه، وأفرغ علينا وعليكم من نور عنايته(١)، وجعلنا من أهل ولايته، بمنه وكرمه آمين.

والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا ومولانا محمد نبيه وحبيبه وعبده كثيراً.

وهذه القصيدة الموعود بها:

فلا والله ما طابت حياة … سوى بالقرب من كنف الحبيب
فلا تختر سوى دار لسعدى … وعد عن الأجارع والكثيب
وما لاقى الأحبة مثل بعد … تفتت منه حبات القلوب
ومن يعشق معززة شروداً … فلا يسأم مقاساة الكروب
ودونك فاستبق نحو المعالي … ولا ترضى بدون من نصيب
ولا تقنع بغير العز مرقى … وسدد نحوه سهم المصيب
وأنهض همة إن لم تثرها … أقمت بموطن النكس الكثيب
ولا تيأس وإن طالت ليال … فكم شمس بدت بعد الغروب
ولا تسأم من التداب يوماً … فإن العز في ذاك الدؤوب
ولا تحزن إذا ما فات فان … فذاك الفتح في نظر الأديب
ولا ترضى بغير الله ذخراً … فنعم الرب من مولى مجيب
ولا تشكو لغير الله ضراً … فليس لغيره كشف الكروب
ولا تركن لغير الله يوماً … فتقطع عنك نفحات الغُيوب
فكم من كربة عظمت وجلت … تجلت فيك عن فرج قريب
ولا يمنعك ذنب من رجاء … فإن الله غفار الذنوب

(١) تكرر من أول قوله: وبالجملة فأعيان المطلوبات في اللامعة المنيرة والدرة الخطيرة، وفي وصيته للإخوان بالإسكندرية ولا مانع من تكراره في كليهما.

ولا تحزن إذا ما ضاق عيش ... فتحرم رتبة الرجل اللبيب
وكم لطف خفي في كفاف ... وكم لله من سر غريب
وكم من محنة في اليسر تردى ... وتمنع عنك موفور النصيب
ولابس حلة للوفر يزهو ... ويلهو عن مراقبة الرقيب
يجهله الغنى وصف افتقار ... أحاط به فعجبك من عجيب
ألم تعلم بأن الله فرد ... فتخشى قهر علام الغيوب
ألم يخلقه من ماء مهين ... مهين أن يدع نهج الأريب
ألم يودعه في الأرحام دهراً ... ألم يخرجه من غم الكروب
ألم يجري له الثديين رزقا ... وعرفه التناول للنصيب
ألم ينعم عليه بمهد لطف ... وأعطاه مودات القلوب
وهذا المهد ليس له براح ... يسائره إلى وقت المشيب
وأسقط عنه تكليفاً وأمراً ... إلى أن يرتدي ثوب الأريب
فحين أتى البلوغ أتى بلاغ ... من الرحمن ينذر من قريب
رضيع اللطف لا تنسى ودادي ... ووداداً كان في غيب الغيوب
ربيئة فضلنا والجود أسرع ... ولا تجنح إلى مرأى قشيب
لطيفة كوننا لا تنسى عهدي ... ويوم ألست فاذكر يا حبيب
وقد أعطيتني عهداً وثيقاً ... وحفظ العهد من شيم اللبيب
ألم أجعلك سراً في وجودي ... ونقطة دارة الأمر الغريب
ألم أظهر صفاتي فيك جهراً ... واستر ذاك بالأمُر العجيب
ألم يأتك إرسالي وأمري ... فليتك لو أجبت لمستجيب
أتاك كلامنا لتجد سيراً ... لحضرتنا وتعمل في الدؤوب
كلام ليس يشبهه كلام ... وهيبته تقلقل للقلوب
لطائفة على الأسرار أحلا ... من العذب الجني المستطيب
إذا تليت مثانيه أديرت ... كؤوس اللطف من كنف الحبيب

وأيـة آيـة تـليـت تـراهـا … عـروس الحسن تجلى للبيب
وأنـوار وأسـرار تـراهـا … إذا ألقيت سمعـك من قـريب
إذا نـاديت كـلا يـا عبـادي … تـرى الأسـرار تسـرع للقـريب
ولـيس إجـابتـي قـولاً ولـكـن … ببـذل الجهد في طـوع الحبيب
وقـد أرسلت خيـر الخلق طـراً … لـيمحـو نـوره ريـن القلوب
أتى بـالمنهـج المختـار يـدعـو … إلى الـرحمن بالسـر الغـريب
أتى والأرض قـد ملئت ظـلامـاً … بشمس هـدى تنزه عن غـروب
وخصصـه الإلـه بكـل فضـل … وأعـطاه مـودات الـقـلوب
وقـال ومن يـطع خيـر البـرايـا … يـطعني هكـذا فعـل الحبيب
وفـيمـا قـال لمـا بـايعـوه … فـخـار بـأن لـلفـطن الأريـب
أزال الكـاف كـاف ذاك كـاف … وحسبـك منـه من سـر عجيب
هـو السبـاق غـايـات المعـالي … هـو الكشـاف أزمـات الكـروب
وأن القـول يقصـر عن عــلاه … كـفـاه ثنـاء عـلام الـغـيـوب
فـصـل ربـنـا أبـداً عـليـه … وسلم في الصباح وفي الغروب
عـلى آل النبي وكـل صحـب … صـلاة لا تمـل من الـدؤوب
فهم خيـر القـرون ومن هـدانـا … بهم رب العبـاد من الـذنـوب
وأحمـد ليس يـرجـو في معـاد … سوى جاء النبي لـذي الكروب
ووالـده محمـد فـاعف عنـه … ودارکـه بـلطف مـن قـريـب
وعبـدك يـا كـريم فجـد عليـه … وبـلغـه إلـى أوفـى نـصـيـب
عـطاء الله والـده أبـحـه … منـالا منـك ستـار العيـوب
على الإسـلام فـاقبضني سليمـا … من الآفـات بمحـو الـذنـوب
كـذاك جميـع من واليت فيكم … ووالاني بـإجـزال الـنصـيـب

وهذا آخر الكتاب، والحمد لله رب العالمين،
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم
النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين،
وسلم تسليماً كثيراً إلى
يوم الدين، وحسبنا
الله ونعم
الوكيل، ا هـ

فهـــرس



The Complete Works of Dr.
ABD AL HALİM MAHMOUD

LATAİF AL' MINAN

Volume 17

DAR AL KITAB AL MASRI
CAIRO
DAR AL KITAB AL LUBNANI
BEIRUT